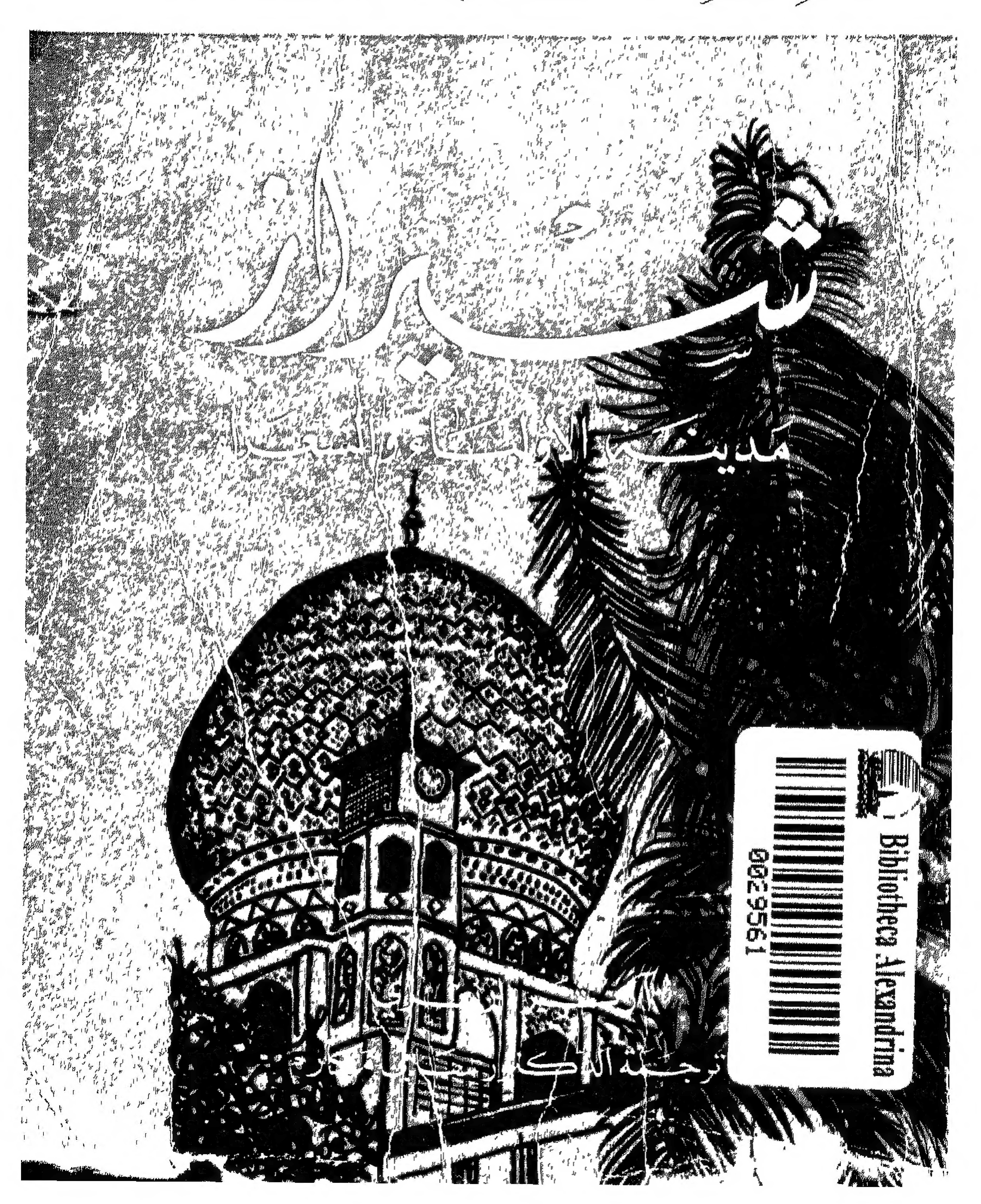
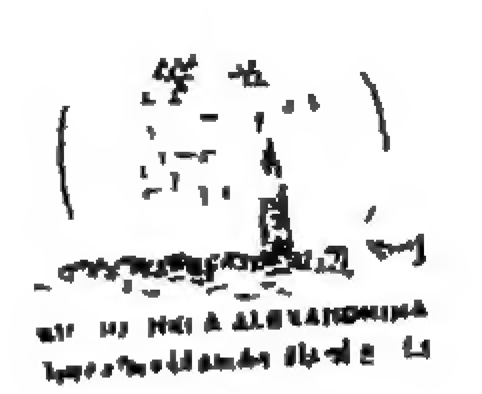
سلسلة مراكز الحضارة





شيراز

مدينة الأولياء والشعراء

نشر بالاشتراك مع

مؤسسة فرنكلين للطباعة والنشر

بيروت - نيويورك

١٩٦٧

آرثر آربري

شيراز

مدينة الأولياء والشعراء

ترجمة الدكتور سامي مكارم

مكتبة لبنان

المسهمون في هذا الكتاب

آرثر آربري

(المؤلف) يعتبر المؤلف، وهو استاذ في كلية بمبروك بجامعة كمبردج ، من أبرز الثقات الغربيين في حضارة بلاد فارس . وهو يؤدي كتاباته العلمية بأسلوب رفيع تظهر نماذجه في كثير من المواطن في كتاب « شيراز » . وله العديد من المؤلفات .

الدكتور سامي مكارم

(المترجم) نال عام ١٩٦٣ درجة الدكتوراه في الدراسات الاسلامية من جامعة متشيغان . وهو يشغل منذ عام ١٩٦٤ منصب استاذ مساعد في الدائرة العربية بالجامعة الاميركية في بيروت . وله كتابان واحد بالعربية وآخر بالانجليزية ، وعدد من المقالات .

تصدير

لا شك ان اسم شيراز سحيق البعد ومثير للخيال العام ، كسمرقند وشنفري – لا . فهو يذكرنا بصور المآذن الحالمة والحدائق السحرية والخمور الحلوة والنساء الجميلات على تحجّبهن. والحقيقة ان شيراز مدينة قديمة ، عاصمة اقليم فارس الذي يمتد حتى الخليج العربي . انها مدينة اختبرت في تاريخها الطويل كثيراً من اراقة الدماء والتدمير . فلقد تهدمت مرةً بعد اخرى ثم كانت تبنى من جديـــد : عرفت عهوداً قصيرة من الابهة الملكية ، وعصوراً طويلة من الاقليمية المتصارعة . وشيراز لا تعلمنا الا القليل عن فن الحكم الرشيد العادل المستقر ، فلم تترك لنا اي مثال من السياسة المزدهرة او اية خطة لمجتمع افضل . ذلك ان تراثها ليس مادياً بوجه من الوجوه بل روحي وفنيّ محض ؛ وهل لنا ان نقول بان ذلك يقل قيمةً في هذا الصدد ؟

لقد سعيت في هذه الفصول ان اعزل العناصر التي جعلت من شيراز مدينة خالدة . ووصفتُ هذه العناصر بانها عبادة الجمال ومحبة الجميل ، ورؤية الجمال روحاً خالداً يتعالى عن المظاهر

ولكنه يسبغ عليها في الوقت نفسه مدلولاتها ، مضفياً معنىً على الحياة ، وتعزيةً وسط ارزاء الحياة التي لا تحصى .

ولقد حاولت ان اجسّد هذه المجردات في حياة الاولياء والشعراء وآثارهم ، اولئك الذين هم فخر شيراز التليد ، وابناؤها البررة الذين فاقت شهرتهم جلال امرائها وولاتها المتألق فواقاً كبيراً . فقد ابدع هؤلاء الرجال الجمال في اوقات القبح الرهيب ، وأرونا كيف نضفي على الحياة معنىً في ايام تبدو الحياة فيها ولا معنى لها .

ان كثيراً من قصتي هذه ليس مألوفاً ، فلقد كتبتُ عن امورٍ تقع على هامش التاريخ الذي جرت العادة على تدوينه . وذلك على ما اعلم اول محاولة خارج بلاد فارس لكتابة تاريخٍ لشيراز . وهي المحاولة الاولى على الاطلاق لتفسير تاريخ شيراز . ان ذلك يجعلني اعي عيوب حكايتي هذه واشكر اجزل الشكر ذلك النفر من العلماء الذين ساعدتني مؤلفاتهم على القيـــام بهذه المحاولة . وفيما يلي اذكر اسماءهم بكل فخر : ادوارد غرنفيل براون ورينولد الين نيكلسون وجرترود بل وهنري كوربان وميرزا محمد قزويني وقاسم غني وآنـّا – ماريا شمّل تاري ومحمد

معين ولورنس لوكهارت وعبد العظيم كركاني وغي لوسترانج ، ما عدا غيرهم ممن ذُكرت مؤلفاتهم في الصفحات التالية .

آرثر ج. آربري

كلية عبروك ، كمبردج

٤ ايار (مايو) ، ١٩٦٠

مقـدّمـة

ورد في كتاب « القوانين » لأفلاطون على لسان الاثينيّ الغريب قوله : « ان الفرس قوم رعاة ، ابناء ارض وعرة ، هي امّ قاسية وُجدت لتنجب شعباً شديـداً يقوى على العيش في الهواء الطلق ، وعلى الحياة بدون نوم ، وعلى ان يقاتل ايضاً اذا لزم القتال » . انها لصورة مبسّطة مثالية جداً . غير ان الاثيني الغريب لا يلبث ان يقرّ فيما بعد ، في محاورة « القوانين » بوجود انحلال « يجب الا يُنسب ، كما اعتقد ، الى الصدف ، بل الى الحياة الشرّيرة التي كان ابناء الامراء الشديدي الغنى يحيونها » . ويعزّز هذه المبالغة في تبسيط الامور بغضٌ شديدٌ للاجانب غذّته الحروب الطويلة التي لم تنته الى نتيجة حاسمة . هذه هي الفكرة التي حملها الاغريق والرومان عن الفرس والتي مهدت الطريق الى قول الشاعر الروماني هوراس :

« Persicos odi, puer, apparatus». [١]

نزل الفرس ، هذا الشعب الآري الذي يتكلم لغـة هي

---

١ — « انني ، ايها الغلام ، اكره بذخ الفرس » .

والسنسكريتية والاغريقية من اصل واحد ، نزلوا ، طلباً للمرعى منذ فجر التاريخ ، من بطاح آسيا الوسطى الى المراعي الوعرة في المنطقة التي اطلق عليها الاغريق فيما بعد اسم « برسيس » . ويسميها الفرس المحدثون « فارس » . وقد سقطت مملكتا عيلام وانشان تحت سطوة اشوربانيبال ، كما هدّمت سوسة . غير ان كورش الاول ما لبث ان لمّ شمل شعبه في منطقة الجبال . وحوالي عام ٥٥٠ ق. م. ثار كورش الثاني ضد الميديين . واستسلمت اكبتانا وبابل لكتائبه المنتصرة التي اخذت بالتقدم شرقاً ناشرة الحكم الفارسي حتى ضفاف نهر جيحون والسند . وقد تمكن داريوس الاول الذي حكم من سنة ٥٢١ الى سنة ٤٨٦ ق. م. من ان ينقش على الحجر مفتخراً العبارة التالية : « هذا الملك الذي أمسك به ، من سيثيا ، التي هي وراء بلاد الصغد ، الى كوش ، ومن الهنـــد الى ساردس ، قد منحنيه اهورامزدا كبير الآلهة » . وتشهد بعظمة ممتلكاته الامبراطورية الآثارُ الهائلة لمدينة برسبوليس التي تبعد قرابة اربعين ميلاً الى الشمال الشرقي من شيراز .

صُدّ داريوس في ماراثون صدّاً كان بالنسبة الى بلاد فارس غير ذي بال ، ولكنه عدّ نصراً خالداً بالنسبة الى اليونان ، ذلك ان الهزيمة التي منيت بها حملة احشويرش التأديبية في سلاميس وبلاتايا قرّرت انه يجب الّا يمتد الحكم الفارسي ابداً الى اوروبا . وهكذا فقد ثبّتت اثينا الظافرة المبتهجة سيطرتها على الجزر

اليونانية ، واقامت ، في عهد بركليس ، ذلك المثال للديمقراطية الذي كان مثار اعجاب العصور التالية . غير ان الاغريق ما لبثوا ان جرت بينهم حروب طاحنة . ثم ان فيليب المقدوني وضع حداً للعصر الذهبي للمدينة الدولة . وتقدّم الاسكندر الى الهند مروراً بفارس ، ولكنه مات قبل ان يستطيع تحقيق حلمه بتوحيد العالم تحت حكم حاكم صالح . وهكذا فان الامبراطورية الاكامينية التي اسسها كورش ، وهي اول مملكة في بلاد فارس كلها ، استحالت الى اطلال ، بما في ذلك مقاطعاتها العشرون وبيروقراطيتها المحبوكة حبكاً دقيقاً .

في اثناء ذلك اخذت تنشأ في تلك البطاح قوة جديدة . فالسلوقيون ، خلفاء اكثر قادة الاسكندر قدرة ، ممن انشأوا سلالات حاكمة ، وجدوا انفسهم امـــام تحدي البارثيين الذين نزلوا ، في عهد ميثرا داتس الاول (١٧٠ — ١٣٨ ق. م.) من وراء نهر جيحون الى الخليج الفارسي وامتلكوا جميع البلدان التي تقع بين افغانستان ودجلة . وهكذا فقد تنازعت بارثيا السلطة في الشرق الاوسط مـــع روما في عهديها الجمهوري والامبراطوري ، حتى انـــه لم يُثأر للهزيمة المذلة التي مني بها كراسوس في حرّان . وعاد الجنود الرومان حاملين الى الغرب حتى بريطانيا الدين الميثراوي ، دين خصومهم الذين برعوا في مناوشة اعدائهم والافلات منهم . ولكن بارثيا التي لم تستطع روما ان تقهرها، ما لبثت ان استسلمت اخيراً الى ثورة داخلية .

فان ارتابانوس الذي كان قد نجا من غدر كراكلا ، هزمه عامله الفارسي اردشير مؤسس السلالة الساسانية وقتله ، ثم اخضع اسكندر سفيروس . اما ابنه سابور الاول فقد هزم في سنة ٢٦٠ ب. م. فاليريان واسره . ولم يمض قرن من الزمن حتى اندحر جوليان المرتد في المدائن ثم قتل بالقرب من سامرا . وقد قضت الامبراطورية الرومانية نحبها وافترست قبائــل « الهون » اشلاءها . وبعد ذلك اصبحت بيزنطية عدوة بلاد فارس اللدود . وقد انهكت هاتان المملكتان المتجاورتان تدريجاً كلٌ منهما قوة الاخرى الى ان قدم العرب من جزيرتهم القاحلة على خيولهم يرتّلون القرآن ، وقضوا على الساسانيين .

يروي هذا الكتاب كثيراً مما جرى بعد ذلك بين العرب والفرس . فهو يعيد بناء تاريخ شيراز ، عاصمة اقليم فارس ، وهي مدينة اسسها الفاتحون ، فاصبحت فخر المغلوب وعزته المتجددة . قامت الخلافة وسقطت ، وفي القرن الثالث عشر خرج المغول كالصواعق من الشرق الاقصى واجتاحوا معظم بلاد فارس ونهبوا بغداد ، ولكنهم ابقوا على اقليم فارس . وبعد مئة وخمسين سنة خرج التتار من البطـــاح بقيادة تيمورلنك ليجتاحوا مرة ثانية ما كان المغول قد اخضعوه وحكموه لمدة قصيرة . واخيراً اعاد الشاه اسماعيل الصفوي سنة ١٥٠٢ مُلك الفرس، واستقبل حفيدُه عباس الكبير في بلاطه الزاهر البعثات التجارية القادمة من اوروبا . ومنذ آخر القرن السابع عشر

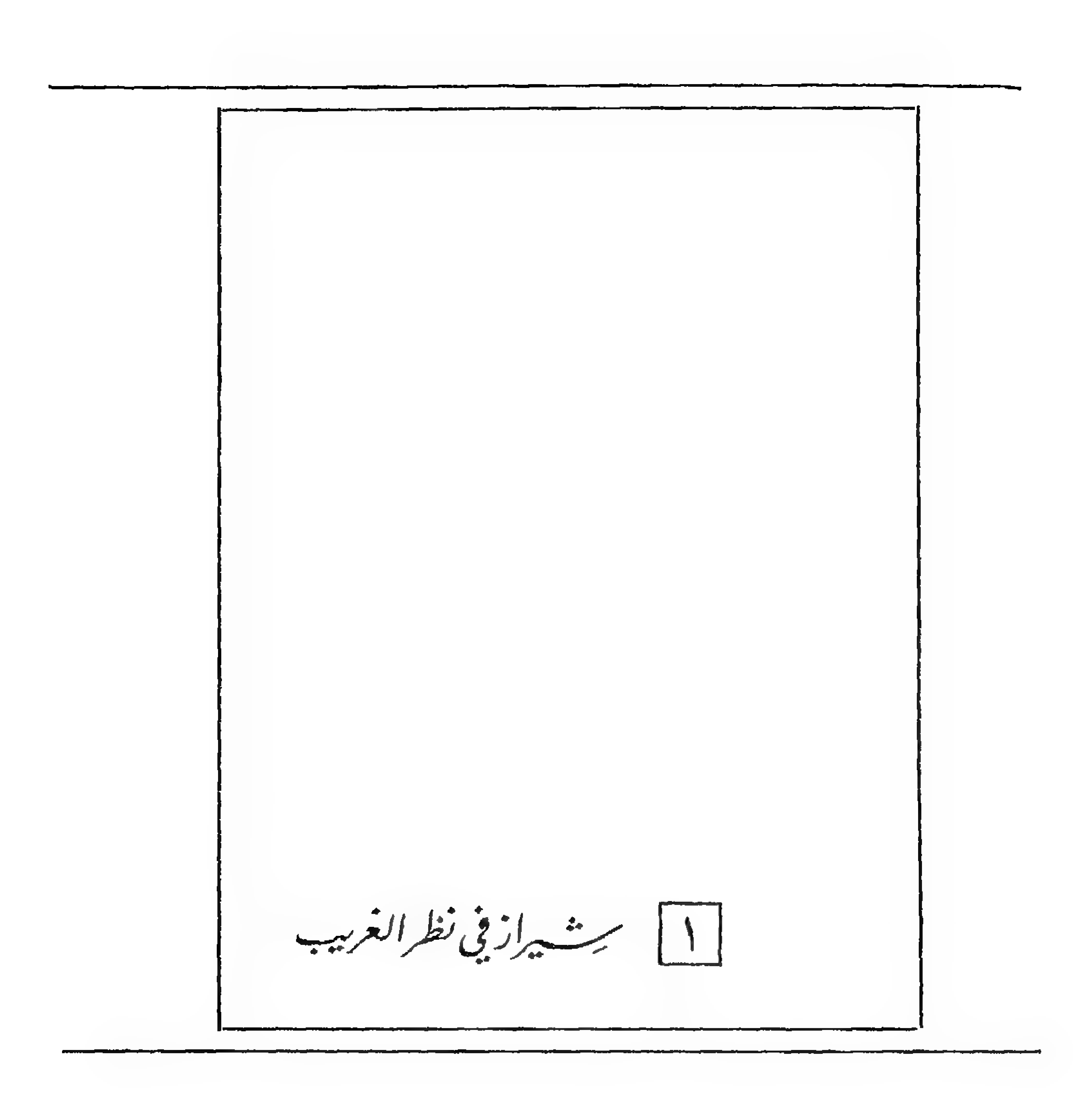
اخذت بلاد فارس تقوم من جديد بدورها المهم بين الامم ، مع ان الحروب الاهلية والتعديات الخارجية كانت ترهقها من حين الى آخر . ففي النصف الاول من القرن التاسع عشر اقتطعت منهـــا روسيا القيصرية مقاطعات واسعة في آسيا الوسطى واصبحت المدن الفارسية القديمة ، مرو وبخارى وسمرقند تُحكم من موسكو ، كما ان اكتشاف النفط واختراع الآلات التي تدور على البترول عرّضا استقلال بلاد فارس للخطر . ففي الحربين العالميتين قسمت اراضيها مؤقتاً بين بريطانيا وروسيا . اما اليوم فلا يضمن حريتها ، التي يتمسك بها الشعب الفارسي بعناد واعتزاز ، الا توازن القوى المقلقل بين الغرب والشرق .

ماذا قدّم الفرس الذين يقطنون اليوم في ٦٢٨و٠٠٠ ميل مربع من الجبـــال والصحارى والسهول الواقعة على الحدود الجنوبية للاتحاد السوفياتي ، ماذا قدّموا للحضارة العالمية ؟ ان الفرس قد اعطوا الاغريق والرومان الذين خاضوا ضدهم حروباً طويلة غـــير حاسمة ، كما اعطوا العرب الفاتحين ، صورة لامبراطورية قوية ، منظمة تنظيماً دقيقاً ، ازدهرت فيها فنون الحرب والسلم ، ولكن حياتها الباذخة عملت على انهاك رجولة الحكام الطبيعية انما كما كان على بطئه مُحقّقاً . وقد انتقل مفهوم « الابهة الملكية » واحتفالات البلاط الامبراطوري الفخمة من بلاد فارس الى بيزنطية وبغداد ليؤثر بدوره في اوروبا في العصور الوسطى . كما ساهمت بلاد فارس في الحضارة الاسلامية بالكثير

من معالم تلك الحضارة الخلاقة والجذابة . وقد تخلّق الاباطرة المغول في الهند باخلاق الفرس واتخذوا الفارسية لغة لهم ، كما ساهمت بلاد فارس مساهمة فعالة في تحضير الاتراك الذين يدينون بأدبهم وفنهم وموسيقاهم الى كثير من الالهام الفارسي . وقد سعد العالم بفلسفة فارس المتساهلة وشعرها الانيـــق ومنمناتها وصناعتها المعدنية المحفورة وفسيفسائها البراقة وآنيتها المزخرفة بمختلف الاشكال وسجادها الفاخر .

كذلك قام النبوغ الفارسي بدور مهم في ميدان الدين على الاخص ، فزرادشت كان فارسياً ، ومن فارس قدم المجوس الى بيت لحم ، وماني كان فارسياً ، وهو الذي اسس البدعة المانوية التي كثيراً ما تحدّت صحة المعتقد المسيحي ، كما ان كثيراً من اكابر الاولياء والمتصوفين في الاسلام كانوا من الفرس . ويقال ان الاسكندر اقتبس من بلاد فارس مفهومه الديني في جوهره لانسانية موحّدة . كذلك كانت فارس موطن عدد من الاديان العالمية التي لم تعمّر على العموم طويلاً ، وآخر هذه الاديان ما بشّر به « الباب » الذي اعدم عام ١٨٥٠ .

ان قصة مساهمة بـــلاد فارس في تنوير الروح الانسانية واسعادها لتؤلف ديواناً عظيماً ، وسنورد قليلاً منها في الصفحات التالية .



١ شيراز في نظر الغريب

في السادس من كانون الثاني (يناير) سنة ١٦٢٨ رسا اسطول مؤلف من اربع سفن شراعية بريطانية — هي وليم واكستشاينج وهارت وستار — في ميناء غمبرون المعروف ببندر عباس ، على مدخل الخليج العربي . وكانت هذه السفن تقل ركاباً من علية القوم : السير دادمور كتون مترئساً بعثة من الملك شارل الاول الى الشاه عباس الكبير ، رداً لزيارة قامت بها بعثة تجارية كان قد ارسلها الشاه برئاسة السير روبرت شيرلي الى الملك جيمس الاول . وكان الوفد يضم توماس هربرت الذي كان قد احتفل بعيد ميلاده الحادي والعشرين خلال رحلته الطويلة حول رأس الرجاء الصالح. وقد دوّن سجلاً اميناً ومسلياً عن هذه المغامرة.

جدّت البعثة السير من غمبرون شمالاً تجاه اطلال مدينـــة برسبوليس ، فبلغتها في اواخر شهر اذار . وقد قادتها طريقها الشاقة هذه الى اشرف ، على بحر قزوين ، مروراً باصفهان . ومن هناك انحرفت غرباً لتمرّ بجبل دماوند وطهران التي كانت في ذلك الوقت لا تزال بـــلدة صغيرة لا أهمية لها ، ثم الى عاصمة الامبراطورية ، قزوين . وعلى بعد حوالي ثلاثين ميلاً الى الجنوب

الغربي من برسبوليس نزل افراد البعثة لمدة ستة وعشرين يوماً في مدينة شيراز المشهورة .

« وفي اليـــوم الثاني – اي في الثاني والعشرين من شباط (فبراير) – قمنا ، على سبيل اللهو ، بمطاردة خنزير بري ، ولكننا لم نظفر به على الرغم من استخدامنا للكلاب والبنادق . وفي تلك الليلة نزلنا في كات – باباو ثم في موهاك حيث يرقد اربعة من العلماء المسلمين الذين دفنوا هنا منذ اربعمئة سنة ، وهم محمد ، وحاجي ، واسماعيل ، وعلي ، ولا تزال قبورهم تزار بكل تبجيل واحترام . وفي اليوم التالي نزلنا في كوتون حيث كان الناس قبل بضع سنين قد ذاقوا الامرين من الجراد الذي كثيراً ما يغزو تلك المنطقة .

« وفي اليوم التالي وصلنا الى انغيا، ثم في اليوم الذي يليه الى مويتشاو ، ثم الى بولـّي – بوت – شاو تاركين باباو – هودجي الواقعة في الجهة الشمالية ، وفي الليلة التالية ضربنا مضاربنا على بعد فرسخ من شيراز . وقد توقعنا ، حسب التقاليد ، استقبالاً حافلاً . ولما لم يرَ سفيرنا احداً خرج لهذه الغاية ، وهو الضنين بكرامة من يمثله ، ارسل رسولاً الى الحاكم يطلب خيلاً جديدة ومنزلاً لائقاً . فما كان من الداراغاد الا ان اتى بنفسه يعوّض عن اهماله ، معتذراً اولاً عن غياب الامير . وقد ابدى خوفه من غضبه لعدم اعلامه بهذه الفرصة السانحة للتعبير عن محبته لدولتنا ، تلك المحبة التي تتضاءل امامهـــا كل محبة اخرى .

وبالاختصار ، لاحظ تعجلنا فسأل سعادته ان يتذرع بالصبر ثلاثة ايام حتى يأتي الامير الكبير خصيصاً ليرحّب بقدومه . ويعكس هذا التكريم امرين ، فهو يُرضي الحاكم والاهلين ، ويُضفي على دخوله ابهة لا مثيل لها . وقد انهى مجاملته قائلاً بانه اذا لم يتحقق ذلك فانه مستعد لان يرافق سعادته الى المكان المخصص لاقامته . اما السفير ، فمع انه اكتشف مجاملته غير الكافية ، فقد رأى من الافضل ان يتغاضى عن غضبه ، اذ لم يجد اية فائدة في سلوك غير هذا السبيل. ثم اننا تهادينا على بغالنا وحميرنا التي ما ان استروحت ريح هذه المدينة العظيمة حتى كفت الفرس مؤونة اللعب على الطبول والدفوف والمزامير وما شاكل ذلك من الموسيقى الفريجية ، فاخذت طوراً تنهق ، وتارة ترجع الاصداء كأنما هي في حفلة صاخبة ، حتى ان كثيراً من الناس كانوا يندفعون خارجاً وآخرين يضيئون مشاعلهم لكي يتبينوا السبب في ذلك ويشبعوا فضولهم . وبعد كثير من التجوال ترجلنا عند دار الشيخ علي بك (نائب الامير) فكرّموا سفيرنا ، بعد ان قدّم اليه الحاكم اعتذاراً مسهباً ، بأن اولموا له وليمة صغيرة ، ثم رافقوه الى خان علي ، وهو بيت في الطرف الشرقي من المدينة ، يخصّ الملك وتحيط به ، كأكثرية البيوت في فارس ، حدائق غناء واسعة » .

وقد يسّرت مدينة شيراز لهربرت خبرةً واسعة ، كانت اولى اختباراته بجمال الحضارة الفارسية وابهتها وطرافتها كما كانت

في ايام الحكام الصفويين . وكان ذلك بعد ثمانية اعوام من اقلاع سفينة المهاجرين مايفلاور الى امريكا . وقد كتب في ملاحظاته : « ان شيراز اجمل المدن الآسيوية . وهي تبعد ٢٩ درجة و ٢٠ دقيقة الى الشمال من خط الاستواء . اما درجتها الطولية فتبلغ ٨٨ . وتشتق شيراز اسمها على الارجح إما من « شراب » وهي كلمة تعني باللسان الفارسي العنب ، وهو موجود بكثرة ، ولا يوجد مكان في الشرق اجود من شيراز به ، ولا مناخ احسن منها له ، وإمّا من « شير » ، وهي كلمة فارسية تعني الحليب . ولا شك في انها كانت في الزمن القديم مدينة عظيمة جداً . وللدلالة على ذلك سأقدم لكم هذه الامثلة القليلة . ذكر اولوغ بك (وهو عالم جغرافي وابن اخي تيمورلنك) ان محيطها كان في زمنه خمسة عشر ميلاً . وكذلك قال من بعده كونتارينوس ، مضيفاً انها كانت تتألف من ثمانين الف بيت . اما بارباروس فقال قبل ستة عشر عقداً ، ان محيطها يبلغ عشرين ميلاً . وكذلك قال كلوفيريوس . وجاء بعده تيشارا ليقول ان محيطها يبلغ ستة وثلاثين ميلاً . ونقل سكيكارد عن تاريتش القول ذاته — وهو محيط كبير جداً . بيد ان هذه المدينة كمعظم المدن الآسيوية ، كانت تحتوي على كثير من الحدائق الواسعة التي تفوق في عددها البيوت . وقد احصى يوحنا الفارسي في وقته سكانها بثمانين الفاً . اما ابن علي فذكر انهم يبلغون ثلاثمئة الف . ولا اجرؤ على مخالفة تقاريرهم هذه اذ لا يوجد اي اثبات على عدم صحتها . فلنكتفِ بوصفها اذن كما هي في الوقت الحاضر .

« ان شيراز اليوم هي المدينـــة الثانية في جلالها في مملكة فارس . تسقيها مياه بند أمير ، وهو نهر ينبع من جبال تابريان ، ويدعوها بعضهم بجبال بارشواتريان . ويلتقي هذا النهر بعد مئتي ميل ونيف من التعرج بنهر تشواسبس (المعروف الآن بنهر تَبّ) وبنهر أُلـيّ الذي لا يبعد كثيراً عن فلدك (وهو الاسم الذي تعرف به الآن مدينة شوشان القديمة) ، ثم تصب هذه المياه في الخليج ، ومن ثمّ تندمج مع غيرها بمياه المحيط الهندي ويظهر في شيراز بعض السور الذي بناه اوزون كاسان، الامير الارمني الشهير ، الذي عاش في سنة ١٤٧٠ . غير انها تبدو وكأنها تتحدى هذا الاسر المحدود ، اذ تمتد الآن من الجهة الجنوبية الشرقية الى الجهة الشمالية الغربية لمسافة تقرب من ثلاثة اميال او تزيد ، وليست الجهة الثانية بأقل من ذلك . اما محيطها فيبلغ سبعة اميال او ما يقارب ذلك . وهي في جمالها تربض على الجهة الشمالية الغربية من سهل واسع يبلغ طوله عشرين ميلاً وعرضه ستة اميال ، وتحيط به تلال شاهقة بنيت المدينـــة في سفح احداها ، تحميها الطبيعة وتُغنيها التجارة ويجمّلها الفن . اما الكروم والحدائق واشجار السرو والحمامات والهيا كل فتستهوي حاستي النظر والشم ، وهكذا فان هذه المدينة تبدو في كل قطعة منها بهيجة جميلة . هنا وُلد سحر الفن اول ما ولد ، هنا عاش نمرود مدة ، هنا ولد كورش (اعظم الامراء الوثنيين) ، وهنا دفن (باستثناء رأسه الذي بُعث به الى بيسغارد) . هنا اشبع المقدوني الكبير نهمه وشهوته وحبه

للخمر . هنا تغنّت الكاهنات الاوائل بتجسيد مخلّصنا . ومن هنا ، يقال ان ملوك المجوس سافروا الى بيت لحم ، وهنا سلّط مثنا ملك صولجاناتهم » .

ومع ان هربرت ارخى العنان لخياله التاريخي وهو ينشىء مديحه ، فان وصفه لتخطيط شيراز ذو قيمة كبيرة . فقد رأى المدينة في اوج مجدها . وكان ذلك قبل قرن من الزمان من الليلة الظلماء للاجتياح الافغاني . «البيوت مبنية من الآجر المشوي بحرارة الشمس ، القاسي والمتين ، والدور ليست بالعالية كثيراً (فنادراً ما تزيد عن طبقتين) ، وهي منبسطة مسطحة من فوق ، ذات شرفات ونوافذ مستورة بالشعريات . اما من الداخل فهي مفروشة بالسجاد ، وقليلاً ما يلاحظ المرء غير ذلك من الاثاث . امـــا دار السلطان الشيخ علي بك (حيث دعينا لتناول الطعام في الليلة الاولى) ، فلا تكاد تضاهيها اي دار اخرى . فغرفة الطعام عالية مستديرة واسعة ، والسطح معقود البناء ، والجدران منقوشة بالذهب نقشاً عجيباً ، وقد اكتنفتها الظلال حتى بات من الصعب الحكم فيما اذا كانت منقوشة ام منحوتة ام مطلية . اما النوافذ فكانت من الزجاج الملون ، والارض مفروشة بالسجاد البديع . ولا تكاد ترى وجوداً للبيوت التي لا حدائق لها (او قل غابات) من التشنار (الذي يشبه شجر الدردار) ومـــن السرو . ولا تكاد ترى شيئاً أبهج مما تقدمه هذه المدينة للعين اذ تتطلع من الجبل المجاور ،

فالقصور تتعالى انيسة ، والمساجد والحمامات تتألق بفسيفسائها الزرقاء وحرابها المذهبة ، وهي تعكس شعاع الشمس بين اشجار السرو برونق عجيب .

« هنا خمسة عشر مسجداً تتجلى عظمتها ، بشكلها المستدير (على غرار الكعبة في مكة) ، وقد طليت بجص مصنوع من الكلس المحروق الذي ما ان يجف حتى يصبح بالغ القساوة الى درجة انه يشبه الحجر الحقيقي اكثر مما يشبه الملاط . وهم لا يورقون به الوجه الخارجي لبيوتهم ويزينونه بالطلاء على الطريقة العربية وحسب ، بل يطلون بـــه ارض غرفهم وقناطرها . وتورّق هذه من الاعلى ومن الخارج بحجر اللازورد الذي يشبه الفيروز . اما الوجه الداخلي فان معظمه يبطن بالرخام الاسود المجلو ، وتزيّن الوجه الاعلى الاهلّة المذهبة من الجانبين ، او الابراج المستدقة الطرف الـــتي تعكس اشعة الشمس الصفراء بصورة لا يوجد ابدع منها . وهناك مسجدان على الاخص تسترعي مئذنتاهما الاهتمام (او مسلتاهما كما يقول بعضهم) . فهما صغيرتان ولكنهما ترتفعان الى علو شاهق . الاولى مربعة ، يزيد ارتفاع بنائها على الخمسين قدماً ، وهي في بعض الاماكن مصفحة بالرصاص ، وفي اماكن اخرى مطلية بالاصفر الذهبي والازرق ، وقد صقلت من الخارج وزينت بمـــا يشبه العقَد وباقات الزهر ، اما من الداخل فهي واسعة غير مفروشة (او بالحري غير مكتملة الفرش) . وتنتهي من الاعـــلى بقرآنين

(كذا) من الخشب رفيعين، ولكنهما جميلا المنظر، يستديران في آخرهما ويتصلان ، وقد زيّنا بكثير من الفن والكلفة . اما ارتفاع هذه المئذنة فيقرب من ارتفاع كنيسة القديس بولس في لندن . ومن اعلى هذه المئذنة ينشد الصبيان ذوو الصوت الصافي المدائح ثـــلاث مرات كل اربع وعشرين ساعة ، فالاجراس لا يُسمح بهـــا في المعابد المحمدية اينما كانت . اما المئذنة الاخرى فهي مربعة الجوانب ، وشّي وجهها الخارجي بنقوش عربية وزخرف بالذهب ، وطلي باللازورد ، ورُصف بحجر السمّاق ، وزين باشكال عديدة هي اقرب الى الاعاجيب ، وقد نوّر قسم من اماكنه المقدسة بكثير من القناديـــل والمشاعل » .

لا بد ان مسجد شيراز القديم كان في ايام هربرت مدهشاً حقاً . بناه عمرو بن ليث ، الوالي الثاني من بني الصفار الفرس ، وقد حكم من سنة ٨٧٩ الى سنة ٩٠٠ . كذلـــك هو المسجد الجديد ، وهو لا يقل فخامة عن الاول ، وقد بناه الاتابك سعد بن زنكي السلغري الذي حمـــى الشاعر سعدي حوالي اواخر القرن الثاني عشر . وكان يوجد في تلك الايام مسجد ثالث كبير ، وهو مسجد سنقر ، ويقع في ساحة الحلاقين ، وقد بناه احد اعمام سعد ويدعى سنقر وهـــو مؤسس البيت السلغري . غـير ان قليلاً من آثار هذه المعالم نجا من تدمير الانسان وحوادث الدهر وهذا ما حـــدا بالسيد ساتشفريل

سيتوِل [١] الذي زار شيراز حديثاً ان يكتب في كتابه « الفن العربي واقراص العسل » قائلاً : « ان شهرة شيراز لا تقوم على مساجدها بل على حدائقها » ؛ وحتى الحدائق التي اعجب بها هربرت كما اعجب بها رحالون آخرون متقدمون ، « رأينا منها ثلاث حدائق او اربع . فالبذور التي جيء بها على الارجح من عند كارتر او ستون ، اعطت نتائج سخية ولكنها لا تشبّه بما كانت تنتجه الحدائق الفارسية ، حتى ان المرء يميل قليلاً بعد زيارته لشيراز الى الاعتقاد ان جمال الحدائق الفارسية انما هو من نسيج الخيال» . وبالاختصار ، « فان يوماً او يومين يقضيها المرء في شيراز فيها الكفاية ، ويحين الوقت الى ان ينتقل الى برسبوليس » . ولكن كاتباً آخر حديثاً هو ادوارد غرنفيل براون — كتب منذ سبعين سنة يقول : « انني انظر الى الاسابيع الثلاثة التي قضيتها في شيراز نظرة فرح لا يخالطه شيء »، ولكن براون يمتاز عن الآخرين في انه كان يتكلم الفارسية بطلاقة كما كان لديه الفضول ، الذي لا يرتوي ، الى معرفة آثار العقل والنفس الفارسيين . وسنعرض لذلك بعد قليل ، اما الآن فسنعود الى رواية وصف هربرت لشيراز .

« اما المساجد الاخرى في هذه المدينة فليست جديرة

---

١ — Sacheverell Sitwell, Arabesque and Honeycomb (Robert Halc Limitcd, 1957).

بالاعتبار الى هذا الحد ، ولكن ذلك لا يعني انها لا تسترعي الاهتمام . فما تفتقر اليه من الفن الهندسي تعوّضه في الآثار ، ذلك انها تضم رفات بعض علماء القرآن ، وقد اكتسبت هذه الرفات قداسة كبيرة في نظر الشعب المتدين، حتى ان اضرحتهم اضفت عليها الحماسة تأججاً يرخص دونه كل ثمن وألم في سبيل البرهان عن الاخلاص والولاء » . (ان القارىء الذي يهمه ان يتعرف اكثر الى مزارات شيراز ، كما كانت في آخر القرن الرابع عشر ، عليه ان يراجع ثبتاً للاولياء والعلماء المدفونين في تلك المدينة ، جمعه ابو القاسم جنيد شيرازي في سنة ١٣٨٩ . « ان بعض القبور هناك مصنوع من الرخام المجلو جيداً ، وبعضها الآخر مصنوع من الخشب المنقوش على الطريقة القديمة . كما ان بعضها يـــدل على فن الرسام ، وبعضها على مقدرة الناحت في النحاس ، وبعضها الآخر على مقدرته على النحت في معادن اخرى . وحيثما لم يبلغ الفن حد التمام عوضت الطبيعة بما فيها من كنوز مخبوءة في الظلام . ففي احد الامكنة ترقد منذ سبعمئة سنه عظام شاو – مير – علي حمزة ، احد الاولياء المحمديين الذين شغفوا بالقرآن ، وذلك (كما يقول بعضهم بكل بساطة) منذ ان عبر بها شارون الى اشيرون . اما المسجد فمربع ، ويبلغ طول البناء الذي دفن فيه، كما وَجَدْت ، ستين خطوة، وكذلك يبلغ عرضه . وفي مسجد آخر يرقد سندت – اميراماهاو وكان معاصراً لمحمد (حسب ما هو منقول) ، وهنالك كثير غيره ممن ترقد رفاتهم بانتظار ان ينفخ في البوق يوم البعث . وعلى مسافة

قليلة في ظاهر البلد دفن ذلك الشاعر والفيلسوف مصلح الدين سعدي مؤلف منظومة « البستان » ، وقـــد نقلها جنتيوس مؤخراً الى اللاتينية ، كما دفن بجواره اخوه الشاعر حاجي خير الذي ينظر الفرس الى اشعاره بكل تقدير واحترام . كذلك فان لشيراز كلية تدرّس فيها الفلسفة وعلم التنجيم وعلم الطبيعة والكيمياء والرياضيات ، وهي اوسع المدارس شهرة في بـــلاد فارس . وقد بنت طيور اللقلق على هذه المساجد اعشاشها . وينظر الفرس الى هـــذا الطير نظرة تقديس كما كان يفعل المصريون » .

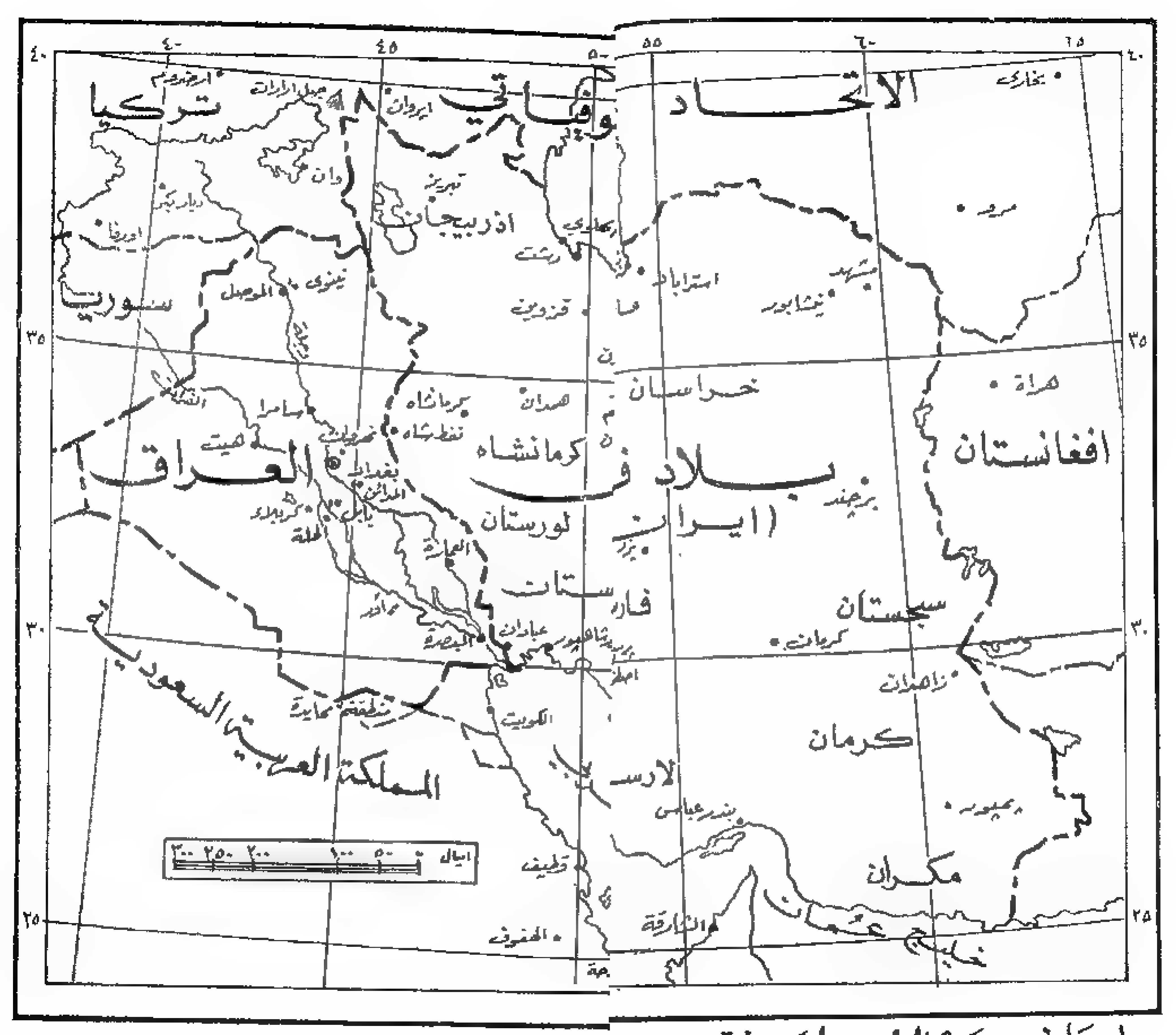
اما عن حدائق شيراز فيقول لنا هربرت انها « كثيرة ، كما انها كبيرة وجميلة معاً . واني اصفها بما وصف به السوريون حدائق دمشق [١] ويبلغ عدد منها ثمانمائة خطوة طولاً (من خطواتي) واربعمائة خطوة عرضاً . غير ان هاني شاو (وهي حديقة الملك) تتحدى في عظمتها الحدائق الاخرى ، فهي مربعة تبلغ كل جهة منها الفي خطوة . ومعظم هذه الحدائق تحيط بها اسوار يبلغ ارتفاعها اربعة عشر قدماً وسماكتها اربعة اقدام ، وتشبه هـــذه الحدائق باتساعها وكثرة اشجارها الغابات او البراري ، ويطلقون عليها اسم « بَوْت » . وتكثر في هـــذه الحدائق اشجار السرو العالية الهرمية الشكل واشجار التشنار ،

---

١ – حدائق فيحاء بذل في انشائها والعناية بها جهد كبير .

وهي الدردار ، واشجار لسان العصفور ، والصنوبر ذي العُقد، واشجار المصطكي ذات الرائحة الزكية ، واشجار السنديان المهيبة والآس الحلو ، واشجار الاسفندان النافعة . ومن الاشجار المثمرة العنب (ويقال ان خشبه بالرغم من قلة قيمته لا يبلى) ، والرمان والنارنج والبرتقال والليمون الحامض والفستق والتفاح والاجاص والدراقن والكستناء والكرز والسفرجل والجوز والمشمش والخوخ واللوز والتين والنخل والبطيخ من النوعين ، وهو ذو حلاوة مفرطة لا يعادلها شيء . كذلك ترى الازهار النادرة الزكية الرائحة والمفيدة للصحة . اما الارض فجافة ولكنها خضراء. والهواء صحي نقي مع انه على شيء من الحدة. ومن وسائل التسلية الاخرى المتبعة هناك ، اذكر اني رأيت ، في عدد من الحدائق ، حبالاً او أمراساً ممدودة من شجرة الى شجرة يتأرجح عليها الصبيان والبنات ، واحياناً من هم اكبر سناً . فالاتراك ، خصوصاً في اوقات الاعياد ، يمارسون هذه التسلية . وكان اول من زاول هذا النوع من التسلية الاثينيون . وربما كان هذا الوصف والاطراء لا ينطبق الا على مساحة محدودة ، فالامكنة النائية مجدبة في مثل هذه الايام ، وجبلية بحيث تعجز عن اشباع شهوات الاسكندر (اذا كانت هذه الامكنة في زمانه كما هي عليه اليوم) باستثناء شهوته للخمر . والحق ان عنب هذه المنطقة من اجود اعناب بلاد فارس ، وهو مشهور في كل انحاء الشرق . ولا شيء يشكو منه السكان اكثر من حاجتهم الى الماء ، مع ان في شيراز جدولاً جميلاً ولكنه

ليس بالعميق . ولو كان الاهالي اكثر اجتهاداً لتمكنوا من ان يكون لهم كميات اكثر من المياه . فهناك نهرٌ مدرار (وكان يسمى سيروس من قبل) يجري على مسافة تبعد اقل من خمسة عشر ميلاً ، ليشق طريقه الى برسبوليس القديمة . وهم يستطيعون بواسطة الاقنية ان يجروه الى بلدهم كما هي عليه حال بقية مجاري الماء . كان القورينائيون والابيقوريون يعتقدون ان الخير الاسمى او السعادة القصوى هي في اللذة ، وكانوا يعتبرون الفضيلة هي الوسيلة التي لا تدرك السعادة بدونها . اما ديوجينيس لايرتيوس فيقول لنا ان السعادة ما هي الا صفاء وسكينة في العقل ، ذلك العقل الذي لا يمنعه عن الابتهاج مانع ، والذي يتجرد من كل حزن او اضطراب . لذلك يمكنني ان استنتج ان اولئك الشيرازيين كانوا من اتباع هذا المذهب . فهم في عيد النيروز او الربيع لا يتهادون بالثياب فحسب بل بغير ذلك من الهدايا . وهذا الاحتفال يبلغ من القدم الى ايام كورش كما ذكر ذلك زينوفون. ففي ذلك العيد تفتح الحدائق للجميع يتنزهون فيها، كما تطلق الحرية للنساء في الظهور امام الناس . وهن عندما تطلق لهن الحرية يتهن (كالعصافير التي اطلق سراحها) في دوّامة من العبث الطائش . وفي ذلك الوقت ترى الرجال بعضهم راكب وبعضهم جالس وآخرون يمشون الهوينا وكأنهم في لحن واحد ، يشربون ويغنّون ويلعبون حتى تفرغ القوارير وتنتهي الاغاني او حتى يلقي عليهم إله النوم مورفيوس صولجانه . فلم أرَ في حياتي شعباً اكثر مرحاً وأقل حباً للخصام » .



ايران - مع الحدود الحديثة

كان هربرت يقدّر تقديراً حقاً تلك الملذات التي يسعى المرء اليها في الحدائق الفارسية. وقد قابلَتْ الآنسة ف. ساكفيل — وست وهي ثقة في زراعة الاشجار المثمرة لا تجارى، قابلت بين الذوق الانجليزي المعاصر (الذي تغيّر كثيراً منذ عهـــد ستيوارت) وبين المثل الفارسي الأعلى فقالت: «ان الحديقة التي يريدها لنفسه الرجل الانجليزي العادي، اذا كنت استطيع ان اعبّر عن رغائبه تعبيراً صحيحاً، هي حديقة سهلة التدبير ومليئة بالألوان. فاذ نقول «حديقة بيت» انما نعني شيئاً يتصل اتصالاً وثيقاً بالبيت الذي فيها، انها حديقة ذات طرق ضيقة وأحواض مليئة بالازهـــار: كزهرة البانسيه و «آذان الدب» وقرنفـل الشاعر، والزنبق، والخبيزي، والورد، والنرجس وزهرة الثلج. فـلا زخرفة متقنة، بل خليط من الازهار التي تنبت سنة بعد سنة دون ان تسبب لصاحبها، على ما يبدو، اي ازعاج (مع انه في الاصل اوسع معرفة مما يظن). ان الحديقة التي يريدها هي من النوع الذي نرى صورته على روزنامة البقال في عيد الميلاد، او على بطاقة بريدية لبيت آن هاثاواي الريفي. ومع ان مثل هذه الصور قد تبدو منفّرة، فان هذه الحدائق هي بالحقيقة فاتنة الجمال، مثيرة للعاطفة، وانجليزية في جوهرها. ولا يمكن ان يخطر ببال الفارسي مثل هذه الرؤيا، ذلك ان فكرة الحديقة عنـــده تختلف اختلافاً كبيراً. فكل ما يطلبه هذا القاطن في الانجاد الصخرية المرتفعة انما هو البرودة تعتريه بعد ان يعود في آخر النهار من عمله. فهو

لا يطلب الا برودة واخضراراً وصوت خرير الماء بعد ان امضى يومه في صحراء صامتة وبعد ان قطع اميالاً من السهول التي لا ظل فيها » .

اذن فالذي جعـــل اللورد كورزن يصف حدائق شيراز بذات الفتور الذي وصفه بها سيتول ، انما هو ذلك الذوق الانجليزي الذي كان سائداً في العصر الفيكتوري ، فقد قال : « انك ترى من الخارج حوشاً مربعاً او بيضاوي الشكل ، محاطاً بحائط عال من اللبن ، تبـــدو فوقه باقة مكتظة من الاشجار . اما في الداخل فقد زرعت هذه الاشجار بكثافة ، ونصبت على جوانب طرقات طويلة ، تحجب كل منـظر الا منظر ما بين الصفين . اما الاراضي المجاورة فانها ادغال من الايك والانجام ، والماء إما يجري من الاقنية وإما يصب في الصهاريج . وترتفع احياناً هذه الحدائق بسطوح مدرّجة الى قمة بني عليها سرادق تنعكس صورته في البركة في اسفل ، وتسجّل بذلك نصراً لفن تنظيم البساتين . هذا ولا توجد ممرات واضحة او احواض منسقة او مروج واسعة ، كل شيء مختلط غير منسق . فالفارسي لا يستهويه الا جمال الظلال وخرير المياه » .

وقد حظي هربرت اثناء اقامته في شيراز بأن اختبر الابهة الكاملة لوسائل التسلية الفارسية الفاخرة وما تنشره من بهجة . « سأقدم الآن وصفاً للأمير الكبير إمانغولي – كاون والوليمة

التي أقامها . ينحدر الامير من أصل جورجي [1] ، وهو مسلم المعتقد ، وواحد من أولئك الامراء الاربعة الذين كانوا يحكمون الامبراطورية باسم الشاه عباس » . وقد بدأت الضيافة بمناوشة تمهيدية أتحف خلالها « سفيرنا بالخمور والحلوى على اختـــلاف انواعها ، ومن ثم – وسط المدعوين الذين وزعت عليهم كؤوس الخمر مترعة ، وحسب العادة في هذه البلدان الشرقية – اخذت الراقصات يرقصن ، مبتدئات بخـــلع اثوابهن او عباءاتهن الفضفاضة ، اما ثيابهن الباقية فقد كانت ملتصقة بأجسادهن ، وهي شبيهة بالسراويل ولكنها مؤلفة من عدة قطع من الاطلس متعددة الالوان (حسب العادة الدارجة) ، وكان شعرهن طويلاً يسترسل بتجاعيده ، ومن حول وجوههن كانت تتدلى حبال من اللؤلؤ ، ومن حول رقابهن عقود من الاحجار الكريمة ، كما كانت تتـــدلى من معاصمهن وأرجلهن أساور ذهبية كالأكاليل ذات اجراس كانت تؤلف مع الصنوج والمزاهر التي بأيديهن ابدع الجوقات . ولم يكن رقصهن كالعادة المتبعة ، فقد كانت كل راقصـــة منهن تبقى ضمن دائرة صغيرة ، وكان كل عضو من اعضائها يرقص اثر الآخر وذلك بانتظام يثير الاعجاب » .

وجرى الاحتفال الرئيسي في اليوم التالي . فقد قادنا احد السلاطين الى باحتين كبيرتين ، ومن هناك أُخذنا الى غرفة طعام

---

١ – نسبة الى مقاطعة جورجية جنوب الاتحاد السوفياتي .

فخمة ، هي عبارة عن غرفة كبيرة مفتوحة الجوانب قائمة على عشرين عموداً مذهباً. وكان سقفها مزخرفاً بالذهب، رائع الطلاء كأنها من رسم ارسنج الفنان الفارسي الشهير الذي ضاهت شهرته بالرسم شهرة ابليس عند الاغريق زمن الاسكندر المقدوني . اما الارض فكانت مفروشة بسجاد رائع الغنى نُسج بالحرير والذهب . وقد أقيم في احدى الجهات سرادق من الاطلس القرمزي مزيّن باللؤلؤ والذهب وهو معدّ ليجلس الامير فيه . وفي جهة اخرى أقيمت انصاب النصر الهرمزية دون ان يبذل اي جهد او فن لاظهارها بمظهر حسن ، ذلك انها كانت تمثل معسكراتهم على الشاطىء وهجماتهم وغاراتهم وتعدياتهم ودخولهم المدن وإعمالهم النهب والسلب فيها ، كما كانت تمثل مذابحهم للهرمزيين – فبعضهم قد قطعت رؤوسهم ، وبعضهم كبلوا بالسلاسل ، وبعضهم جعل من رؤوسهم احزمة . كذلك تشاهد معارك الانجليز البحرية وما شابه ذلــــك . ثم ان الستائر الخضر والارجوانية والشاشات الحريرية ازيحت ، فبدت للناظر باحة مربعة كبيرة جلس فيها اعيان المدينة بدائرة وذلك زيادة في تعظيم الدعوة بهذه المناسبة كما كان حاضراً في باحة اخرى مجاورة حوالي خمسمئة رجل من العامة تجمعوا زمراً ، وقد دعوا للدلالة على عظمة الامير .

«وقبل ان تألق الامير في عظمته (اذ لم يكن قد دخل بعد)، جلس السير دادمور كتون على الجهة اليسرى من السرادق

(ويلاحظ ان آسيا كانت تعدّ اشرف من غيرها ، اذ كان مركزها الى اليسار ، فآسيا هي يـــد السيف) . وعلى الجهة الاخرى جلس امير التتار الذي لم يكن راضياً بوضعه . اما على شمال السفير فجلس البكلربك (وهو الابن الاكبر للامير) ، والى جانبه جلس ملك هرمز الاسير . كما جلس الى جانب امير التتار امير جورجي دائم الحزن يدعى ثريبيس خان ، وهو رجل شهم ذو خبرة بالسلاح لا يزال مسيحياً مصرّاً عـــلى مسيحيته . اما السير روبرت شيرلي فقد جلس مقابل السرادق، وفي الغرفة ذاتها التي جلس فيها هؤلاء النبلاء إكراماً للسفير، جلس اميرا هرمز وبعض السلاطين وغيرهم من كبراء الموظفين . وقد حشدت سائر ارجاء الغرفة التي أولمت فيها هذه الوليمة بذوي المكانة ، كالسلاطين والتجار والباشاوات الكبار . وكان الغلمان في اثناء هذه الوليمة ، وقد لبسوا الثياب الذهبية وأرسلوا شعورهم المجعدة الطويلة ، يتجولون صعوداً ونزولاً ، حاملين اباريق من ذهب مملوءة بالخمور المختارة ، يقدمونها الى المدعوين واحـــداً واحـــداً طوال مدة الحفلة . وقد مدت على السجاد الاخونة المطرزة ذات الالوان الجميلة . ويبلغ طول كل منها اربعين ذراعاً على الاقــل . وكانت الارغفة الواسعة الرقيقة تستعمل بدلاً من الصحون ويجنبها نثرت الملاعق الخشبية الكبيرة ذات المسكات التي يبلغ طولها حوالي اليرد ، وكانت الملاعق سميكة وعريضة لكي تفي بحاجة الأفواه الكبيرة الواسعة . اما المائدة فكانت مؤلفة من عدة اصناف من الادوات الفخارية

المتعددة الالوان وكانت تحوي الثمار المجففة واللحوم المقددة ، وانواع البلح والاجاص والدراقن المحفوظة بطريقة عجيبة . اما ما استرعى اهتمامي (أعني ما سرني اكثر من اي شيء) فكان الكعك وثمر الاملج والدوريان والفستق الحلبي واللوز والمشمش والسفرجل والكرز وما شابه . اما الامير فلم يكن قد تنبّه اليه احد بعد . والحقيقة ان صاحب السموّ لم يكن قد دخل بعد . ولم نأسف لذلك فاننا اذ نملأ بطوننا نوفر لعيوننا فرصة احسن لملاحظة عظمته . ولم تلته الحفلة حتى اخذت الجموع تشق عنان السماء هاتفة Yough Ally-Whoddaw-Bashat (كذا) (اي الشكر لله ولعلي) وكانت تعبر بأصواتها وموسيقاها عن ابتهاجها ، ورجّع الصدى مؤذناً بقدوم الامير الكبير . وقد حفّ به ثلاثون غلاماً وسيماً يلبسون معاطف من الاطلس القرمزي ، وعلى رؤوسهم قبعات من الحرير والفضة مكللة بحلقات من الذهب ، بعضها موشّى باللؤلؤ والياقوت والفيروز والزمرد (ولا اذكر انني رأيت اي ماس) . وكان على اوساطهم سيوف ذات مقابض واغماد مرصعة ، وعلى اكفهم صقور ذات اغمية مرصعة بالاحجار الثمينة . ولما دخل الغلمان الثلاثون هؤلاء قدم الامير . كان ثوبه من الاطلس الازرق المفضض ، لابساً فوقه ثوباً مفرط الطول تبهر العينَ اللآلىءُ الشرقية المنثورة عليه ، والجواهرُ البراقة التي تغطي ارضه . وكانت عمامته ، او منديله ، من أرق انواع الحرير الابيض المنسوج مع الذهب ، والمرصع باللآلىء والعقيق الاحمر . اما غمد سيفه فكان بأكمله مرصعاً

بالياقوت واللؤلؤ والزمرد» كما كان نعله مرصعاً بمثل ما رصّع به الغمد» حتى بدا في ذلك اليوم وكأنه ارتاكسر كسس الذي كانت حلته تقدّر بعشرة آلاف مثقال ، كما روى بلوتارك . وكان الناس يعبّرون عن ولائهم لهذا الحبيب الجليل بكثير من التحيات ، وذلك بالانحناء وتعفير جباههم حسب العادة المتبعة . اما السير روبرت شيرلي ، الذي كان شديد التمسك بالعادات الفارسية ، فقد كان في تصرفه رسمياً كثيراً . فبعد ان شرب صحة صاحب السمو من كأس من الذهب الخالص ، وضعه في جيبه (اذ انه علم ان ذلك يسرّ الامير) معلقاً ، على سبيل المجاملة المرحة ، انه بعد ان تنفس في هذا الكأس رجلٌ لا يستحق الاكرام ، فمن التحقير ان يعيده الى مكانه . وقد تقبل الامير هذه البادرة بالرضى ، ولكنه بعد ان لاحظ ان سفيرنا لم يكن مسروراً جداً ألقى اليه بابتسامة ، ثم شرب صحة سيده الملك ، ورحب به وبرفاقه ترحيباً حاراً مبالغةً في الاكرام ، ثم انسحب » .

« انني ، ايها الغلام ، اكره بذخ الفرس »[1] : ان الذي اغضب هوراس الروماني افرح الفارس هربرت الذي الهبت خياله التجاري دلائل الثروة العظيمة التي كانت تحت تصرف احد حكام المقاطعات . « ان هذا الامير الكبير قادر على شراء شهرته

---

١ – مطلع قصيدة للشاعر الروماني هوراس . (المترجم)

بهذه المبالغ العظيمة ، فالمعروف ان ايراده السنوي فائق الحد ، اذ يبلغ (حسب قول التجار) حوالي اربعمئة الف طومان في السنة (والطومان يساوي خمسة ماركات فضية) . وهو يدفع من اصل هذا المبلغ مرتبات لخمسين الف فارس عند الحشد او الاستنفار . اما ادوات المائدة والجواهر فانها تقدّر (لا اعلم ما هو عليه هـــذا التقدير من الصحة) بثلاثمئة الف مامودي (والمامودي يساوي شلناً من العملة الانجليزية) . ويمكن ان نكوّن فكرة عن مقدار جانب صغير من ثروته العظيمة اذا نحن استعرضنا الهدية المشهورة ، هدية رأس السنة التي ارسلها الى الملك (حسب قول ملومبك مستشار المالية السري) منذ ثلاث سنوات ، وهي خمسون ابريقاً من الذهب ، واثنان وسبعون من الفضة ، وقيمة خمسة وستين الفاً واربع مئة فلورين من اللاريس. وقد بلغ كل شيء مـــا مقداره حمولة ثلاث مئة وخمسين جملاً كوزلباشياً – انها لهدية ملك حقاً ، يضاف اليها الخمور . وقد ردّ الملك (كرمز لقبوله الهدية) باهدائه خمسين حصاناً عربياً وست بدلات من الثياب الفاخرة ، وسيفاً كان يحمله ، كما اعطاه وعداً بانه سيديمه على امرته ، وهو الامر الاهم لدى الامير » .

. اما الهوايات الشخصية لهذا المضيف الكبير ، فكان من الطبيعي ان تسترعي انتباه هربرت وتثير دهشته . « ان لهذا الامير ما ينوف عن ثلاث مئة جارية ، هنا وفي دور اخرى

للحريم ، فـلا شيء يميز الرجل من اقرانه بالعظمة اكثر من تفوقه عليهم بهذا النوع من الملذات . وهو بالاضافة الى ذلك يزاول الصيد في اماكن اخرى . وما انواع الرياضة الاخرى الا للاثارة ؛ فهم لا يهملون مزاولة رياضات اكـثر رجولة، كقنص الاسود واصطياد النمور ومـطاردة الخنازير البرية وملاحقة الثعالب وما شابه . وكان الامير ، اثناء مزاولته هـذه الانواع من الرياضة ، يثير بلاداً بأجمعها اذ كان يشارك في مثل هذه الرياضات المتوحشة عدد من الرجال لا يقل عن عشرين الفاً ، فعنـدما كانوا يحاصرون قطيعـاً في احد الجبال كانوا يسيّجون هذا الجبل بالشريط والحبال المشدودة الى الاوتاد (حمولة ست مئة جمل) ، ثم يأخذون اما برمي هذه الوحوش من خارج السياج واما بان يدخلوا اليها مجازفين (ويطبقوا عليها من جهتين) . وكانوا يهاجمون الوحش الذي يريدون قتله بالسيوف والرماح ، ولم يكونوا لمثل هذه الرياضة السخية بحاجة الى الكلاب المدرّبة . وكانوا عندما يصطادون بعض هذه الحيوانات يدعون البقية تهرب مبقين عليها الى مرة اخرى» . ويستعمل هربرت بلاغته الكلاسيكية لتشهد على التقاليد القديمة لبلاد فارس الامبراطورية ، فيقول : «جهز فيلوتاس، في كل حملات الاسكندر، ما طوله ١٣٠٠٠ قامة ، من الشريط والشباك ، وذلك لتسييج الجبال بغية قنص الوحوش المفترسة ، الخ... ، كما روى تروجوس بومب، ويبدو ان ذلك لم يكن اختراعاً جديداً في تلك البلاد» .

ومن جهة اخرى فان هربرت لا يجد ان المجوس المعاصرين يقلون عن اسلافهم الاكامينيين ذرة واحدة . « ان الفرق بين الاتراك والفرس لكبير . فالاتراك يمتنعون عن الخمرة لانها محرمة في الشرع ، ولكنهم يشربونها في السر ، غير ان الفرس اليوم (كما في السابق) يشربونها جهراً وبحرية وافراط. وهكذا كانت الحال في القديم ، فان بلوتارك يقول في كتابه « حياة ارتاكسر كسس » : « ان الفرس يرتشفون الخمر بحرية ويحبون السّحر » . وهكذا يصوّر لنا الرحالة الانجليزي صورة مشرقة للساعات الاخيرة التي قضاها في شيراز فيقول : « بعد يومين من الوليمة التي اولمها الامير جاء هذا الاخير يرافقه رهط او موكب مؤلف من ثلاثين سلطاناً وكزلباشاً . وقد جاءوا على ظهور الخيل الى خان علي (وهو اسم الدار التي كنا نازلين فيها) ، وكان يريد ان يفاجىء السير دادمور كتون بزيارته هذه ، ولكن سرعة خاطر هذا الاخير كانت الى درجة انه عند نزول الامير وجد ظلالاً وارفة معدّة لاستقباله اولاً ، ثم غرفاً مفروشة احسن فرش تطل شرفاتها على الحدائق الظليلة حيث بدت اشجار السرو وغيرها من الاشجار وكأنها تلبس حلة لاحسن استقبال . هنا خيّم الامير البشوس مع جميع حاشيته عازماً على مواجهة حُمَيّا خمرته الشيرازية ومياهنا الكيميائية الانجليزية . ودعني اردد ثانية انه ما من خمرة تفضل خمرة شيراز » .

(غير ان ذلك لا يتفق مع كل مذاق ، فمع ان روبرت

بايرون ، الذي مات في سن مبكرة جـــداً ، يثني في كتابه « الطريق الى اوكسيانا »[1] على ثلاثة انواع من خمور شيراز ، نوع ذهبي ومز جداً ، « وهو افضل من اي شري » ، و « نوع احمر مز ، غير مألوف في البدء ولكنه لذيذ مـــع الطعام » و « خمرة وردية اشد حلاوة ، تخلق نشوة لذيذة » ، فان المستر سيتول يلحظ انه « لا توجد خمر مخيبة للامل مسببة للتوعك مثل خمرة شيراز. فهي حقاً رديئة جداً وقد اخذنا ، بعد ان حاولنا مرة او مرتين ان نشربها ، اخذنا بشرب البيرة المعلبة في ميلووكي او حتى بشرب البيبسي كولا ») .

يروي هربرت ، وقد ولد في جيل لم يتعلـّم ان يستحسن المزازة في الخمرة ، يروي لنا كيف ان « الاحتفال استمر لمدة ثلاث ساعات ، وكان كل واحد يجهز على الآخر بالعزم ذاته ، وقد افرغ الكثير من القوارير والاباريق ، فكانت باشارة من الأمير تبعث من جديد ، وقد دوّت في رأس الأمير دوياً قوياً جعله عند اعتلائه حصانه يكاد يقع عن صهوته . ولو لم يسنده سفيرنا اتفاقاً (وهو في لطفه الجم يضاهي مـــا هو عليه من التقشف المفرط) لوقع على الارض . وقد ساعد على ايصاله الى البيت المستر ستودارت من كارنارفون والمستر امري (وهما سيّدان

---

١ — Byron, The Road to Oxiana. Macmillan & Co., 1937.

يخدمان السفير في غرفته) . وقد تأثر الامير من هذا العمل الودي ، فردّ الجميل في اليوم التالي، وذلك بارساله هدية من اثني عشر حصاناً، بأجلتها وسروجها التي لا تقل عنها فخامة . وان دلت هذه الهدية على شيء ، فانما تدل على ان الجميع كانوا مسرورين ، واكتسب السفير لقب الرجل الكريم ذي التربية العالية (ولولا هذا الصنيع لما ارضاهم قط). ثم ان الامير ، بعد احتفالات اخرى رحب فيها بنا (وأجزل لنا العطاء) ، اذن لنا بمواصلة رحلتنا الى البلاط : واسمّي ذلك اذناً لان الامير اضحى الآن لا يحب مفارقتنا » . هذا «وكانت مدة اقامتنا في شيراز ستة وعشرين يوماً، واضطرنا الامير السعيد الى هـذا المكوث الطويل اضطراراً ، وقد سافرنا في عيد البشارة ايام الصوم قاصدين اصفهان العاصمة الفارسية . غير انه لا يمكنني الذهاب دون ان انشد هذه القصيدة احتفالاً بمناسبة الوداع :

لماذا تختلف الآراء حول موقع جنة عدن ؟

فسواء كانت في الارض او في الهواء، او اذا اتلف الطوفان

الارض ، فقد اخرجنا من هناك ،

وكثير من المعرفة تفسد علينا الاقامة ،

ومع ذلك فاذا بقي ذلك المكان لكي نحزره

بواسطة المظاهر الخارجية للسعادة ،

فلماذا يجب ان يتنازل سهلكِ ، يا شيراز ، لغيره من السهول
حيث النيل والغانج المعطاءان يجريان ؟
ان منظركِ البديع ، وبيوتك ، وترابك
والملذات المتنوعة السخية التي تذهل
كل عين تنظر ، ان ذلك يجعل المتفرج
يظن ان الجنة لم تُهدم ،
بل انها نُقلت الى هنالك ، فثمة العرائش
بعناقيدها المدلاة تغري الناس ان يغتصبوها
لكي يتذوقوا نكهتها ، كما فعلوا بتفاحك ،
فبعضهم قد لمس ثمارك مع انها محرمة ،
ان بروجك وحمّاماتك وحدائقك ومعابدك تجعلك تظهرين
كأنك ممفيس او طروادة او طيبة او القدس !
اما ابناؤك (نماذج الطبيعة) فان
طلعتهم تجعل جمال تلك المدن قليلاً .

وداعاً ايها المكان الجميل ، فانا بمغادرتي اياك
شردت بأفكاري الى المكان الذي نُفي عنه آدم » .

لا لزوم لان نعتذر لاقتباسنا هذا القدر الكبير من الملاحظات المعبرة البليغة التي ابداها اول رحالة اوروبي شاهد شيراز. فان دقة ملاحظته تغني عن الجهد في تقليب صفحات كونتارينوس وباربارس وكلوفيريوس وتكسيرا وبرنبيه وشاردان وتافرنييه وغيرهم. بقي وصف آخر لشيراز. ولا يضيره انه كتب بعد التدمير الافغاني بمدة طويلة، فهو يصلح لان يكون وصفاً متمماً لوصف هربرت. فعندما قدم أ. غ. براون الى شيراز، وكان قد انتخب قبل ذلك بقليل عضواً في كلية بمبروك في جامعة كمبردج، لم يأتِ اليها من الجنوب بل من الشمال. ولذلك فانه رأى المدينة من جهة غير التي رآها منها السير توماس :

« لففنا فجأة منعطفاً، وفي تلك اللحظة — وهي لحظة لا يمكن لصورتها ان تتلاشى من ذاكرتي — تبدى لناظري منظر لم أرَ مثله قط ». ويقول براون في كتابه الذي هو على قيمته محدود الانتشار، وعنوانه « سنة بين الفرس »، يقول : « لقد وصلنا الآن الى ذلك المكان الذي يعرفه تلاميذ حافظ جميعهم ويدعى « تانكي الله اكبر »، لان كل من يرى شيراز من ذلك المكان يؤخذ بالجمال الفائق لهذا المنظر، الى درجة انه يهتف اعجاباً « الله اكبر ! » هناك كانت تربض شيراز، ممتدة تحت بصرنا، في سهل خصب معشب مكتنف بالتلال الارجوانية (حيث لا يزال الثلج على بعض قممها العالية) وقد اختفت تلك التلال، او كادت، بين حدائق السرو الجليلة القاتمة، حيث

الورد و «اشجار يهوذا» تعانق جملة من الازهار الاخرى ، وهمها
الاوحد صناعة الالوان الحلوة ، الجميلة في ثوبها الاخضر الربيعي
الذي يكسو سطوح الاسواق المرصعة بالعديد من المآذن الرشيقة
القوام والقباب الفيروزية اللون ، هنالك كانت تربض شيراز
موطن حضارة الفرس وام العبقرية الفارسية ومقام الشعر
والفلسفة . تسمّرت عيناي على هذا المنظر واخذتني روعة كالتي
تأخذ الحجيج اذ يقتربون من المقدسات ، وبهجة كالتي تأخذ
المنفيّ اذ يرى وطنه بعد طول غياب . وكادت عيناي لا تأبهان
بجمال المناظر البعيدة – هنالك الى الشرق ترى جَلَدَاً براقاً
عند بحيرة « ماهالو » ، والى الغرب حدائق مسجد بردي التي
لا نهاية لها . الكلمات تعيا عن وصف النشوة التي حلت بي عندما
تطلعت ، بعد مسير مضن ، فاذا بي ارى حقيقة ما كنت قد
حلمت به منذ زمن بعيد . فما هو الواقع لا يطابق ذلك المثال
الذي كنت قد تصورت وحسب ، بل يفوقه بما لا يقاس » .

لقد كان براون اميناً جداً في وصفه لمعالم شيراز ، فترك لنا
دليلاً بديعاً لمناظر المدينة واصواتها في ايامها الاخيرة قبل ان
تغزو الحضارة الغربية بلاد فارس . فقد التقى ، وهو في شيراز ،
بفارسي من سكان بومباي ، «كان قد اختار طريق البرّ الى
اوروبا مروراً ببلاد فارس لانه يريد ان يرى موطن اسلافه
القديم . وسألته اذا كان قد احب تلك البلاد ، فأجاب لم احبها
ابداً ، فهي بلاد قبيحة ، ليس فيها سكة حديد ولا فنادق ولا

ملاهي – لا شيء . لقد جئت الى شيراز قبل يومين وقد تعبت منها واعزم ان اغادرها بعد يوم او يومين » . اما براون فقد لاقى من وسائل التسلية الشيء الكثير. ومع انها ليست من النوع الملوكي الذي وصفه هربرت ، فان ذكراه الخالدة لشيراز تختلف كثيراً عن ذكرى هربرت لها . وهي تتفق حقاً مع كونه عالماً كبيراً : « تكلمت حتى الآن عن بعض الوجوه السطحية للحياة في شيراز ؛ عن الحفلات الاجتماعية حيث كانت الخمرة والموسيقى والرقص والغناء تذهب بجمال ايام الربيع الناعمة والليالي المقمرة. لقد حان الوقت لانتقل الى ذكريات اخرى – الى مجالس لا خمرة فيها تدار ، ولا موسيقى تعزف ، حيث كانت الوجوه المهيبة ، المستنيرة بنور اليقين الداخلي ، وحيث العيون التي تبرق بالايمان الذي لا يروى ، تلتف حولي ، وحيث الانغام الجادة الخافتة تحل محل الحان الرباب ، لتحدث عن الله ، عن النور الجديد ، عن آلام تُحتمل باصرار ، وعن فوز يُنتظر بثقة . ان صورة هذه المجالس لا يمكن ان تضمحل من ذاكرتي ، وذكرى تلك الوجوه وتلك الالحان لن يقوى على محوها الزمن » .

فشيراز ، في تاريخها الطويل ، هي اكثر من مدينةٍ ذات قوة سياسية وعظمة مادية . هي ايضاً مدينة اولياء وعلماء . وسنتحدث عن ذلك فيما بعد . وكان هؤلاء الاولياء والعلماء ، في العقود الاخيرة من القرن التاسع عشر ، لا يزالون امناء لتقاليد الف من السنين ، وهم الذين فازوا بالاعجاب الحي الخالد الذي تملّك الفتى براون .

في ۲۰ تشرين الاول (اكتوبر) سنة ۱۸۱۹ ولد في شيراز لعائلة من التجار سيّد علي محمد ، وهو الذي لقّب في ليلة الثالث والعشرين من ايار (مايو) سنة ١٨٤٤ بالباب ، اي الباب الذي يؤدي الى الحقيقة الالهية . وبعد ست سنوات من ذلك ، اي في ۹ تموز (يوليو) سنة ۱۸٥۰ نفّذت فيه مفرزة عسكرية حكم الاعدام الذي كان قد اصدره ناصر الدين شاه في تبريز . في هذه الاعوام القليلة [التي سبقت اعدامه] اسس ، ببلاغة ما كتبه وحرارة ما بشّر به ، ديناً جديداً لا يزال له ، بالرغم من الانشقاقات المتتالية والخصومات الدينية المريرة ، كثير من الاتباع . ولهذا الدين تراث من الانتصارات على ما انتابه من اضطهاد واستشهاد . ان شهرة الباب واتباعه المؤمنين كثيراً ما الهبت خيال براون . « فأولئك الذين رافقوني في رحلتي الى هذا الحد ، سيتذكرون كيف ان حظي السعيد قادني اخيراً بعد بحث طويل غير مجد الى ان ألتقي بالبابيّين في اصفهان ، وسيتذكرون ايضاً كيف ان رسول الباب الذي قُدّمت اليه وعدني بانه سيبلّغ رغبتي بالمزيد من المعرفة الى المؤمنين في شيراز ، وكيف انه اعطاني ايضاً اسم واحد منهم كان بيته مركزاً رئيسياً من مراكزهم . وما بلغت شيراز حتى بدأت افكر كيف اتصل، دون ان يتنبه الي احد او ان اثير التساؤل، بالشخص المعيّن الذي يشغل منصباً في الخدمات العامة على شيء من الاهمية . ولن اوضّح اكثر من ذلك وسأخفي كذلك اسمه لاسباب معروفة ، مشيراً اليه عند الحاجة ، بميرزا محمد » .

في مثل هذا الجو من السرية والتآمر الذي يميز تاريخ بلاد فارس الديني ، ما لبث براون ان حظي بالاجتماع بميرزا محمد . وقد قاده الى بيت ميرزا محمد شخص يدعى ميرزا علي وهو بابي شاب وصديق قديم لبراون منذ ان كانا معاً في اوروبا. « لم يكن في بيته عند وصولنا ، غير انه جاء بعد قليل ورحب بي ترحيباً حاراً . ثم انضم الينا ضيف آخر ما لبث ان مال قلبي اليه لما كان عليه من ملامح واضحة ، ولتحياته الصريحة . وهو الكاتب والمبشر حاجي ميرزا حسن . ولم يمض وقت قصير حتى تبعه السيد الشاب الذي كان قد زارني في اليوم السابق ومعه سيد آخر اكبر منه سناً كان على غاية من الهدوء ولطف المعشر . وهو ، كما علمت بعد ذلك ، يمتّ بصلة النسب الى الباب ، فكان اذن احد « الافنان » ، وهو لقب يطلقه البابيّون على كل من يمتّ بصلة القرابة ، على درجات متفاوتة ، الى مؤسس دينهم» . ويقول لنا براون: « كنت في البدء على شيء من الحيرة في امري واحترت كيف ابدأ ، خصوصاً لوقوف عدد من الخدم خارجاً ، يراقبون ويستمعون . وسألت ميرزا علي اذا كان لا بأس من الكلام بحرية امام هؤلاء ، فأشار الى ميرزا محمد يطلب منه ان يصرفهم ... وواصلت الحديث مشيراً الى ما كنت قد سمعته عن الباب ، عن لطفه وصبره ، وعن المصير القاسي الذي لحق به ، والشجاعة الثابتة التي واجه بها ، هو واتباعه ، انواع العذاب القاسية التي انزلها بهم اعداؤهم . وانتهيت بقولي ، وهذا ما حدا بي الى ان ارغب في ان اطلع على ما تعتقدون ، فالعقيدة

التي تستطيع ان توحي بمثل هذا الثبات المدهش لا بد انها تحتوي على بعض المبادىء الشريفة » .

وقد تــلا ذلك احاديث طويلة ومعقدة ، روتها ذاكرة تستوعب اكثر من المعتاد . « تلك هي الصفة الخاصة بكلمة النبوة ، انها تحقق ذاتها ، وتخلق وتنتصر . ان الملوك والحكام جاهدوا لاخماد كلمة المسيح ، ولكنهم لم يستطيعوا ذلك ، اما الآن فان الملوك والحكام ليفخرون بكونهم خداماً للمسيح . ان ما يقوله النبيّ يفرض نفسه ، بالرغم من كل معارضة ومن كل اضطهاد ، ومن دون ان تدعمه قوة بشرية . هذه هي المعجزة الحق ، وهي اكبر معجزة ممكنة الحدوث ، انها في الحقيقة المعجزة الوحيدة التي هي حجة العصور المقبلة والشعوب البعيدة. ان اولئك الذين اسعدهم الحظ بلقاء النبي يمكن ان يقتنعوا بشق الطرق، اما اولئك الذين لم يروا النبي فان كلمته هي الدليل الوحيد الذي عليه يجب ان يقوم الايمان . فاذا احيا المسيح المــوتى ، فانك لم تكن موجــوداً لتشهد المعجزة بنفسك . ولا يستطيعنّ احــد ان يؤمن بدين استناداً فقــط الى المعجزات التي تنسب الى مؤسس هذا الدين . أوَ لم ينسب المؤمنون بكل دين معجزاتٍ الى مؤسس دينهم ؟ اما ان يقوم رجل من بــين قوم ، فيتكلم بكلمة تقلب الامبراطوريات وتسقط الانظمة ، وتجعل الالوف من الناس يموتون في طاعتها راضين مسلّمين ، كل ذلك دون ان يعلّمه

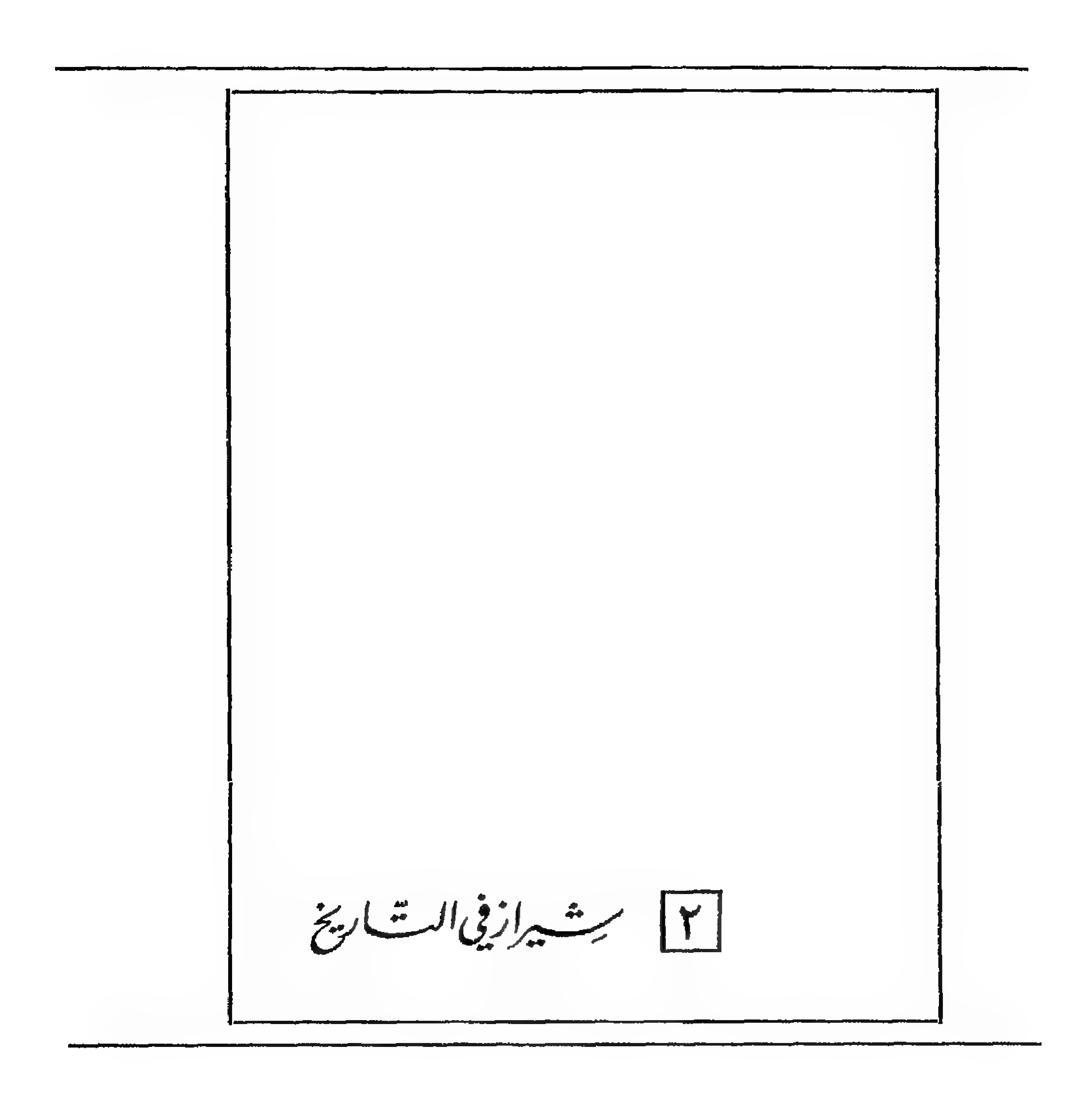
احد ، ودون ان يؤيده احد ، فهو برهان قاطع اكيد بان الكلمة التي قالها هي من الله . ذلك هو البرهان الذي نأتي به تأييداً لديننا هذا » .

وبعد ان ناقش براون كثيراً من النقاط ادرك ان « الوقت تجاوز الغروب ، وان الغسق يستحيل الى ظلمة ، فاضطررت ان اعود الى البيت على مضض ، وبالاختصار كنت مرتاحاً جداً من اجتماعي الاول بالبابيين في شيراز ، وتطلعت الى كثير من مثل هذه الاجتماعات خلال اقامتي في بلاد فارس . فقد تكلموا بحرية وبدون اي تحفظ ، واستقبلوني بكل لطف ، واظهروا الرغبة في ان يسهّلوا لي كل امر يؤدي بي الى فهم عقيدتهم ، ومع انهم لم يجيبوا على كثير من الاسئلة اجابات واضحة كما كنت ارغب ، فانني كنت شديد التأثر من لطف اولئك الاصدقاء الجدد ، وادبهم ، وعدم تحيّزهم . وكان اكثر ما لفت نظري ان معرفتهم بتعاليم المسيح والاناجيل كانت اوسع بكثير من معرفة المسلمين بها عامة ، كما لاحظت بارتياح انهم ينظرون الى المسيحيين نظرة صداقة كنت مسروراً جداً اذ لمستها » . وتبع ذلك كثير من الاحاديث ، كان من نتيجتها ان براون كتب الكثير عن البابيين بعد ذلك ، كما نشر كثيراً من تعاليمهم الاساسية وجمع مجموعة من الكتب والوثائق البابية ، وقد اورثها بعد موته سنة ١٩٢٦

مكتبة جامعة كمبردج . وستبرهن هذه المجموعة في المستقبل انها فائقة القيمة لجميع الباحثين في هذا الحقل .

« ان صورة هذه الاجتماعات لا يمكن ان تضمحل من ذاكرتي ، وذكرى تلك الوجوه وتلك اللهجات لا يمكن ان يمحوها الزمن . لقد تأملت بتهيب اعمال نَفَسٍ شديدة القدرة ، واني لاعجب بها انّى توجهت . ايه يا قوم الباب ، يا من يقاسون الآلام ويُجْبَرون على الصمت ، ومع ذلك لا يزالون ثابتين على موقفهم كما في شيخ تبرسي وزنجان ، ماذا خبأ لكم الدهر وراء ستار المستقبل ؟ » شاهد براون في شيراز تجلّيات نفس انسانية كان منها ان اقنعته ان ديناً جديداً كبيراً قد ولد . ولكنه عاش عمراً كان كافياً ليدرك ان البابية وفرعها البهائية ، مع ما صادفتاه من بداية مفجعة مجيدة ، لم تنتهيا الى ان « تقلبا الامبراطوريات وتسقطا الانظمة » . غير انه رأى من خلال تلك الاجتماعات السرية في شيراز ، وقد وُهب قوة الوصف ، روح بلاد فارس الصريحة الواضحة . ان بلاد فارس اهتزت قرناً بعد قرن بتلك القوى السرية التي تنطوي عليها الحماسة الدينية ، وهي تُنجب ، جيلاً بعد جيل ، الاولياء والمتصوفين ، والهراطقة والمدافعين بحماسة عن عقيدتهم ، والمتعبدين الصامتين ، والنساك الغامضين ، والشهداء المتفانين . ومن يدري ؟ لعله رأى هذه الاعاجيب تحدث للمرة الاخيرة ،

فالمؤثرات المادية التي دخلت من الخارج قد حملت معها كثيراً من التغييرات . وبما ان الاشياء التي شاهدها براون سنة ١٨٨٧ تشابه كثيراً شيرازَ سعدي وحافظ ، وبما انها تختلف كثيراً عن شيراز اليوم، فان قصته هذه لتخصّ العصر الذهبي لبلاد فارس، وهي قصة تصلح لان نصدّر بها هذه الحكاية التي سنقصها الآن .



٢ شيراز في التاريخ

ان شيراز اليوم هي عاصمة اقليم فارس (بارس) وهو بلاد فارس القديمة التي اعطت اسمها لبلاد ايران . ولكنها لم تكن دائماً هكذا ، فهذه المدينة تدين بتقدمها الى العرب الفاتحين الذين اجتاحوا هذه البلاد في السنوات الاولى للاسلام . وهنالك من يقول ان المدينة قد اسست قبل ذلك بكثير فان فراير يقول في كتابه « رحلات في بلاد فارس » Travels in Persia ، ما يلي : «تروي التقاليد انها بنيت من انقاض برسبوليس . ويقول آخرون انها قديمة قدم كورش او سيروس ، وهم يصرون على انه هو المؤسس . فالشبه في الاسم يشير الى ذلك . غير انه ليس من المحتمل ان يكون كورش قد بناها لكي تكون أثراً تذكارياً له في حين لم يسمح باقامة مثل ذلك عند موته ، اعتقاداً منه ان هذا الاثر ، اذا اقامه الموالون له على انقاض برسبوليس ، فان ذكراه قد تحيي مجد المملكة التي كانت قد سقطت ، وتطوي في مجاهل النسيان الاسم البغيض للفاتح الجديد الذي لطخ سمعته باصغائه الى مومس جمح بها الثأر لكي تحيل برسبوليس ، تلك المدينة الزاهرة ، الى رماد . ولذلك فان مدينة شيراز هذه تعتبر

وكأنها قــد بعثت على غرار ما تبعث العنقاء» . وقد ذكر العالم غي لوسترانج، مؤلف كتاب «بلدان الخلافة الشرقية »[1]، بكل صراحة ان «شيراز » عاصمة اقليم فارس ، اسسها العرب لتكون معسكراً للجيش الذي ارسل لحصار اصطخر في زمن الفتح الاسلامي في عهد الخليفة عمر . وقد قاد لوسترانج غيره الى هذا الرأي لكونه ثقة في هذه الامور .

صحيح ان الجغرافيين في العصر الوسيط يقولون الشيء نفسه ، ومنهم مؤلف كتاب «حدود العالم» باللغة الفارسية (مؤلف مجهول كتب كتابه هذا في سنة ٩٨٢ – ٩٨٣) وهو يــؤكد (حسب ترجمة ف . مينورسكي) «ان هذه المدينة قد بنيت في العصر الاسلامي» . غير انه لا يلبث ان يقول : «وتقوم فيها قلعة قديمة متينة جداً تسمى حصن شاه مُباذ . ويوجد في هذه القلعة معبدان للنار مقدسان» . ان هذا ليدل على ان المكان كان مأهولاً قبل الاسلام ، وقد اكّدت ذلك الاكتشافات الأثرية الحديثــة التي كان جورج ج . كاميرون من جامعة شيكاغو[2] قد قام بها مؤخراً ، عندما كان يقوم ببعض الحفريات في برسبوليس . فقد وجد الواحاً من

١ – Guy Le Strange, The Lands of the Eastern Caliphate (Cambridge University Press, 1905).

٢ – هو الآن في جامعة متشيغان ، آن آربر .   (المترجم)

الآجر باللغة العيلامية سجلت فيها اجور العمال الذين بنوا قصر داريوس سنة ٥١٧ ق. م. وقد جـــاء بعض العمال من شيرا – اتس – تسي – اش . ونلاحظ ان هذا الاسم اقرب الى كلمة شيراز من اي من التخمينات السابقة . ومن تلك التخمينات يجب ان نذكر ما رواه حمد الله مستوفي القزويني الذي قال في كتابه « نزهة القلوب » سنة ١٣٤٠ ان « مؤسسها حسب ما هو معروف هو شيراز ابن تحموراث ، قانص الجان ، ثم بعد ذلك صارت الى دمار. وفي رواية اخرى ، كانت تقوم في مكانها مدينة تدعى فارس ، وقد سميت على اسم فارس ابن سام ابن نوح . غير ان الرواية المعوّل عليها اكثر من غيرها هي ان باني شيراز او مرمّمها هو محمد اخو الوالي الحجاج بن يوسف ، وذلـــك بعد انتشار الدعوة الاسلامية . وفي رواية اخرى ان الذي رممها هو ابن عمه محمد بن القاسم ، اما تاريخ الترميم فهو سنة ٧٤ للهجرة (٦٩٣ م) عندما كان برج العذراء في الصعود » . ومهما يكن حجم شيراز في ايام داريوس فلقد كانت برسبوليس ، في البدء تطغى عليها من حيث الاهمية ، ثم طغت عليها اصطخر ، وذلك بعد فتوحات الاسكندر ، وهي تبعد قليلاً الى الشمال من تلك المدينة العظيمة . وبعد ذلك قسّم الملوك الساسانيون ، الذين قضى العرب على امبراطوريتهم ، اقليم فارس الى خمس مقاطعات وجعلوا شيراز عاصمة مقاطعة من هـــذه المقاطعات ، وهي مقاطعة اردشير خرّه .

قضى العرب على الامبراطورية الفارسية قضاء سريعاً، وذلك في عهد الخليفة الثاني عمر بن الخطاب (حكم من سنة ٦٣٤–٦٤٤). وقد وصف جيبون هذه الفتوحات الجائحة وصفاً رائعاً . « كان من نتيجة سخط الفرس وخوفهم انهم ارجأوا، لاجل، اختلافاتهم الداخلية . فخُلعت ملكتهم ارزيما بعد ان حكم عليها الكهنة والنبلاء بالاجماع . وقد كانت السادسة من بين المغتصبين الذين سرعان ما كانوا يقومون ويزولون ، وذلك في مدة ثلاث سنين او اربع ، منذ موت خسرو وانسحاب هرقل . وقد وضع تاجها على رأس يزدجرد ، حفيد خسرو . واتفق طالع البرج في ذلك الوقت مع سقوط بني ساسان ودين زرادشت . غير ان عمر هذا الشاب – كان في الخامسة عشرة فقط – وعدم خبرته قاداه الى خوض معركة انتهت به الى هزيمة شنعاء فانتقلت على اثرها راية الملك الى قائده رستم ، وكان قد تبقى من جيش يزدجرد النظامي ثلاثون الفاً فزاد الآن الى مئة وعشرين الفاً من رعايا الملك الكبير وحلفائه، ولا نعلم اذا كان هذا العدد حقيقياً ام من نسيج الخيال » . ولم يستهل صيف سنة ٦٣٧ حتى « كان المسلمون، الذين وصلتهم تعزيزات عسكرية اصبحوا بعدها ثلاثين الفاً بدلاً من اثني عشر الفاً ، قد عسكروا في سهول « القادسية » القريبة من سامرا على الضفة الشرقية من دجلة » . وكانت جموعهم تنتج « الجنود » اكثر مما كانت تنتجه جموع الكفار الذين كان يصعب ضبطهم... وفي صباح اليوم التالي تقرّر مصير بلاد فارس ، اذ هب اعصار موسمي جرف الغبار على وجوه

الكفار ، وكانت صلصلة السيوف يسمع صداها في خيمة رستم الذي كان ، بخلاف سميّه البطل القديم ، متكئاً في سرادقه في الظل البارد الهادىء تحيط به امتعته وقافلة البغال المحملة بالذهب والفضة . ولما احسّ بالخطر هرب من مضجعه ذاك ، ولكنّ واحداً من اولئك العرب الشجعان لحق به وأمسك به من قدمه وقطع رأسه ورفعه على رمحه وعاد تواً الى ميدان القتال ينشر القتل والرعب في صفوف الفرس المتراصة اشدّ تراصّ . اما العرب فقد اعترفوا بانهم خسروا سبعة آلاف وخمس مئة رجل. وتميزت معركة القادسية حقاً بالعناد والوحشية . وألقي علم المملكة ارضاً واستولي عليه – وهو كناية عن وزرة جلدية كانت تخص حدّاداً عمل في العصور الخالية على تحرير بلاد فارس . ولكن هذا الشعار ، شعار الفقر البطولي ، ما لبث ان غطّته وكادت ان تحجبه مجموعة كبيرة من الاحجار الكريمة . وكان من نتيجة هذا الانتصار ان خضعت هذه المقاطعة العراقية الغنية ، او بلاد اشور ، للخليفة . ان بلاداً تتقاطع فيها الانهار والاقنية كان بمقدورها ان تؤلف حاجزاً منيعاً يقف بوجه هؤلاء الفرسان المنتصرين ، كذلك كان بمقدور اسوار كتسيفون او المدائن ، التي قاومت آلات الحصار الرومانية من قبل ، ان تقاوم هجمات العرب . ولكن هؤلاء الفرس الهاربين ، ران عليهم الاعتقاد بان ساعة دينهم وامبراطوريتهم قد حانت فتخلوا عن مواقعهم الحصينة إما خيانة وإما جبناً ، وهرب الملك يقسم من عائلته وكنوزه الى حلوان ، وهي على سفوح

التلال الميدية . وبعد ثلاثة اشهر من وقوع هذه المعركة ، عبر سعيد ، الوالي من قبل عمر ، نهر الفرات دون اية مقاومة ، وسقطت العاصمة عنوة . ووقع الاهالي ، بسبب مقاومتهم الفوضوية ، فريسة لسيوف المسلمين الذين كانوا يهتفون بحرارة دينية : « هذا قصر كسرى الابيض ، هذا ما وعدنا به رسول الله ! وهكذا فـــاز غزاة الصحراء اولاء باكثر مما كانوا يأملون او يحلمون » .

اندحرت البقية الباقية من جيش الساسانيين اندحاراً مشيناً حوالي سنة ٦٤١ في معركة نهاوند ، بالقرب من مدينة اكبتانا القديمة . وقد « صمد مئة وخمسون الفاً من الفرس للمرة الثالثة والاخيرة دفاعاً عن دينهم وبلادهم » ، بينما هرب يزدجرد من حلوان مخفياً عـــاره ويأسه الى جبال فارسستان التي شهدت في الماضي ظهور كورش على رأس جماعة من رفاقه الاكفاء الشجعان وبدء زحفه المظفر الى المناطق المنخفضة . اما العرب فقد امّنوا خط مواصلاتهم باقامتهم معسكري البصرة والكوفة . « ثم انهم اداروا وجوههم شطر الغرب والامبراطورية البيزنطية ، فعبروا ثانية نهر دجلة من فوق جسر الموصل والتقوا باخوانهم المنتصرين القادمين من سوريا في مقاطعتي ارمينيا ومـــا بين النهرين المفتوحتين . ولم يكن زحفهم هذا الشرقي من قصر المدائن ليقل سرعة وشمولاً ، فقد اخذوا بالتقدم على ضفاف دجلة والخليج ، يقطعون الممرات الجبلية الى وادي اصطخر او برسبوليس ،

ليحتلوا آخر معبـــد لامبراطورية المجوس . وكاد حفيد كسرى يؤخذ على حـــين غرة وهو بين العواميد المتساقطة والاوثان المكسرة ـ ذلك الرمز التعيس لحظ بلاد فارس في الماضي والحاضر . ولذا هرب مسرعاً الى صحراء كرمان ، طالباً معونة السجستانيين البواسل ، واللجوء المهين على تخوم الدولتين التركية والصينية » . اما هذا الفتح الذي بدأه عمر فقد اكمله خليفته بسرعة ، «فالجيش المنتصر لا يشعر بالتعب . ووزع العرب قواتهم لملاحقة العدو الخائف . اما الخليفة عثمان فقد وعد اول قائد يدخل خراسان بان يمنحه تلك البلاد الواسعة المزدحمة بالسكان ، وهي مملكة البكتريين القدماء . فقُبِل الشرط ، وحقّت الجائزة ، ورفعت راية النبي العربي على اسوار هراة ومرو وبلخ . ولم يتوقف القائد المنتصر ولم يسترح حتى شربت خيوله المزبدة من مياه نهر جيحون » .

واكمل عبد الله بن عامر ، امير البصرة ، اخضاع اقليم فارس . وظهرت ، في اعقاب الاخضاع الاول للمقاطعة ، مقاومة محلية تركزت على اصطخر ، فاتخذ القائد العربي قاعدة عملياته في السهل حول شيراز واخمد العصيان ، ثم سقطت اصطخر سنة ٦٤٩ ــ ٦٥٠ و « بلغ عدد القتلى ممن عرفت هوياتهم اربعين الفاً ما عدا الذين لم يعرف لهم اسم » . ذلك حسب رواية ابن البلخي في كتابه « فارس نامه » المكتوب حوالي سنة ١١١٠ . هذه الرواية تحدثنا عن الفتنة الاولى فقط . اما في الهجوم الثاني فقد

ملك «عدد لا يحصى» من الفرس ، و «عندما وصلت هذه الاخبار الى مدن بارس الباقية ، لم يجرؤ احد ان يرفع رأسه ، ورضي الجميع بأن يتخلوا كلياً عن فكرة المعارضة . وكان يزداد كل يوم عدد معتنقي الاسلام حتى سار الجميع في شريعة هذا الدين» . واضاف قائلاً انه منذ اول دخول الاسلام الى بارس كانت السنّة هي السائدة ؛ ولم تجد البدع موطىء قدم لها في المقاطعة . اما تعصب الجبر (الزرادشتية) فلم يكن معروفاً .

كانت اصطخر ، في ايام الساسانيين ، تنافس برسبوليس القديمة . ولكن سرعان ما افل نجمها بقدوم العرب . ولم يبدأ القرن الثاني عشر حتى انخفض عدد سكانها الى المئة على اكبر تقدير . ويمكننا القول ان مركز اقليم فارس العسكري والاداري بقي في شيراز منذ سنة ٦٥٠ فصاعداً . ولا بد ان يكون اللاجئون من اصطخر قد التحقوا بالمعسكرات العربية التي كانت تعززها القوات من البصرة على الدوام . ويروي المؤرخون (وروايتهم هذه يأخــــذ بها ابن زركوب ، مؤرخ شيراز في العصر الوسيط ، الذي وضع كتابه «شيراز نامه» حوالي سنة ١٣٤٢ — ١٣٤٣) ما يلي : «في ولاية عبد الملك بن مروان وفي خلافته كان وزيره الحجاج بن يوسف» . (وقد بدأ هذا الاداري القوي حياته معلماً للصبيان ، وهو مشهور ، في التراث العربي ، بخطبته التي القاها على اهل الكوفة المتمردين عام ٦٩٤ ، وقال فيها : «يا اهل الكوفة اني لأرى رؤوساً قد

اينعت وحان قطافها واني لموردها ، وكأني أرى الدماء تجري ما بين العمائم واللحى ») . ويضيف ابن زركوب قائلا : « وقد ارسل شقيقه محمد بن يوسف الى اقليم فارس ، وتقول الرواية بانه هو الذي بنى مدينة شيراز جاعلاً مساحتها الف خطوة اكثر من طول اصفهان وعرضها . وكانت المدينة في ذلك الوقت على غاية من الازدهار . واظهر عمر بن عبد العزيز ، في آخر خلافته التي لم تدم اكثر من سنتين ونصف (٧١٧ - ٧٢٠) ، رغبة شديدة في توسيع المؤسسات الخيرية كما بنى كثيراً من المساجد والاماكن المقدسة وذلك ضمن حدود مدينة شيراز » .

وقد لاحظ الجغرافي العربي المقدّسي، الذي كتب سنة ٩٨٥، ان شيراز تدين بأولويتها كمدينة الى مركزها في وسط البلاد . فهي ، كما يقول ، تقع على بعد ٦٠ فرسخاً من الحدود على اربعة نقاط من البيكار ، وعلى بعد ٨٠ فرسخاً من كل زاوية من المقاطعة . اما ياقوت ، وقد مات سنة ١٢٢٩ ، فقد شبّه المدينة ببطن الاسد ، بمعنى ان البضائع كانت تجلب اليها من جميع النواحي — وقد شبهها بذلك لكي يدعم ما تخيّله السابقون من ان كلمة شيراز مشتقة من كلمة شير الفارسية التي تعني «الاسد». وهناك شبكة من الطرق تصل شيراز بهرمز على الخليج العربي (٩٥ فرسخاً) وباصفهان (١٥٨ فرسخاً) : ومن هناك بكاشان (١٩٠ فرسخاً) وبالسلطانية (٢٥٤ فرسخاً) وكرمان (١٠٠ فرسخ وفرسخ) .

ويمكننا القول ، لعدم وجود الدليل المضاد ، ان شيراز مرت بالمراحل ذاتها التي مرت بها كل المدن الاقليمية إبان نشأة الامبراطورية العربية وازدهارها . وقد تقبل الشعب الفارسي الاسلام بكل هدوء بعد ان قام بالثورتين الاولين اليائستين. وهاتان الثورتان كانتا المرحلتين الاخيرتين من الفتح . كذلك تقبل الفرس مركزهم الرعوي . ومن المرجح ، كما اراد بعض كبراء العلماء ان يثبتوا ، ان يكونوا قد رحبوا بالاسلام هذا الترحيب لكونه منجاة لهم من طغيان الدولة الفاسدة والمؤسسات الدينية السابقة، الذي تميز به الطور الاخير في تاريخ انحلال الامبراطورية الساسانية الكبيرة . وقد انتقلت في تلك الاثناء عاصمة الامبراطورية الجديدة من المدينة الى دمشق ، ثم خلع العباسيون الخلفاء الامويين سنة ٧٥٠ م. وهم في انتصارهم ذلك يدينون الى التأييد الفارسي والسياسة الفارسية الى حد كبير . وفي سنة ٧٦٢ وضع الخليفة المنصور الحجر الاساسي لمدينة بغداد . وكان هذا العمل رمزاً الى المضي في ابعاد السلطة والتأثير عن الجزيرة العربية وتقريبها الى بلاد فارس . ولكننا نرى من جهة اخرى كيف ان أبا مسلم الخراساني قُتل ، وهو الذي كان لسيفه الفضل الكبير في احراز النصر للعباسيين . كذلك أُخضعت الراوندية بدون رحمة . « وهي فرقة جديدة من الغلاة الفرس الذين حاولوا ان يؤلهوا الخليفة ، كما سُحقت الثورة التي قام بها الشيعة الساخطون ، وكان على رأسها ابراهيم

وأخوه محمد الملقب بالنفس الزكية حفيدا الحسن » . (فيليب حتي ، « تاريخ العرب ») . وكانت الفرقة الشيعية ، التي تقول بأن الخلافة يجب ان تبقى في سلالة النبي محمد من خلال ابن عمه وصهره علي ، تعتمد على تأييد بلاد فارس القوي ، وذلك لعدّة اسباب من اهمها ان بلاد فارس كانت تعارض سيطرة العرب المستنكرة والمكروهة . وفي سنة ٨٣٥ فازت شيراز بمشهد شيعي على غاية ما يكون من التقديس ، وذلك عندما استشهد فيها أحمد بن موسى اخو الامام الشيعي علي الرضى الذي عيّنه المأمون مرة ولياً لعهد الخلافة . وقد اصبحت العقيدة الشيعية دين بلاد فارس الرسمي منذ ان أسست السلالة الصفوية الشاهانية .

أصاب خلفاء بغداد في القرن التاسع تقهقر رافقته أولى دلائل نهضة قوية للوعي الوطني في بلاد فارس . ففي سنة ٨٢٢ اعلن طاهر بن الحسين الخراساني ، احد قواد المأمون ، استقلاله عن الخليفة ، وأسس اول دولة مستقلة شرقي بغداد . وفي سنة ٨٦٧ تمثّل به يعقوب بن ليث الذي كان يتخذ النحاسة مهنة ويشتغل بقطع الطرق . فاستولى على مقاطعة سجستان ومنها امتدت سلطته لتشمل معظم بلاد فارس . وقد جلب المجد الى شيراز باتخاذه اياها عاصمة له . وبنى اخوه الذي خلفه في الحكم سنة ٨٧٩ المسجد القديم ، حسب رواية ابن زركوب ، في عام ٨٩٤ ، وكان ذلك اول مسجد جامع بني في شيراز .

وتعاظم الرخاء الذي بدأه الصفاريون في شيراز عندما

اتخذها البويهيون قاعدة اولى لسلطتهم . اما مؤسس هذا البيت القوي الذي كان يضع الخلافة على راحته ، فهو ابو شجاع بويه الذي ادعى انه يرجع بنسبه الى الملوك الساسانيين القدماء . وقد بدأ حياته رئيساً لعشيرة من جبال الديلم على الشاطىء الجنوبي لبحر قزوين ، وقـــد خدم الامراء السامانيين الذين طردوا الصفاريين . وفي سنة ٩٤٥ كان من ابنه احمد ان اجبر الخليفة المستكفي على تعيينه قائداً عاماً وتلقيبه بمعز الدولة ، كذلك اجبر الخليفة على ان يخصه بذكر اسمه في صلاة الجمعة مقروناً باسم الخليفة كما ضرب اسمه على السكة . وبعد ان أذل خليفة الله هذا الاذلال عمد الى سمل عينيه والاطاحة به . ومنذ ذلك الوقت كان البويهيون ، لأكثر من قرن من الزمن ، هم الذين يقررون من سيكون الخليفة في بغداد ، وأصبح العراق محكوماً كأية مقاطعة اخرى من عاصمتهم شيراز . ولكونهم من الشيعة فقد فرضوا حتى شعائرهم الدينية على المدينة التي كانت قبل ذلك معقل السنة الرئيسي ، وقد لقبوا اول خليفة من الخلفاء « الدمى » باللقب الذي يستحقه ، ألا وهو المطيع .

مات معز الدولة سنة ٩٦٧ . غير ان حكومة اقليم فارس كانت في هذه الاثناء في يدي ابن اخيه عضد الدولة ابن ركن الدولة وذلك منذ سنة ٩٥٠ . وركن الدولة هذا هو الذي بنى ركن آباد ، القناة المشهورة في شيراز ، ودعاها باسمه . وتمتد هذه القناة من ممر « الله اكبر » . وفي تلك الاثناء بسط عضد

الدولة سيطرته على جميع الامبراطورية البويهية ، وبلغت الدولة البويهية في عهده ، الذي انتهى سنة ٩٨٣ ، اوج مجدها . ويدعو ابن زركوب عضد الدولة ، واسمه الاصلي ابو شجاع فناخسرو ، « خير خلفاء بني بويه المشهورين » ويشاركه في حكمه هذا جميع المؤرخين. وفي ايامه (كما يقول حمد الله مستوفي) «اصبحت المدينة مزدحمة بالسكان الى حد انه لم يعد يوجد مكان تنزل فيه جيوشه ، فبنى الى الغرب من شيراز بلدة تؤوي جنوده تدعى فناخسرو جرد ، وهي معروفة عند العامة بسوق الامير . وقد نمت هذه البلدة في عهده الى درجة ان الضرائب التي كانت تجبى منها بلغت ٢٠٠٠٠ دينار ، اما اليوم فانها آثار مدروسة ، وهي قرية بسيطة تابعة للمنطقة التي حول شيراز » . وقد بنى عضد الدولة في هذه البلدة التابعة ، القصيرة العمر ، قصراً ثانياً. « وانفقت الاموال الطائلة على الحدائق التي كانت تمتد فرسخاً طولاً ومثله عرضاً . وكان حاكة الصوف وصانعو الحرير (البروكار) وغيرهم من الصناع يسكنون الدور التي حولها . وقد أتى البويهيون بهؤلاء من بلدان نائية ليسكنوا في اقليم فارس ». (ج. لو سترانج ، « بلدان الخلافة الشرقية »).

ان وصف حمد الله مستوفي لبلدة فناخسرو جرد التابعة لمدينة شيراز يدفعنا الى الاعتقاد ان شيراز كانت مركزاً تجارياً مزدهراً منذ ايام البويهيين وما بعد . فالرحالون الاوروبيون الذين شاهدوا المدينة بعد ان ذهب عزها القديم لاحظوا فيما

لاحظوه عظم اسواقها وتنوعها . فقد كانت اكثرية المحاصيل الزراعية في اقليم فارس الفائق الغنى بالحبوب والخضار تنصبّ في شيراز ، بالاضافة الى الاسماك التي كانت تأتي من البحيرات، والى الفواكه الموسمية ؛ اما عسل شيراز فكان مشهوراً جداً ولا يزال كذلك الى حد بعيد . وقد بلغت تجارة الخمور حسب تقدير تافرنييه ٤,١٢٥ دنّاً ، وكانت الاسواق على غرار ما هي عليه في بقية المدن الشرقية ، فلكل حرفةٍ حيّ خاص ! وكانت كوم المحاصيل والمصنوعات المحليـــة تزداد تضخماً من جراء البضائع الاجنبية المستوردة عن طريق البرّ من موانىء سيراف وناجيرام . وكانت معامل شيراز تجهّز الاثرياء بالأواني الفنية لتزيين بيوتهم. ويقول دوغلاس باريت في كتابه «تراث فارس»: « هنا في سنة ١٣٦٠ عمل صانع شيرازي الشمعدان المشهور ، المنزّل ذهباً وفضة ، والموجود في مجموعة حراري . وقد نزّل الفنان باتقان محكم مشاهد من البلاط والصيد والحدائق ولعبة الجحف ومشاهد من بعض قصص « الشاه نامه » بكل اتقان وتفصيل هما ضروريان في رسم المنمنمات » . هذا وقد انتقلت مخطوطات كثيرة مكتوبة بخط جميل، وغنية بالتزويق والصور الرائعة ، من مشاغل شيراز الى المكتبات الكبيرة .

اما حياكة السجاد ، تلك الصناعة التي عرف الغرب بها ابناء فارس ، فهي تزاول في اقليم فارس منذ الف سنة على الاقل . فقد ذكر عالم جغرافي فارسي مجهول الاسم ، عاش في القرن

العاشر ، ان صناعة السجاد هي من الصناعات الرئيسية في ذلك الاقليم . ولا سبيل لنا ان نعلم كيف كانت تلك الابسطة القديمة ، ولكن في بلاد محافظة مثل بلاد فارس تبقى التصاميم التقليدية على ما هي عليه ، عبر كثير من الاجيال . وليس من المستبعد ان تكون النماذج الشيرازية التي نراها اليوم تعود الى فجر التاريخ . ان الاصطلاح المسمى « بشيراز » [المعروف في تجارة السجاد] هو بحدّ ذاته تسمية خاطئة . فمع ان شيراز تعدّ سوقاً مهمةً لشراء السجاد وبيعه فان المدينة ذاتها خالية من مشاغل للسجاد ، فالبضاعة التي تجلب الى المدينة مصنوعة في قرى اقليم فارس المتناثرة ! وقد شغلت بايدي افراد قبائل القسقاي والخمسة الضاربين خيامهم في الشمال الغربي والجنوب الشرقي من المدينة . اما متوسط الانتاج الحالي فيقدر بحوالي ٣٠,٠٠٠ قطعة سنوياً ، وينسج هذا السجاد على النول الارضي ، وهذه الصناعة تعد اكبر صناعة قبلية من نوعها . اما عرض السجادة فلا يزيد على الاربعة اقدام ، فشفرة النول اذا زادت عن خمسة اقدام تصبح ثقيلة جداً ومتعبة في حملها . وليس هنالك اي دليل على ان اقليم فارس قد انتج سجاداً كبيراً وجيداً كالذي تنتجه مثلاً تبريز وكاشان وبخارى . ولا يتمتع سجاد اقليم فارس بشهرة كبيرة خارج بلاد فارس ، ذلك لانه مصنوع فقط من الصوف ولذا فسرعان ما يترهّل عند الاستعمال اذ ان نسيجه رخو وزغبه قصير . اما الوانه فبعيدة عن ان تكون مشرقة . فاللون المسيطر هو الازرق القاتم والازرق الوسط والاحمر القرميدي

القاني . اما التصاميم فلا تحيد عن الخطوط المستقيمة مع نقشة ظاهرة او نقشتين او ثلاث وبضع تزويقات صغيرة متناثرة . ويمكننا ان نطلع على تشكيلة من رسومها في الكتاب القيم الذي وضعه المرحوم أ. سيسيل ادواردز وعنوانـــه « السجاد الفارسي » The Persian Carpet ، ١٩٥٣ .

ان شيراز تدين بكثير من الابنية الجميلة لنشاط عضد الدولة وبعد نظره . فعلى مساحة اثنين وعشرين ميـــلا الى الشرق والشرق الشمالي من المدينة شاد بناءً هو عبارة عن قناطر وجسر على نهر كور . ويعرف هذا الجسر الى يومنا الحاضر باسم بند امير ، ويبلغ عرضه مبلغاً يستطيع معه عشرون فارساً — حسب رواية ابن زركوب — ان يمروا عليه الواحد الى جنب الآخر . وهكذا فقد كانت حاجة شيراز الى الماء مؤمّنة .

كذلك اعتني بالصحة العامة ، فقد بُني مستشفى جميـــل وقفت له الاوقاف . وهو يأتي بالمرتبة الثانية من حيث الاهمية بعد البيارستان المشهور الذي بناه عضد الدولة في بغداد. ولا تعرف اية تفصيلات عن البناء الاول ، اما البناء الثاني فقد تمّ بناؤه سنة ٩٧٨ – ٩٧٩ ، وخصص له مبلغ ١٠٠٠٠٠ دينار ، كما انه كان يحتوي على فريق من الاطباء يضم اربعة وعشرين طبيباً . وقد جهّز ليس فقط لأن يكون مستشفى عملياً بل لأن يكون ايضاً مستشفى للتعليم . ويروى عن البويهي الكبير ايضاً انه شاد مكتبة جميلة ومـــلأها بالكتب ، على ان بعض الثقاة

ينسبون هذا المبنى الى ابنه وخليفته شرف الدولة الذي بنى ايضاً مرصداً رائعاً . وقد كان عضد الدولة الى ذلـــك مخلصاً للتقليد الفارسي الملكي ، فرعى العلوم والفنون ، وكان يغتبط برؤية بلاطه مزدحماً بالعلماء والشعراء . ولم يكن هو بالشاعر العربي البسيط ، فبعض اشعاره لا يزال محفوظاً . وقد مدحه كثير من الشعراء ، ومن جملتهم المتنبي سيد المادحين ، وكان عضد الدولة آخر امير مدحه هذا الشاعر . فعند عودة المتنبي من شيراز الى بغداد سنة ٩٥٥، قتله بعض البدو من قطاع الطرق. هذا وقد كان الفيلسوف والمؤرخ الكبير ابن مسكويه خازناً له . اما ابو علي الفارسي النحوي المشهور فلم يقدّم له خير ما ألّفه وحسب بل كان وكيل عضد الدولة في زواجه من ابنة الخليفة الطائع .

اما في بغداد فقد خلف شرف الدولة في الحكم اخوه الاصغر بهاء الدولة. واستولى على السلطة في شيراز الاخ الاوسط صمصام الدولة الذي سمل شرف الدولة عينيه ، كما يقال ، اثناء الخلافات العائلية التي اخذت تُضعف سلطة البويهيين بسرعة . وينسب الى صمصام الدولة بناء اسوار شيراز ، وكانت قد بقيت الى ذلك الوقت بدون اسوار . وقد حدا به الى تحصين عاصمته هذه كثرة ما حصل اثناء حكمه من اضطرابات . وكانت سماكة هـــذه الاسوار في الاصل ثمانية اذرع ومحيطها ١٢٫٠٠٠ ذراع . ولم تكن ابوابها لتنقص عن احد عشر ذراعاً . غير انه سرعان ما

هدم الزمن هذه الاسوار لكي يجدد بناءها محمود شاه اينجو في منتصف القرن الرابع عشر .

وبأفول نجم البويهيين اخذ ازدهار شيراز المادي بالتقهقر. في تلك الاثناء كانت قوة جديدة في طور الصعـــود ، « فبقيام السلاجقة الاتراك بزغ عصر جديد هام في تاريخ الاسلام والخلافة ». ويضيف فيليب حتي قائلاً : « ولما ظهروا من الشرق في مطلع القرن الحادي عشر ، كان الخليفة لا يتمتع الا بظل من سلطة الخلافة السابقة ، وكانت امبراطوريته قد تمزقت ارباً ارباً ، فالأمويون قد استتب امرهم في اسبانيا ، والفاطميون الشيعيون في مصر وشمالي افريقيا ، ولم يعد لبغداد الى القضاء على شوكة هؤلاء جميعاً من سبيل . اما شمالي سوريا وبلاد ما بين النهرين العليا فقد آل امرها الى ايدي زعماء من الثائرين العرب نجح بعضهم في تأسيس دولٍ قوية . اما بلاد فارس وما وراء النهر والاراضي الواقعة في الشرق والجنوب فإما تقاسمها امراء بويه وغزنه واما امتلكها حكام صغار مختلفون كان كل منهم يترقب الفرصة للفتك بمنافسه ، حتى عمّت الفوضى السياسية والعسكرية جميع الانحاء . وتفاقم الخطب بين الشيعة والسنة ، بحيث خيّل للناظر ان دولة الاسلام في طور النزع الاخير . تلك كانت حال دولة الاسلام حين ظهر سنة ٩٥٦ زعيم يدعى سلجوق وذلك على رأس قبائل « غزّ » او « أغز » التركمانية . وكان قومه هؤلاء الرحل قد تحدّروا من سهول كرغيز في تركستان فاستقروا في

منطقة من بخارى حيث اعتنقوا السنة ونصروها بغيرة وحماسة . وشق سلجوق ، ثم ابنه من بعده ، طريقهما رويداً رويداً في مناطق خانات الايلك ومناطق السامانيين مثبتين اقدامهما . ثم نشط حفيد سلجوق المعروف بطغرل ، فشنّ هو وأخوه غارة بلغا فيهـــا خراسان . وفي سنة ١٠٣٧ انتزع الأخوان مرو ونيسابور من ايدي الغزنويين . وما لبثا ان استوليا على بلخ وجرجان وطبارستان وخوارزم وهمذان والري واصبهان ، فتداعى امام بأسهما صرح بني بويه . وما وافى اليوم الثامن عشر من كانون الاول (ديسمبر) سنة ١٠٥٥ حتى كانت قبائل التركمان الشرسة بقيادة طغرل بك تقف على ابواب بغـــداد . واضطر البساسيري ، القائد التركي الذي كان بنو بويه قد أمّروه على بغداد ، الى مبارحة العاصمة . وأسرع الخليفة القائم (١٠٣١ — ١٠٧٥) الى استقبال الغازي السلجوقي ونادى به منقذاً » .

وهكذا عاد الزمـــام مرة ثانية الى بغداد ، وأضحى اقليم فارس يحكمه ولاة من قبل السلاجقة يدعون الاتابكة وذلك لأكثر من ثمانين سنة . وعندما كتب ابن البلخي كتابه « فارس نامه » كان ثاني هؤلاء الولاة لا يزال على قيد الحياة . وقد مدحه ابن زركوب لحسن ادارته ذاكراً على الاخص تدميره اثنتين وسبعين قلعـــة في اقليم فارس كانت لا تزال قائمة منذ ايام الساسانيين وكانت تبرهن دائماً على كونها مصدر قلاقل للمسلمين المسالمين . وقد بنى خليفته قراجه ، الذي « لا تزال ذكرى

حكمه عابقة بالطيب » ، مدرسة او كلية ووقف لها الاوقاف ، ودعاها باسمه ، منافساً بذلك ، ولا شك ، نظام الملك العظيم الذي وقف مدارسه لغاية وحيدة هي نشر عقيدة السنة وابادة آخر أثر للتأثير الشيعي . هذا وقد بنى اتابكة آخرون جاءوا فيما بعد مدارس اخرى منها تلك التي بنتها زاهدة زوجة بُزابَه. غير ان سلطة السلاجقة انفسهم كانت قد اخذت بالانحلال ، ففي سنة ١١٤٠ اجبر بزابه السلطان مسعوداً ان يتنازل له عن السلطة في اقليم فارس ، ولكن السلطان ما لبث في سنة ١١٤٧ ان ثار لنفسه فأخذ بُزابَه اسيراً وقتله .

وتبعت ذلك سنة كاملة من الرعب السلجوقي في شيراز . ثم ثار ابن اخي بزابه ، سنقُر بن مودود ، على اسياده ونجح في الاستقلال باقليم فارس . وقد حافظت هذه العائلة ، التي عرفت بالسلغُريين نسبة الى جدهم سلغُر ، وهو زعيم تركماني خدم طغرل بك في بداية الامبراطورية السلجوقية ، حافظت على استقلالها (ولو كان في بعض الاحيان استقلالاً اسمياً) حتى سنة ١٢٨٧ . اما سنقُر نفسه ، الذي مات سنة ١١٦١ فيشتهر اكثر ما يشتهر بالمسجد الذي بناه . وقد كان هذا المسجد في وقته صرحاً جميلاً ، ولم يبق الآن منه شيء . اما اخوه زنكي فقد بقي على عرش اقليم فارس حتى سنة ١١٧٥ صامداً في وجه ابناء عمه اتابكة سوريا الذي طمعوا في ممتلكاته . وكان اهم عمل له في شيراز بناءه مقاماً أنيقاً يؤوي عظام الولي الصوفي الشهير ابن

خفيف الذي سنتكلم عنه في هذا الكتاب ، فيما بعد . وقد خلفه ابنه الاكبر تقلا وسيطر على اقليم فارس بتفويض من سلاجقة العراق، وذلك من سنة ١١٧٥ الى سنة ١١٩٤. وبنى وزيره امين الدولة مدرسة في جوار المسجد القديم . وما ان قضى تقلا نحبه حتى اختصم على الملك ابن عمه طغرل مع اخيه الاصغر سعد . واجتاحت اقليم فارس حرب اهلية دامت ثماني سنين دمرتها تدميراً ، وكان من نتيجتها انتشار المجاعة والطاعون . غير ان سعداً استطاع سنة ١٢٠٣ ان يقبض على طغرل ويستأثر بالملك لسنين طويلة .

في هذه الاثناء كان سيده طغرل الثاني ، وهو من سلاجقة العراق ، على خلاف مع شاه خوارزم طقش الذي هاجمه وقتله سنة ١١٩٤ ، مضيفاً بذلك بغداد الى امبراطوريته الشاسعة الارجاء. وخلف طقش على العرش سنة ١١٩٩ علاء الدين محمد، وحاول سعد ان يقاومه ولكن ُقبض عليه . ولم يفرج عنه حتى وعد بدفع الجزية وتنازل عن بعض ممتلكاته . وقد حدث ذلك سنة ١٢١٦ . ولما عاد الى شيراز وجد ان ابنه ابا بكر قد استولى على العرش وهو سجين خوارزمشاه . وتبع ذلك خصام شديد انتهى بان اصيب سعد بسهم في عينه ، ولكنه استطاع ان ينتصر على ابنه ويلقي القبض عليه . وبقي ابو بكر في سفيد كاوول حتى توسط له سنة ١٢٢٤ شاه خوارزم جلال الدين ، آخر من دافع عن بلاد فارس ضد المغول ، فأفرج عنه . ثم اعتلى

ابو بكر عرش ابيه بعد موته سنة ١٢٢٦ (او حسب رواية اخرى سنة ١٢٣١) حتى سنة ١٢٦٠ .

وحكم سعد بن زنكي وأبو بكر بن سعد مدة طويلة كانت حافلة بالاحداث . وفي عهدهما تخلص اقليم فارس من الفوضى والبؤس اللذين كانا قد حلا به في اواخر القرن الثاني عشر ، فاستعادت هذه المقاطعة مجدها وازدهارها اللذين كانت تتمتع بهما في عهد البويهيين . اما سعد فقد خلّد اسمه الشاعر سعدي الذي يفوقه شهرة . وقد قدّم لشيراز المسجد الجديد ، ويقال انه اكبر المباني الدينية في الشرق الاسلامي واجملها . كذلك بنى وأثث مضافة رحبة تؤوي الضيوف والمسافرين ، كما رمّم سور المدينة الذي كان الاتابك جاولي قد بناه. اما ابنه ابو بكر فقد كان هو الذي عمل كل ما بوسعه لكي يعيد رونق شيراز القديم، مما جعل ابن زركوب يكتب باسلوب اقرب الى الشعر ما يلي : «بلغ في عهده نجـــم الدولة اوجه من الرفعة وصعدت شمس الازدهار الى ذروة السموّ ، وفي عهده عمّ الرخاء في مهد السلام والامن ، وغرق سكان فارس في سبات الطمأنينة الرخيّ» . ومـــع ان كارثة المغول حلّت في عهده – تجتاح كثيراً من المدن الرائعة وتقضي على الملايين من الناس – اذ دمّر هولاكو خان بغداد سنة ١٢٥٨ ، وذلك قبل موت ابي بكر بسنتين – فان دهاء ابي بكر السياسي ، وحكمته المرنة ، خلصا شيراز من الكارثة العامة وجعلا من المدينة موئلاً يلجأ اليه كثير

من الهاربين من وجه هذه الداهية الدهماء . صحيح ان ابا بكر اضطر الى ان يقدّم الولاء ويدفع الجزية لاوكتاي ابن جنكيزخان وخليفته ، اولاً ، ثم لهولاكو نفسه ثانياً ، فيفوز لذلك بلقب مغولي هو قتلغ خان، ولكن ذلك كان ثمناً ، قد لا يكون غالياً ، لتخليص مركز حيوي للحضارة الفارسية في وقت كانت الحضارة الفارسية وكل شيء تدعو اليه هذه الحضارة، في خطر فناء شامل وشيك الوقوع . وسنعطي صورة اكثر تفصيلاً لشيراز في القرن الثالث عشر ، وذلك في الفصل المخصص لسعدي ، هذا الشاعر الذي رافق طوال حياته المديدة تلك السنين المضطربة . وبالاضافة الى هذا الامن الثمين الذي وفره ابو بكر لحياة الناس وأملاكهم ، فقد بنى لرعاياه مستشفى جديداً في شيراز ، كما بنى لهم في كل مكان من اقليم فارس كثيراً من المضافات . واتّبع وزيره ابو المفاخر مسعود مثال سيده المجيد ، وذلك بتأسيسه مستوصفاً وعدداً من المدارس .

وبموت ابي بكر انهار بيت بني سلغُر . فقد اعتلى ابنه سعد العرش لمدة اسبوعين فقط ، وامسك حفيده الطفل محمد بالصولجان لمدة سنتين ، ثم حكم ابن عم محمد هذا ، واسمه محمد شاه ، لمدة تقل عن السنة خُلع بعدها وقُتل لكي يخلفه على العرش اخوه الاصغر سلجوق شاه . ولم يشفع بهذا الاخير اسمه المجيد ، فبعد ان افرج عنه من قلعة اصطخر وذلك لكي يعتلي العرش ، اختلف مع سيده المغولي فلحقه هذا الاخير الى خارج

شيراز وقتله في كازرون . ولم تقتنه سنة ١٢٦٤ حتى استولت على العرش آبِيش خاتون ، ابنة سعد الثاني ، وسُمح لها ان تستقل بالحكم لمدة سنة ، ثم تزوجت من مانكو تيمور ، الابن الرابع لهولاكو خان ، ومن ثم اصبح اقليم فارس تحت حكم المغـــول مباشرة .

مات هولاكو ، اول ايلخانات فارس (مع ان ممتلكاته كانت تمتد الى ابعد من حدود تلك البلاد) في سنة ١٢٦٥ . وحل محله ابنه آباقا الذي امتد عهده الى سنة ١٢٨٢ . وكان يعتبر امور اقليم فارس وشيراز ذات اهمية اقليمية ثانوية ، ويتركها راضياً في ايدي ولاته . وكان وزيره وعامله على بغداد هو عطا ملك الجويني الشهير ، صاحب تاريخ المغول المشهور الذي ترجمه مؤخراً الى الانجليزية ج. أ. بويل . وقد ولـّى على اقليم فارس بهاء الدين ابن عطا ملك ، الذي مات سنة ١٢٧٩ وهو لا يزال في سن الثلاثين المبكرة . « كان حاكماً في غاية الشدة ، يُنزل الرعب الشديد في قلوب رعاياه. وقد بلغت ضراوته انه امر جلاده بقتل ابنه الصغير ، ولده المفضّل ، لانه امسك بلحيته وهو يلعب ». هكذا كتب إ. غ. براون في كتابه «تاريخ فارس الادبي» A Literary History of Persia . غير انه اضاف قائلاً : «ولكن من العدل ان نقول انه اثناء حكمه هذا الشديد ساد الا من الى ابعد حد في البلدان التي كانت تحت امرته ، في حين انه كان يرعى اهل الشعر والعلم والفن » . اذ « بينما عانت جميع المعارف من مذابح العلماء الشاملة

وتدمير المساجد والمكتبات والمؤسسات الدينية الاخرى ، كانت بعض اصناف العلوم اقل تأثراً بذلك من غيرها . فالمغـــول الوثنيون مثلا لم يهتموا كثيراً بالعلوم الدينية والفلسفة ولكنهم اولوا عظيم اهتمامهم للطب وعـــلم النبات وعلم النجوم والعلوم الطبيعية الاخرى ، كما كانوا على الاخص يرغبون بان يسجل المؤرخون القديرون منجزاتهم تسجيلاً دقيقاً ، كذلك لم يرغبوا كلياً عن مديح الشعراء . وعلى العموم يمكننا ان نقول اذن مطمئنين ان عصر النفوذ المغولي ، منذ ان مات هولاكو خان في الثامن من شباط (فبراير) سنة ١٢٦٥ الى ان مات موسى آخر الايلخانات المغول سنة ١٣٣٧ ، كان في غاية من الغنى من حيث المنجزات الادبية ، وذلك بالرغم من الضائقة الشديدة التي مرت بها بلاد فارس، وذلك عندما كان الحكام الكفار يسيطرون على البلاد والمسيحيون واليهود يسودون فيها على المسلمين » .

لم يقف شيء ، حتى بعد نظر آباقا ، في وجه تكودار امير تشاغاتاي ، فقد اجتاح هذا الامير الطموح اقليم فارس في غارة صاعقة ، وذلك في سنة ١٢٧٩ . واختار الايلخان الرابع اورغون (الذي حكم من سنة ١٢٨٤ — ١٢٩١) سعدَ الدولة اليهودي وزيراً له . « وكانت وقاحته وعداؤه الصريح للاسلام يزيدان كلما زادت سلطته ، حتى انه لم يكتف باقناع اورغون بطرد المسلمين من المراكز المدنية والعسكرية وحسب ، بل كان يسعى الى القضاء على دينهم قضاء تاماً . وقد شرع في اعـــداد

اسطول في بغداد بغية الهجوم على مكة . ويعث بيهودي آخر يدعى خـــواجه نجيب الدين كحال الى خراسان ومعه لائحة سوداء تحوي قرابة مئتين من اسماء الاعيان المسلمين ذوي النفوذ، كان ينوي القضاء عليهم . كذلك اعدّت له لائحة مشابهة اقصر من اختها تضم اسماء سبعة عشر رجلاً من الاتقياء والعلماء » . ولكن « ما ان وصل سعد الدولة الى أوج قوته واوشكت خطته ان تتحقق ، حتى سقط اورغون مريضاً في تبريز. فأيقن الوزير انه لن يعيش طويلاً بعد سيده فاضحى فريسةً لهمّ تسلط عليه وبلغ غاية الشدة . فدأب على خدمة الناس واخذ يتحسّن بمبالغ طائلة استرضاء للسماء ، فوزع ثلاثين الف دينار في بغداد كما وزّع عشرة آلاف على فقراء شيراز » .

وباعتلاء غازان (١٢٩٥ – ١٣٠٤) العرش عاد نجم الازدهار الفارسي الى الصعود . كان غازان مسلماً مؤمناً متعبداً. وقد كان لموته في الثانية والثلاثين وقع أليم على جميع البلاد . وعيّن اخوه اولجانيو (١٣٠٥ – ١٣١٦) رجلاً يدعى شرف الدين محمـــود شاه مديراً للممتلكات الامبراطورية من اقليم فارس . ويقال ان شرف الدين هذا يعود بنسبه الى المتصوف انصاري ، من هراة . وقد خلفه في هذا المنصب ابو سعيد (١٣١٧ – ١٣٣٤) . ولم تأت سنة ١٣٢٥ حتى نصب هذا الاخير نفسه حاكماً مستقلاً على المقاطعة وتلت ذلك مضاعفات سياسية في اقليم فارس استمرت حتى مجيء تيمورلنك . وسنتكلم بالتفصيل عن هذه المضاعفات

في الفصل المخصص لحافظ الذي عاش في تلك الاثناء . اما هذه الخلاصة فهي ما روته جرترود بل . وهي مأخوذة من مقدمتها لكتابها « اشعار من ديوان حافظ » [١] . قالت :

« لما مات محمود شاه ، عين ابو سعيد الشيخ حسين بن جبان على ولاية اقليم فارس . وهو مركز يعود بالربح ، لذلك فالناس يطمحون اليه كثيراً . وامر الشيخ حسين ، على سبيل الاحتياط، بالقاء القبض على ابناء محمود شاه الثلاثة والزج بهم في السجن . ولكن بينما كانوا مارّين في شوارع شيراز يحيط بهم الحرّاس اسفرت امهم عن وجهها ، وقد كانت ترافقهم ، مستغيثة بالناس ومهيبة بهم ان يتذكروا افضال واليهم المتوفى ، والد الاولاد الثلاثة . وقد اثـّرت كلماتها في الناس لتوها ، فثار السكان وخلصوها واولادها ، ونفوا الشيخ حسيناً . غير انه ما لبث ان عاد على رأس جيش جهّزه ابو سعيد ، واجبر شيراز ان تستسلم الى حكمه . ولكن في سنة ١٣٣٥ ، اي بعد مضي عام او عامين على هذه الحوادث ، قضى ابو سعيد نحبه واندثرت قـــوة بني هولاكو . وتبع ذلك فترة من الفوضى لم تنته الا بعد ان استولى أويس ، احد احفاد هولاكو ، على العرش » .

يحسن بنا الآن ان نقطع هذه الرواية التاريخية لنقدّم وصفاً

---

١ — Gertrude Bell, Poems from the Divan of Hafiz (William Heinemann, 1928).

لشيراز كتبه حمد الله مستوفي سنة ١٣٤٠ ، قال : « في مدينة شيراز سبع عشرة محلة وتسعة ابواب هي باب اصطخر وباب دراك موسى وباب البيضا وباب كازرون وباب سلم وباب فسا ، ثم الباب الجديد ، وباب الدولة وباب السعادة . والمدينة جميلة جداً ، ولكن شوارعها مليئة بالاقذار لانهم يتبرزون فيها ويتعذر على اصحاب الفضل التردد في شوارعها . وهواؤها معتدل ، ويمكن ممارسة جميع انواع الحرف فيها ، ولا تخلو اسواقها في اغلب الاوقات من الرياحين النادرة الوجود . وقد مدّ الماء اليها في اقنية تحت الارض ، وخير هذه المياه هي التي تأتي في قناة ركن آباد التي بناها ركن الدولة ابن بويه . واكبرها قناة قلات بندر التي تشتهر باسم قناة سعدي ، وهي لا تحتاج ابداً الى اي ترميم . وفي الربيع يفيض سيل من المياه من جبل دراك ويمضي خارج المدينة ويتدفق في بحيرة ماهلويه . والمحاصيل هناك متوسطة العائدات واسعار المأكولات مرتفعة في اغلب الاوقات . ومن فواكهها نوع من العنب يعرف بالمثقالي هو في غاية الطيبة . وفيها اشجار السرو سريعة النمو ، واكثر رجالها ضامرون ، سمر الوجوه ، سنيّو المذهب شافعيون . وقليل منهم على مذهب ابي حنيفة او من الشيعة . وفيها سادات من اكابر الاشراف الذين يحفظون احاديث النبي ، ولذا يتمتعون بمنزلة عالية . واهلها من الصلحاء ، اصحاب الاعتقاد الطاهر ، يقنعون بالقليل ، وفيها كثير من الفقراء ولكنهم يأنفون من الاستجداء ويتكسبون . واكثر متموّليها من الاغراب ، وقلما يكون

واحد من اهلها غنياً . واكثر اهلها يسعون في عمل الخير وفي طاعة الله وعبادته ، وقد أصابوا حظاً كبيراً من التقوى ، ولا تخلـــو شيراز من الاولياء ، ولهذا السبب فهم يسمونها ببرج الاولياء ، ولكنها الآن بسبب الظلم والطمع في الرئاسة قـــد اصبحت حقاً مكمناً للاشقياء . اما واردات المدينة فتذهب الى بيت المال ، وهي تبلغ في يومنا هذا ٤٥٠,٠٠٠ دينار » .

اما ابن بطوطة ، الرحالة الاندلسي المغامر الذي ولد في طنجة في ٢٤ شباط (فبراير) سنة ١٣٠٤ ، فقد مرّ بشيراز مرتين وذلك اثناء رحلاته الواسعة في آسيا ، وقد وصف المدينة بقوله بانها « كثيرة العمارة متقنة المبـــاني عجيبة الترتيب » . ويضيف قائلاً : « واهل كل صناعة في سوقها لا يخالطهم غيرهم واهلها حسان الصور نظاف الملابس . وليس في المشرق بلدة تداني مدينة دمشق في حسن اسواقها وبساتينها وانهارها وحسن صور ساكنيها الّا شيراز . وهي في بسيط من الارض تحف بها البساتين من جميع الجهات وتشقها أنهار احدها النهر المعروف بركن آباد وهو عذب الماء شديد البرودة في الصيف سخن في الشتاء ... واهل شيراز اهل صلاح ودين وعفاف وخصوصاً نساؤها ... ومن غريب حالهن انهن يجتمعن لسماع الواعظ في كل يوم اثنين وخميس وجمعة بالجامع الاعظم . فربما اجتمع منهن الالف والالفان بايديهن المراوح يروّحن بها على انفسهن من شدة الحرّ . ولم ارَ اجتماع النساء في مثل عددهن في بلدة من البلاد...

وسلطان شيراز في عهـــد قدومي عليها الملك الفاضل ابو اسحاق... وهو من خيار السلاطين والسيرة والهيئة كريم النفس جميل الاخلاق متواضع صاحب قوة وملك كبير وعسكره ينيف على خمسين الفاً من الترك والاعاجم ... وهو لا يأتمن اهل شيراز على نفسه ولا يستخدمهم ولا يقرّبهم ولا يبيح لاحد منهم حمل السلاح لانهم اهل نجدة وبأس شديد وجرأة على الملوك. وقد جعل نفسه سيد شيراز ، كما جعل نفسه سيد اقليم فارس واصفهان وذلك بعد موت السلطان ابي سعيد ، عندما استولى كل امير على ما كان يملك ».

ويعطينا ابن بطوطة صورة طريفة للطريقة التي كان حاكم شيراز يعامل فيها رعاياه المتمردين. « وكان السلطان ابو اسحق طمح ذات مرة الى بناء ايوان كإيوان كسرى وامر اهل شيراز ان يتولوا حفر اساسه فاخذوا في ذلك. وكان اهل كل صناعة يباهون كل من عداهم. فانتهوا الى المباهاة الى ان صنعوا القفاف لنقل التراب من الجلد وكسوها ثياب الحرير المزركش وفعلوا نحو ذلك في برادع الدّواب واخراجها وصنع بعضهم الفؤوس من الفضة واوقدوا الشمع الكثير ، وكانوا حين الحفر يلبسون اجمل ثيابهم ويربطون فوط الحرير على اوساطهم والسلطان يشاهد افعالهم في منظرة له ... ولما بني اساسه رفع عن اهل المدينة التخديم فيه وصارت الفعلة تخدم فيه بالاجرة ».

ولنعد الآن الى وصف جرترود بل للاحداث التي تلت

وفاة الايلخان ابي سعيد واستيلاء اويس الجلائري على العراق (مع انه في الواقع كان ابوه حسن بزرك هو الذي اسس هذا البيت الحاكم سنة ١٣٣٦ ، ولم يخلفه اويس الا سنة ١٣٥٦) قالت : «حكم هو وابنه احمد بغداد حتى اخرج جيش تيمور الفاتح احمد منها . ولكن في اثناء سني الفوضى كانت سلطة سلطان بغداد محدودة الى حد بعيد . وبموت ابي سعيد استولى ابو اسحاق على شيراز واصفهان . وهو احد ابناء محمود شاه اينجو الثلاثة الذين نجوا من يدي الشيخ حسين. واخيراً استطاع ان يطرد عدوه القديم بينما نادى محمد بن مظفر بنفسه سيداً على يزد ، وكان قد ذاع صيته لشجاعته وهو في خدمة ابي سعيد . غير ان ابا اسحاق لم يصطد بماء صاف ، ففي سنة ١٣٤٠ حاصر شيراز احد الاتابكة المنافسين واخذها عنوة . واضطر ابن محمود شاه ان يرضى باصفهان ، ولكنه ما لبث ان عاد في السنة التالية ليستولي على شيراز خدعة وينصّب نفسه حاكماً على اقليم فارس كله . وقد شُغِلَ معظمَ السنين الباقية من عهده بالحملات العسكرية على يزد حيث كان محمد بن مظفر وابنه يبنيان قوة هائلة . وفي سنة ١٣٥٢ قرر محمد ان يضع حداً لهذه الهجمات ، فجرّد حملة على اقليم فارس وحاصر شيراز ، فما كان من ابي اسحاق ، الذي كانت حياته عبارة عن عربدة دائمة ، الا ان ضاعف انغماسه في الملذات في وجه هذا الخطر . وقد بلغ من عدم ثقته باخلاص اهل شيراز له ان عمد الى قتل جميع السكان في حيين من احياء المدينة ، وكان ينوي ان يقترف الجرم نفسه

بحي ثالث . غير ان هذه الاجراءات لم تؤد الى النتائج المرجوة ، فقد علم زعيم الحيّ المهدّد بنيّة الملك فسلم مفاتيح بابه الى الشاه شجاع بن محمد بن مظفر . وبعد مضيّ اربع سنين سُلـّم الى محمد ، فارسله هذا الى شيراز ، وبأسلوب جميـــل من اللباقة المصطنعة امر بقطع رأسه في ساحـة مكشوفة امام آثار برسبوليس ...

« منذ سنة ١٣٥٣ الى سنة ١٣٩٣ ، اي عندما فتح تيمور شيراز للمرة الثانية والاخيرة ، كان يحكم معظم اقليم فارس افراد من بني مظفـّر . ونادراً ما كانت تمرّ سنة واحدة لا تعكر صفوها حرب داخلية ، ونادراً ما كانت تمر سنة واحدة دون ان يُسحق احد ابناء محمد بن مظفر او احد احفاده ، او ان يعاني مساوىء اشد على ايدي اشقائه . وكان محمد اول من سقط . فقد قبض الشاه شجاع على ابيه بينما كان يتلو القرآن مع شاعر مـــن شعراء بلاطه وامر بسمل عينيه . وبعد انقضاء سنين قليلة انتهت الحياة الكالحة من جدران سجن قلعة سفيد . وكان محمد هذا رجلاً جهماً ، عديم الشفقة ، وكان شجاعاً في الحروب ، حكيماً في المجالس ، غيوراً في دينه ، ولكنه كان في غاية من الشدة والقساوة . وكان صديقاً غداراً وعدواً لا يلين . يروي المؤرخ الفارسي لطف الله انه كثيراً ما كان يرى المجرمين يؤتى بهم الى محمد ، بينما يكون الامير مستغرقاً في قراءة القرآن ، فيضع الكتاب جانباً ويستل سيفه ويقتل الجناة وهم

وقوف ، ثم يعود الى عبادته وكأن شيئاً لم يحدث . وقد سأل الشاه شجاع اباه مرة فيما اذا كان عدد من قتل بيده قد بلغ الالف ، فأجاب محمد ، لا ، ولكنني اظن ان عدد من قتلت قد بلغ ٨٠٠ » .

حكم الشاه شجاع المظفري على اقليم فارس من سنة ١٣٥٧ الى سنة ١٣٨٤ . وكان « رجلاً يشابه اباه نشاطاً . ولكن هذا النشاط كان موجهاً في سبل اخرى ، فالغيرة الدينية الشديدة التي كان يتصف بها الرجل العجوز قد تحولت عند ابنه الشاب الى عربدة جنونية . فهو عندما لا يكون منهمكاً في توجيه الحملات العسكرية ضد اخوته واولاد اخوته يكون في شيراز منغمساً بأشد انواع العربدة اباحة . ولم يكن ليقل كثيراً عن محمد قساوة . فقد امر في سورة من السكر بسمل عيني احد ابنائه . ولكنه ما لبث ان ندم على امره ذلك بعد تدخل وزيره ، فأرسل لتوه رسولاً وراءه ، ولكن كان قد قضي الامر فلم ينج الصبي . دقت ساعة بني مظفر قبل موت الشاه شجاع . فقد اخذ تيمورلنك وقبائله يتقدمون من شمالي بلاد فارس . وفي سنة ١٣٨٢ ارسل الشاه شجاع مستعطفاً وفداً يحمل الهدايا — من الجواهر والحرائر والخيل ، كما ارسل له اريكة من الارجوان وعلماً ملكياً ، وشمسية صينية ، فأرسل تيمور للملك خلعة ونطاقاً مرصّعاً بالجواهر .

« عمل الشاه شجاع كل ما بوسعه ليضمن الخير لعائلته قبل

موته ، على الرغم من انه كانت قد انهكته الحياة المضطربة قبل وقته . فكتب الى كل من تيمور والسلطان احمد سلطان بغداد يضع ابنه زين العابدين واخوته وابناء اخوته تحت حمايتهما. واذا أزحنا الستار قليلاً عن سرير موت الملك ، بدا لنا مشهد من النوع الذي يستأثر باهتمام المؤرخين الشرقيين ، وهو مشهد لوجه الملك الجسور المرعب الذي دنت نهايته . فعندما سمع بأن اخاه احمد يعدّ العدة لمنازعة زين العابدين العرش ، ارسل يستدعيه بغية اقناعه بالكف عن مطالبته تلك . ولكن ما ان دخل احمد الغرفة التي كان يرقد فيها الشاه شجاع على فراش الموت ، حتى اجهش الاخوانِ بالبكاء ، واستبدت العاطفة بأحمد الى درجة انه اضطر الى ان يتنازل ، وعلى اثر ذلك ارسل له الشاه شجاع كتاباً مع خادم امين ، يقول فيه : « ان الدنيا تشبه ظل سحابة او حلماً في الليل . فالاول لا يستقر له قرار ، وعندما يفيق الحالم لا يبقى له الا ذكرى باطلة لذلك الحلم . اني ارى كثيراً من الاضطراب في شيراز ، وكرمان موطن آبائنا ، ولم اشكُ منك شيئاً ، ولكنني الآن على وشك الرحيل الى غير رجعة ، فاذا كنت باذراً للشقاق فلست وحدي بمحاسبك ، بل الله ايضاً ، وسيفرح اعداؤنا بذلك . فاذهب اذن الى كرمان وتخلّ عن هذه المدينة الشقية » . وذهب احمد .

« مات احمد وسط مظاهر التعبد والتقوى ، فقد بقي عشرة من رجال الدين معه على الدوام يتلون له القرآن ويختمونه كل

يوم . وقد خلف اسماً مشهوراً بالشجاعة والتحرر . وكان شاعراً ، على طريقة الملوك ، يحفظ القرآن منذ طفولته عن ظهر قلب . ومع انه قضى آخر ساعات عمره في تأمين مستقبل ابنه فان هذا الاخير لم يكن ليبقى طويلاً على العرش الذي أورثه اياه ابوه . ذلك انه انشغـــل عن ذلك ، طوال عهده القصير بالدفاع عن نفسه ضد غارات منصور ابن عمه . واضطر في سنة ١٣٨٨ الى الهرب من وجه عدو اخطر من اي عدو عرفه . فقد اجتاح تيمور ، الذي كان لسنين عديدة يحوم حول حدود اقليم فارس ، اجتاح بلاد فارس الجنوبية واستولى على شيراز ، فالتجأ زين العابدين الى منصور فكافأه هذا على ثقته به بان سجنه وسمل عينيه . ثم وهب تيمور شيراز ردحاً من الزمن الى الشاه يحيي احد اعمام منصور وحاكم يزد . ولكن ما ان استدعي جيش التتار الى شمال الامبراطورية ، بسبب بعض الاضطرابات ، حتى اطاح منصور بعمه واستولى على شيراز . وفي سنة ١٣٩٣ سار تيمور بـ ٣٠٠٠٠ من رجاله المختارين الى منصور . فحمل المظفريون بثلاثة آلاف او اربعة آلاف رجل على قلب الجيش التتاري مرتين، وتعرضت في احدى هذه المرات حياة تيمور نفسه الى الخطر . وقد ارسل منصور ، الذي خاض المعركة بنفسه ، رسولاً الى جناحي جيشه يأمرهما بمسانـــدة هجومه اليائس ، ولكن احداً لم يطع امره، فسقط وهو يقاتل ، تحت ضربات سيف الشاه رخ ميرزا ، ابن تيمور ، تاركاً الفاتح يتقدم منتصراً نحو برسبوليس . ان الشجاعة صفة لا تنقص من

هم من سلالة محمد بن مظفر ، بيد ان منصوراً كان جندياً من اولئك الجنود ، يمتاز عليهم ، على ما يبدو ، بجلده الذي لا يعرف الكلل ، وكان الى ذلك ، على غرار افراد عائلته الآخرين ، نصيراً للعلم . يُروى انه كان يوزع ٢٠٠ تومان يومياً على علماء شيراز الفقراء . وقد ايقن تيمور انه لن تستقر له حال طالما هنالك فرد من بني مظفّر على قيد الحياة ، وذلك بسبب شعبيتهم وشجاعتهم . فأعمل ببني منصور السيف » .

انتهى ، بنهاية بني مظفّر ، عصر الرونق الملكي الثاني في شيراز . وتحول اقليم فارس الى مقاطعة مهملة في الامبراطورية التيمورية ، وكانت لا تزال على هذه الحال عندما استولى الصفويون على بلاد فارس اجمع . ولنعد الآن الى بعثة السير دادمور كتون والى وصف هربرت لمشاهداته في شيراز . فقد عاد نجم المدينة الى الصعود في عهد الامام قولي خان (وهو الذي دعاه هربرت باسم (امانغولي – كاون ، الامير الكبير) ، وكان الحاكم العام لاقليم فارس من قبل الشاه عباس . « لقد عمل كثيراً على تجميل شيراز ، مقلداً في ذلك ما فعله سيده في اصفهان ، وقد بنى الاسوار وغرس اشجار السرو على الجانبين لمسافة بعيدة على الطريق المؤدية الى اصفهان مضفياً على المدينة من جهة الشرق ما يليق بها من منظر ، كذلك نصب السرادقات بين مسافة واخرى على غرار تشاهرباغ الشهير الذي بناه الشاه عباس في اصفهان . كما انه بنى في الميدان الكبير قصراً فخماً .

وفي سنة ١٦١٥ بنى الكلية المعروفة بمدرسة خان ، ولم يبق منهـــا اليوم الا بهو مثمن الشكل يمتاز بالفسيفساء والقيشاني البديع » .

وقد لخص لورنس لوكهارت في كتابه «المدن الفارسية» Persian Cities بقية تاريخ شيراز فقال : «اتفق ان هطلت الامطار بغزارة في سنتي ١٦٣٠ و ١٦٦٨ . وصادف ذلك وقت ذوبان الثلوج على الجبال ، بما سبب فيضاناً عارماً تضررت منه المدينة ضرراً شديداً ، خاصة في المرة الثانية ، اذ تبع فيضان سنة ١٦٦٨ وباء جعل المدينة في حالة يرثى لها . وكانت شيراز قد ابلت من هذه الكارثة الثانية الى حد بعيد، يوم كان الرحالة الانجليزي الدكتور فراير هناك سنة ١٦٧٦. وقد قال : «عندما ندخل الى اسواقها الغنية او بزاراتها ، وهي كناية عن ابنية مستطيلة الشكل ترتكز على صفوف من الاعمدة الكبيرة المسقوفة ، التي لا يحصى لهـــا عد ، وكلها ضخمة مدهشة ، مليئة بالبضاعة الثمينة ، وبالقصور الفخمة التي تؤوي الخان وبقية الاشراف ، وبالممرات والبساتين الجميلة ، وبالمدارس والمساجد ، والقبور ومجاري المياه، لا بدّ من ان نأسف للخسائر ، التي بالغ في وصفها المؤرخون ولكننا نكون بذلك قد ظلمنا الترميمات القيمة التي ، على ما اعلم ، تفوق في قيمتها على الاصل / ومما يزيد في قيمة المدينة ان الفرس يعتبرونها مدينة مقدسة ، ولذلك فقد وقفت لها المدارس والزوايا والمنح لطلاب العلم . هذا ولا احد يفوق هؤلاء المنشدين

الذين يرتلون (وذلك للانسجام في التآلف الصوتي عندما ينشدون من مآذن مساجدهم العـــالية في الساعات المحددة للصلاة) . وهكذا فهي تفخر بانها مدينة جامعة، وهي لتستحق هذا الاسم لما يحتشد فيها من العلماء الذين يأتون الى هنا لتلقي العلم » .

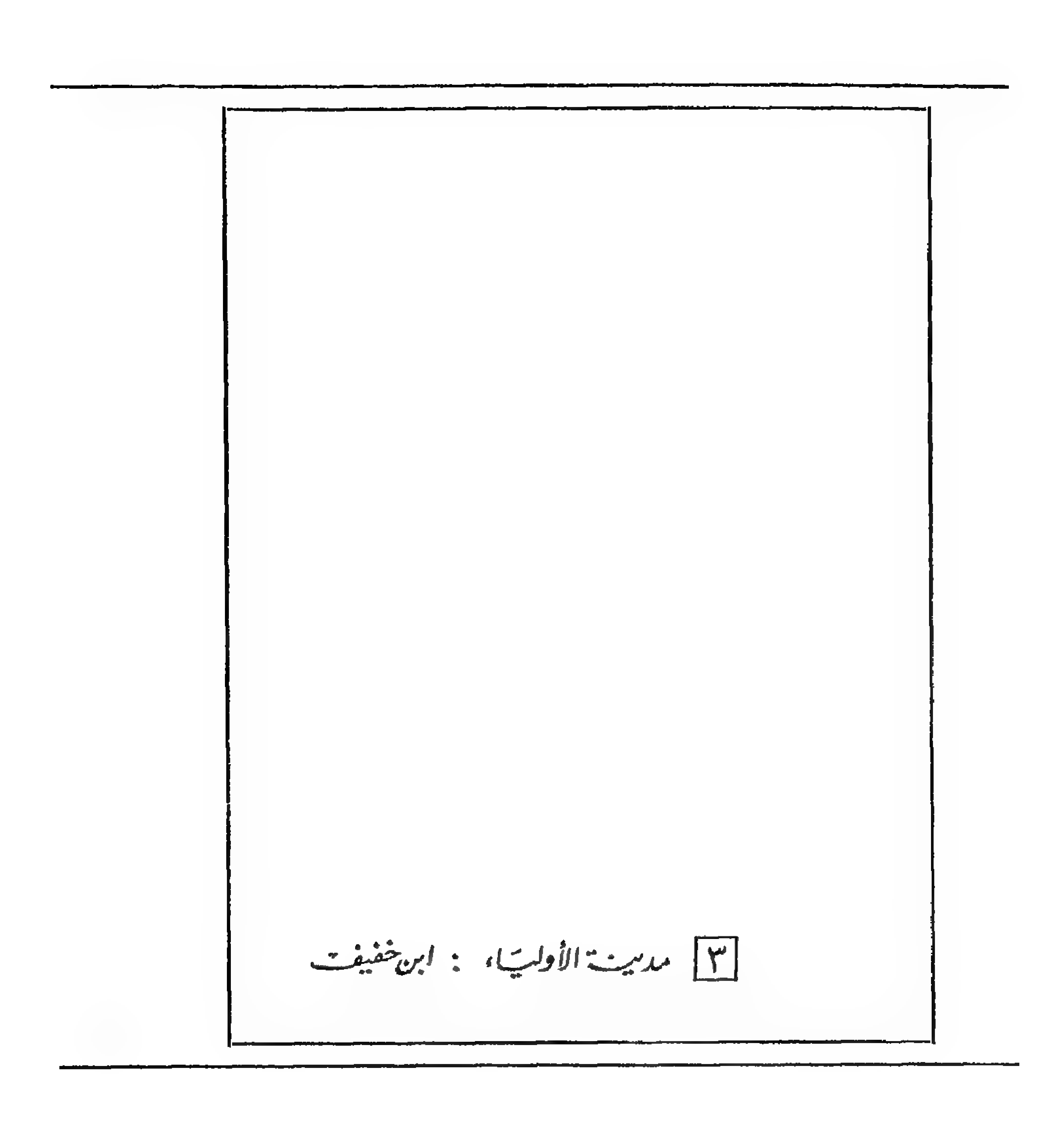
« وفي سنة ١٧٢٤ جرّد الافغانيون الغازائيون قوة للاستيلاء على شيراز، وكانوا قد استولوا قبلاً على اصفهان وحكموا معظم بلاد فارس . غير ان هذه القوة صدّت وُقتل قائـــدها . ثم حاصرت المدينة قوة افغانية تفوق الاولى عدداً واستولت عليها بعد ان مات كثير من السكان جوعاً . وفي سنة ١٧٢٩ وردت الاخبار تقول ان نادر قولي بك ، الذي اصبح فيما بعد نادر شاه ، طرد الافغانيين من اصفهان ، فثار الشيرازيون ولكن الحامية الافغانية اخضعتهم وقتلت منهم الكثير وانزلت بالمـــدينة وبيساتينها خسائر فادحة . غير ان نادر قولي بك هزم الافغانيين في كانون الاول (ديسمبر) سنة ١٧٢٩، وذلك في معركة جرت قرب شيراز التي سقطت بعد ذلك في يديه . فاعاد النظام والامن ، واصلح الاضرار التي انزلت بالمدينة وغرس البساتين . ولكن تقي خان شيرازي ، حاكم شيراز ، قاده طموحه ، اسوء الحظ، الى التمرد على نادر شاه ونصب نفسه حاكماً مستقلاً على شيراز . فارسل نادر الجيوش في الحال لاخماد نار الثورة ، وسقطت المدينة في يديه بعد حصار دام اربعة اشهر ونصف ، ثم اعمل

الجنود في شيراز السلب فنهبوا كل بيت وقتلوا كثيراً من الاهالي، وبنوا برجين كالحين من الرؤوس البشرية . اما البساتين فأعمل فيها الدمار مجدداً . وعمّ الطاعون ، مبالغة في الهول ، مجتاحاً لا اقل من ١٤٠٠٠ نسمة . وقد قاست هذه المدينة البائسة الاهوال مرة اخرى وذلك في الفترة المضطربة التي تلت اغتيال نادر شاه سنة ١٧٤٧ » .

وفي عهد كريم خان زند اصبحت شيراز عاصمة بلاد فارس، فعمرت الى حد كبير . وعند موته سنة ١٧٧٩ كانت المدينة قد استعادت كثيراً من مجدها السابق. «وبعد خمس عشرة سنة امر آغا محمد شاه ، مؤسس العائلة القاجارية وعدو بني زند اللدود، بنبش جثة كريم ، واعاد دفنها مع بقايا نادر شاه تحت عتبة قصره في طهران لكي يتشفى بالدوس على تراب عدوّي اسرته اللدودين » . واتخذ الملك القاجاري طهران عاصمة له بدلاً من شيراز ، فعادت هذه مرةّ اخرى الى التأخر ، حتى انه لما زارها جيمس موربيه في سنة ١٨١١ وجد سكانها لا يزيدون عن ١٩٠٠٠ .

واليوم بعــــد ان نالتها صروف الدهر الكثيرة هذه ، وبعد ان نالهـــا العديد غيرها مما حدث بعد وقائع هذه اللمحة الوجيزة ، تعود شيراز مدينة كبيرة مزدهرة . فسكانها يبلغون حوالي ١٣٠٠٠٠ . وقد حصلت مؤخراً على جامعة

خاصة بها ، وبفضل سخاء اقاي نمازي الذي اثرى في الولايات المتحدة ، وهو احد ابناء شيراز ، جُلب اليها الماء على الطريقة الحديثة ، كما بني فيها مستشفى حسن مجهّز خير تجهيز .


٣ مدينة الأولياء : ابن خفيف

ان الفرس يعتقـــدون ان تاريخ مدينة ما لا يقوم على الابنية الضخمة والآثار العظيمة ، ولا يقوم حتى على المآثر السياسية والعسكرية التي مرت بها هذه المدينة ، بل على الرجال المشهورين الذين انجبتهم ، والذين قضوا حياتهم في خدمتها ، وترقد الآن فيها بقاياهم . لما وضع ابن الخطيب كتابه « تاريخ بغداد » وابو نعيم كتابه « تاريخ اصفهان » وابن عساكر كتابه « تاريخ دمشق » ، وابن زركوب كتابـــه « تاريخ شيراز » ، خصّص قسم كبير من هذه الكتب لترجمات ابناء تلك المدن العظماء . وسنقتفي نحن آثارهم ، فنصوّر هنا الدور الذي قامت به شيراز في حضارة بلاد فارس والاسلام والعالم ، وسنهتمّ لذلك بحياة حفنة صغيرة من الشيرازيين النابغين وأعمالهم . نقول حفنة صغيرة لان الاختيار من بين الاسماء التي بين ايدينا امر خطير ، فكتابا ابن زركوب وابن جنيد يزودانا بدليل مفصل للقبور والمشاهد في مدينتها . فلنؤد اذن فريضة الحج الى «وادي الصمت » في شيراز .

كنا قد وقفنا بمشهد احمد بن موسى ، اخي الامام الشيعي

علي الرضى ، وقد قتل سنة ٨٣٥ . وهو مشهد لا يزال الناس ينظرون اليه بعين التقديس ، وهو ، والحق يقال ، جدير بكل تقديس ، فقبّته، التي على شكل رأس البصل ، بناها سنة ١٨٢٣ حسين علي ميرزا ، حاكم شيراز ، بدلاً من القبة المكسورة التي كان قـــد بناها في القرن الثالث عشر احد الامراء السابقين . ويحدثنا ابن بطوطة ، الذي مرّ بهذه الطريق منذ ستمائة سنة ، عن المدارس الكبيرة التي ألحقتها بالمقام طاش خاتون ام السلطان ابي اسحاق اينجو ، وعن الزاوية حيث كان يوزع الطعام مجاناً على كل من هو بحاجة الى المؤاساة . كان القراء يقرأون القرآن على التربة دائماً . وكان من عادة الخاتون ان تأتي الى هذا المشهد في كل ليلة اثنين ويجتمع في تلك الليلة القضاة والفقهاء والشرفاء . فاذا حضر القوم في المشهد ختموا القرآن قراءة وأُتي بالطعام . ويكون ذلك كله من بعد صلاة الظهر الى العشي وطاش خاتون في غرفة مطلة على المسجد لها شباك . ثم تضرب الطبول والانفار والابواق على باب التربة « كما يفعل عند ابواب الملوك » .

ولنقف الآن ، بعد مثال ابن بطوطة الرائع ، بمشهد « الامام القطب الولي ابي عبدالله بن خفيف المعروف عندهم بالشيخ، وهو قدوة بلاد فارس كلها ومشهده معظم عندهم ، يأتون اليه بكرة وعشياً فيتمسحون به ... وتأتي الخاتون الى هذا المسجد كل ليلة جمعة ، وهناك زاوية ومدرسة يجتمـــع فيها القضاة والفقهاء ويفعلون كفعلهم في مشهد احمد بن موسى » . ويحدثنا حمد الله

مستوفي ان الأتابك زنكي بن مودود اعاد بنفسه بناء المشهد ووقف عليه الوقوفات كما تبرع حفيده ابو بكر بن سعد بصحن المشهد .

من هو هذا الولي الكبير، الذي يذكره الناس بهذا التبجيل، حتى ان الملوك والامراء يتنافسون لتكريمه ، وذلك بعد موته بزمن طويل . لحسن الحظ تحدّرت الينا ترجمة حياته وقد كتبت في الاصل باللغة العربية ، كتبها تلميذه ابو الحسن الديلمي ، وترجمها الى الفارسية ابن جنيد الشيرازي ، وحققتها مؤخراً خانم آنا – ماريا شيمل تاري (انقره ، ١٩٥٥) تحقيقاً متقناً يستحق كل تقدير . ولكن قبل ان نبدأ بسرد تفاصيل حياته لنطلع باختصار على ما قاله فيه الهجويري الغزنوي الذي مات حوالي سنة ١٠٧٥ ، وهو اول فارسي كتب تاريخاً للتصوف الاسلامي . فهو يدعوه «احد اعيان المتصوفة في وقته» ومؤلف الرسائل المشهورة في موضوعات مختلفة من علم التصوف . كان رجلاً ذا تأثير روحي كبير ، لا تقوده شهواته . وقد سمعت انه كتب صداقه على اربعمائة امرأة . فقد كان من سلالة الملوك، وبعد توبته اخذ اهل شيراز بالتودد اليه كثيراً وودّت بنات الملوك والاشراف ان يتزوج بهن ابتغاء البركة . وكان ينزل عند طلبهنّ ثم يطلقهنّ دون ان يدخل عليهنّ . وفي غضون حياته كانت اربعون زوجة من الغريبات عنده ، يخدمنه في بيته كل اثنتين او ثلاث سوياً . وقد عاشت معه احدى اولئك النساء

– وكانت ابنة وزير – اربعين سنة . سمعت من ابي الحسن علي ابن بقران الشيرازي ان بعض نسائه اجتمعن ذات يوم، واخذت كل منهن تروي قصتها معه . واتفقن جميعاً على انهن لم يرينه مرة يستسلم لشهواته . وكانت تظن كل منهن ، الى تلك اللحظة ، انها الوحيدة التي يعاملها بهذه الطريقة . وعندما علمن ان الشيخ يعاملهن جميعهن كذلك تعجبن وشككن بصحة ذلك ، ثم انهن ارسلن اثنتين منهن تسألان ابنة الوزير، وكان يؤثرها على غيرها، عن معاملته اياها . فأجابت : عندما تزوّج بي الشيخ ، قيل لي بأنه سيزورني في تلك الليلة ، فأعددت وليمة حسنة ووضعت كامل زينتي . فلما أتى ، وأُحضِر الطعام ، دعاني اليه ونظر برهة الى وجهي اولاً ، ثم الى الطعام ، ثم اخذ يدي وأدخلها في كمه ، فوجدت ، من صدره الى صرّته ، خمس عشرة عقدة قد نتأت من بطنه . فقال : سليني ما هذه ، فسألته ، فقال : انها عُقَدٌ صنعتها المحنة والشدة لامتناعي وتعففي عن وجه كهذا الوجه وطعام كهذا الطعام ، ولم يقل اكثر من ذلك وانصرف . هذا كل الفتى معه » .

تلك هي القصة ، او بالحري قسم صغير منها . وجدير هنا بالملاحظة ان اسطورة الغوتاما – بوذا التي تدور حول الامير الذي اصبح زاهداً والتي دخلت الى التاريخ الاسلامي في حكاية ابراهيم بن ادهم ، « امير بلخ » ، قد تردّدت في حكاية ابن خفيف الشيرازي . ما هي وقائع هذه القصة ؟ يحدثنا تلميذه ان

والد ابن خفيف كان ضابطاً في جيش عمرو بن ليث ، ثاني امراء بني الصفّار ، وكان ديلمياً كسيده ، ولد في قلشام من اعمال جيلان . وبعد ان التحق بخدمة الصفّاري في نيشابور ، تزوج بابنة احد اتباع الطريقة الكرّامية الصوفية . وقد رافق عمرو ابن ليث عندما زحف هذا الاخير على شيراز ، وكانت زوجه آنذاك حاملاً . وولد ابن خفيف في شيراز وذلك سنة ٨٨٢ . وكان جد ابن خفيف يسمّى اسفكشاد وهو اسم غير اسلامي يدل على ان هذا الرجل لم يكن ، على الارجح مسلماً ، وليس من المستبعد ، على عادة كثير من الفرس من مقاطعته في ذلك الوقت ، ان يدّعي انه من سلالة ملكية . وان صح هذا كان اساساً للقصة التي تقول بأن ابن خفيف يعود بنسبه الى عائلة نبيلة . هذا وتعتبر امه وليّة من الأولياء . بينما عرف عن ابيه التقوى مع وجود رواية تقول انه كان يحب الخمر .

على الرغم من ان والد ابن خفيف كان قائداً عسكرياً ، وعلى الرغم من نسبه الملكي ، ان صحت الرواية ، روى لنا ابن خفيف انه امضى طفولته في احوال معسرة. وقد قضى حياته، منذ نعومة اظفاره ، مسلماً تقياً ، ولا شك في انه كان في ذلك يسير على خطى والدته . ويذكر ابن خفيف قائلاً : «عند طلوع الفجر ، كنت اقوم بفريضة الصلاة ، ثم اشتغل بقراءة القرآن حتى تميل الشمس عن وسط السماء ، فأصلي صلاة الظهر ، ثم اشتغل بصناعة الصناديق ، وهي التجارة الوحيدة التي اعرفها ،

وعند الظهر كنت اكف عن العمل واصلي مرة ثانية ثم اقضي طوال بعد الظهر في صلاة التراويح الى ان تحين صلاة المغرب ، حتى اذا اديتها اذهب لاسمع احاديث النبي الى وقت اداء صلاة العشاء ثم اتبعها بالذكر حتى تحين ساعة صلاة النوم ، فأعود الى بيتي وافطر ، وانسخ اربعين حديثاً شريفاً وانام ساعة من الليل ثم انهض واصلي حتى الفجر » .

وفي رواية اخرى له ، يصف لنا فقره وتقواه في تلك السنين المبكرة ، فيقول : « ذهبت يوماً الى المسجد لأصلي ، وكان الثلج قد تساقط كثيفاً ، فالتقيت على الطريق بشيخ كنت اسمع منه الاحاديث ، واخذ يحدثني . وكنت حافياً ولكنه لم يلاحظ ذلك . واخذ بالحديث حتى اذن المؤذّن اذان العصر ، فلما انتهى هممت بالذهاب ، ولكن ما ان رفعت قدمي حتى انسلخ الجلد وبقي في الثلج . فلما رأى الشيخ حالتي اصابه غم شديد ، فخففت عنه وطمأنته بأن لا شيء يدعو الى القلق . ثم ذهبت الى المسجد وأديت صلاة العصر . واخذ الألم الشديد يبرّح بي ، وظهر القيح على قدمي حتى كدت لا استطيع احتمال الالم . وقاسيت كثيراً الى ان وصلت الى البيت ، واخبرت امي بما حدث ، وقد علا انيني في تلك الليلة الى درجة ان الجيران قلقوا وخشوا وقوع ما لا تحمد عقباه فأتوا الى البيت مستفسرين امي عما حدث فأخبرتهم بكل شيء . فقالوا ان دواء ذلك هو نخاع الثور ، واعطوها قطعة من نخاع ثور قائلين : ذوّبيها على النار

وادهني قدمه بها ، ولم يكن في البيت حطب يكفي لتذويب حتى هذه القطعة من النخاع ، فكسَرْتُ صحناً قديماً كان في البيت وأوقدنا النار ، وغلينا نخاع الثور ودهنا به قدمي ، ودام الالم اربعين يوماً لم استطع فيها ان اقف على قدمي » .

تتضمن هذه الرواية نقطة اخرى جديرة بالاهتمام ، هي اشتغاله بصناعة الصناديق ، فقد كان شائعاً بين المسلمين الاتقياء ان يمتنعوا عن اي نوع من العمل من شأنه ان يقودهم الى مخالفة شرائع الاسلام مهما كانت هذه المخالفة طفيفة . فقد كان تقاضي المال لقاء تعليم القرآن والحديث يعتبر ذنباً ، فمثل هذه الاعمال يجب ان يقوم بها المرء لوجه الله. لذلك ترى ان كثيراً من الاولياء والمتصوفين المشهورين كانوا يحملون القاباً تدل على حرفة يزاولونها . فمنهم النجار والحائك والغزال والاسكافي والقصاب . وكانت مزاولتهم لهذه الحرف تدل على مصدر رزقهم الطفيف ، فقد كان السؤال يعدّ في ذلك العصر الذهبي للاسلام عملاً مشيناً. ويحدثنا ابن خفيف انه حاول عدداً من هذه الحرف المتواضعة الى ان استقر في حرفة صناعة الصناديق ، لكونها اقل هذه الحرف عيباً واكثرها ملاءمة لبنيته الضعيفة التي اوهنها نكران الذات . وكان يربح من حرفته تلك مقدار حبتين من الذهب يومياً ، يمتاش منها ويعول امه . وقد اعلن مرة ببساطة : « عندما كنت لا ازال طفلاً سدت على جميع الشيوخ واصبحت رئيساً على رفاقي كلهم ، وهذا من فضل الله الذي يعطي من

يشاء » . ويحدثنا عن الكتاب الاول الذي وضعه بأنه يحمل اسماً مناسباً هو « شرف الفقر » وقد ألفه وهو بعد في سن الشباب . وقد سرقه منه احد اصدقائه وأراه الشيوخ فتعجبوا من نضجه، ولولا ذلك لاحتفظ به مستوراً . اما الكتاب فمفقود الآن . والمرجح انه كتبه بالعربية ، فقد كانت في عصر ابن خفيف لغة التأليف في انحاء العالم الاسلامي كافة ولم تبدأ نهضة اللغة الفارسية كلغة ادبية الا في القرن العاشر .

درس ابن خفيف القرآن والحديث والشريعة على خير الفقهاء الثقاة الموجودين في شيراز . ثم بـــدأ استطلاعاته ، كالالوف من المسلمين الاتقياء في العصور الوسطى ، بحثاً عن المزيد من المعرفة . وقد ادى فريضة الحج لاول مرة ، كما يقول لنا ، عندما بلغ سن الرشد . اما روايته للظروف التي ادت الى رحلته تلك فهي جديرة بالتقدير . يقول : « كان لي جار حائك ، وكان كثير التعلق بي ، وقد دعاني يوماً الى الطعام وقدّم لي قطعة من اللحم المجَفّف مطبوخة بفتّة من الحليب وما ان مددت يدي الى قطعة اللحم حتى وجدتها منتنة، فاعدت يدي الى كمي . ولم يدر صاحبي بان قطعة اللحم كانت منتنة فاشار الي بتناولها ، فتناولتها ثانية مرضاة له ووضعت لقمة منها في فمي فلم اقدر على مضغها . وفطن الحائك الى الامر وقام خجلاً مني وانصرف فخرجت ايضاً وقررت في الحين ان احج الى مكة . ثم اني ارسلت شخصاً يخبر امي بعزمي على ذلك ويطلب اليها ، اذا ارادت ان

تودعني ، ان تأتي الى احد ابواب المدينة وتجلب معها خرقتي ، فأتت وجلبت معها الخرقـــة وودعتني وانصرفت . وعندما وصلت الى بغداد كنت على عجل فلم ادخل المدينة ، والتقيت في الكوفة بجماعة من خراسان كانوا في طريقهم الى مكة ايضاً . فدعوني لمرافقتهم، فقبلت مرضاة لهم ولم انتظر القافلة، وسافرت معهم في الصحراء . غير اننا اضعنا طريقنا وتهنا لبضعة ايام حتى نفدت المؤونة والماء . ووقعنا على قبيلة من البدو ورجوناهم ان يطعمونا شيئاً فلم يستجيبوا لنـــا واخذ منا الجوع مأخذاً . فاشترى بعض الرفاق كلباً ببضعة دنانير وقتلوه وشووه واعطوني قطعة منه . حينئذ تذكرت الحائك وقطعة اللحم المنتنة ، وعلمت ان ما اقاسيه انما هو قصاص لي على تصرفي في ذلك الوقت » .

كذلك كانت حجته الثالثة الى مكة مصحوبة بكثير من المصاعب : « لقد تهت اياماً عديدة في الصحراء واشتد بي الجوع والعطش حتى سقطت مني ثمان من اسناني » . وفي المرة الرابعة صحبته امه . وبلغ مجموع رحلاته البعيدة الشاقة التي قام بها الى مكة ستاً على الاقل . وقد دخـــل في طريقه مدناً كثيرة وتحدث مع الكثير من الفقهاء والاتقياء . ويروي ابن بطوطة قصة عن ترويض ابن خفيف فيلاً وحشياً في جزيرة سيلان ، غير ان القصة لا شك ملفقة ، ويروي آخرون قصصاً عن زيارته مصر وآسيا الصغرى ، كما يحدثنا السلمي ، وهو من

الكتّاب القدامى ، عن اجتماعين لابن خفيف مع البراهمة . وهنالك لوائح طويلة تضم اسماء بعض الاولياء والفقهاء الذين اجتمعوا في مكة والمدينة وبغـــداد وشيراز نفسها ، وهي استنتاجات لا اكثر ، رواها ابن جنيد في ترجمته الفارسية للديلمي .

ان نظرة خاطفة الى المرحلة التي بلغتها الحركة الصوفية في الاسلام في عهد ابن خفيف تلقي ضوءاً على سيرته . فقد كانت نزعة الرضى والزهد وطيدة في العقيدة الجديدة منذ البدء . وزاد هذه النزعة قوة كونها رد فعل للترف والفساد المتفشيين بين الطبقة العليا . وقد كان الترف والفساد هذان نتيجة للفتوحات الواسعة والتوصل المفاجىء لما يفوق التصور من الغنى والسلطة . فقد كان بعضهم امثال الحسن البصري (توفي سنة ٧٢٨) وابن المبارك من مرو (توفي سنة ٧٩٧) يسرهم الامتثال بسنة النبي وآثار الصحابة الاول فيقضون حياتهم بالتقشف المقدس والشعور الدائم بقوة الله العظيمة وغضبه الذي سيحل . ولم يلبث هذا الورع الذي كان يغذيه الاتصال بالنساك المسيحيين المنبثين في الصحارى والجبال ، ان اقترن بنزعة صوفية اخذت تنمو نمواً بطيئاً . وكانت تقوم ، جزئياً على الاقل ، على خبرة اصيلة من خبرات النشوة والاستغراق . فهذه خراسان ، في اقصى الامبراطورية الاسلامية حيث كانت البوذية متأصلة راسخة الى ان جاء الفتح العربي ، اخذت تنجب الآن مجموعة ممتازة من

الاولياء والمتصوفين من ابراهيم بن ادهم الى ابي يزيد البسطامي الممتلىء حماسة (توفي سنة ٨٧٥) والذي ما لبث ان اخذ التشبه به وترديد اقواله في كل مكان يؤثران على قلب البلاد الاسلامية . فها هو يهتف بعد ان استبدت به حال نقلته الى شعور بالاتحاد مع الله : « سبحاني سبحاني ما اعظم سلطاني » . كذلك استطاع ذو النون (توفي سنة ٨٦١) الذي وقع على الارجح تحت تأثير التعاليم الغنوصية والهرمزية ، ان يخاطب الله : « الهي ! ما اصغيت الى صوت حيوان ، ولا الى حفيف شجر ، ولا خرير ماء ، ولا ترنم طائر ، ولا دويّ ريح ، ولا قعقعة رعد ، الا وجدتها شاهدة بوحدانيتك ، دالّةً على انه ليس كمثلك شيء » .

كان المحاسبي اول مؤلف للحركة الصوفية ذي شأن . ولد في البصرة عام ٧٨١ ، وقضى معظم عمره في بغداد ، وفيها مات عام ٨٣٧ . وكان مؤلّفه اول محاولة للبرهنة على صحة التصوف الزهدي . وقد عاصر البخاري واحمد بن حنبل وغيرهما ممن وضعوا اساس علم الكلام والشرع وذلك بتصنيفهم الاحاديث النبوية وفق تنظيم معين . وقد سعى لان يضفي على هذه الاصول الفقهية الجافة التي الفها هؤلاء مسحة من الدين الشخصي والعلاقة المباشرة مع الله . واخـــذ الناس ينسخون مؤلفاته بحمية ، ويدرسونها ، ولم يتوان الغزالي نفسه (توفي سنة ١١١١) من تقليدها او حتى نقلها . وفي العصر التالي « طغى فيض من الاسئلة والاجوبة والكتب والرسائل » بعد ان استطلع المؤلفون

المعاني الباطنة واخذ القراء يتقبلونها». وكان من بين الذين كتبوا في هذه الموضوعات خرّاز البغدادي (توفي سنة ٨٩٩) وهو القائل عن المتصوف المتجه الى الله : «ان قلبه يدرك سريعاً ، فتصفو افكاره ويستقر النور في قلبه ، يتقرب الى الله والله يهيمن على قلبه ومقاصده ، فيتكلم ، وحب الله كامن في قلبه ، ملتصق بفعله لا يبرحه ابداً» . وكان الجنيد البغدادي ، الذي مات سنة ٩١٠ ، صاحب اقوى عقل من بين المتصوفة المتقدمين ، وقـــد عرف ابن خفيف تلاميذه معرفة جيدة ، ولكن من المستبعد ان يكون قد التقى بـــه شخصياً كما يدّعي بعض المؤرخين . والجنيد هو الذي وضع ، ضمن اطار التعاليم القرآنية ، النظرية التي عززتها فيما بعد اختبارات البسطامي وامثاله ، ومؤداها ان الصوفي ، حين يبلغ الذروة في الاجواء التي يحلق فيها ، يتحرر من صفاته الانسانية ويفنى في الله ، ويعود بذلك الى «الحالة التي كان فيها من قبل ان يكون» .

كان من جملة الذين لقيهم ابن خفيف وهو في مكة متصوفون مشهورون امثال ابي علي الروذباري وابي بكر القطاني وابي الحسين الدرّاج وابي يعقوب النهرجوري . وترينا الاحاديث التي كانت تدور ، في تلك الايام الموقوفة على العبادة ، حول القضايا العميقة التي تتعلق في الدين والاختبار الشخصي ، ترينا كيف كان المتصوفون في حالة من الارتياح اكثر من اي وقت آخر . فقد عقدوا ذات مرة مجلساً لهم ، وكان من بين الحاضرين درويش

من خراسان لم يكن قد رآه الروذباري من قبل، وكان الروذباري على عادة المتصوفة يصب الماء على ايدي الاخوان ويبدي بعض الملاحظات البريئة . فلما وصل الى الدرويش الخراساني اخــذ يمازحه ، بنفس الروح . غير ان الرجل استاء من هذا المزاح وتناول ابريق الماء وضرب به رأس الروذباري ، فسال الدم . فاستأذنه مريدوه بضرب هذا المعتدي ولكن سيدهم ناشدهم الا يصيبوا الدرويش بسوء. فأظهر هذا الاخير خجله من تصرفه هذا الخشن . فما كان من الروذباري الا ان واساه قائلاً : « يا اخي طب نفساً فقد كنت بحاجة لأن اخسر بعض الدم لاني محموم ، وقد كفيتني مؤونة الذهاب الى الحجام » . وفي مكة لقي ابن خفيف ذات مرة علي بن موسى « الوزير الصالح » ، بعد ان صرف من منصبه واتخذ المدينة المقدسة موطناً ، وكان يفتخر لكونه احد اساتذته .

اما في بغداد فقد ابتهج كثير من المتصوفين باستقبال ابن خفيف . منهم رويم وابن عطاء والجُريري والشبــلي . وفي بغداد سمع كثيراً عن الجنيد وذي النون وبشر . وأراد ابن عطــاء ان يلبسه خرقة الصوفية ، فاعتذر قائلاً بأن امه قد ألبسته خرقة وهي وحــدها تستطيع ان تجرده منها . وفي زيارة له الى عاصمة الاسلام عند عودته من الحج رام لقاء الحلاج ، المتصوف الشهير . فوجده في السجن ولكنه نجح في ان يُسْمَح له برؤيته هناك ، وفي رواية ان ابن خفيف شهد مصرعه

سنة ٩٢٢ . وقد كانت محاكمة الحلاج وصلبه اعظم حدث في تاريخ التصوف . وبقي اثر ذلك بائناً في الادب الصوفي الى يومنا الحاضر . وسنرى في فصل آخر ، كيف يعلق حافظ عــلى استشهاده ذاك . وقد اتهم بالكفر لأسباب عديدة اهمها انه تفوه بكلمته المشهورة « انا الحق » بعد ان وصل شعوره بالاتحاد بالله الى هذا الحد الاقصى. وأدى به ذلك الى مواجهة الموت بإصرار، داعياً لجلاديه بدلاً من ان ينكر عليهم فعلهم . ويحـــدثنا ابن خفيف انه بعد ان ضرب الجلاد عنقه « بقي جسده واقفاً لمدة ساعتين من النهار ورأسه بين قدميه ، ينطق بكلام غير مفهوم . وكانت كلماته الاخيرة « احد، احد » . وصعدت اليه ، فاذا بي ارى الدم لا يزال يجري ويخط على الارض الله الله في احد وثلاثين مكاناً . ثم احرق جسده . وعدت انا الى شيراز » . ويمضي ابن خفيف فيقول : « وبقيت افكر في حاله مدة اربعين يوماً ، ثم اني نمت ذات ليلة ورأيت كأن يوم القيامة قد اتى والناس امام كرسي الحساب ، وأخذت اقول : ان حسين بن منصور من اوليائك ، ومع ذلك سلطت خلقك عليه . فقال الله : علّمته اسمائي لكي يـــدعو الناس اليّ ولكنه باح بسرّي لخلقي ، فسلطت خلقي عليه » . وأصبح هذا هو التفسير الاصيل لسر استشهاد الحلاج .

تبدو قضية الحلاج وكأنها تضع ابن خفيف في مأزق. فقد كان مفهومه الصوفي من نوع اكثر رصانة . سئل ذات مرة عن

رأيه بحسين بن منصور فقال : رأيي انه كان موحداً » . فأضاف السائل قائلاً : « سألت هذا السؤال لأن بعض الناس يقولون بكفره » . فاعترض ابن خفيف قائلاً : « اذا لم يكن ما رأيته منه توحيداً ، فأين تجد موحّداً » ؟ وفي مرة اخرى سأل زائر ابن خفيف : « ألم يتكلم الحلاج عن اللاهوت والناسوت ؟ » فأجاب ابن خفيف : « لعلك تعني ابياته :

سبحان من أظهر ناسوته ... سرّ سنا لاهوته الثاقب

ثم بـــدا لخلقه ظاهراً ... في صورة الآكل والشارب»

فأجاب الزائر : « نعـــم » : فهتف ابن خفيف : « لعنة الله على من قال هذه الكلمات واعتقد هذا الاعتقاد ، وعلى كل من قال مثل ذلك واعتقد بمثل ذلك ! » .

وفي البصرة لقي ابن خفيف رجلاً اثّرت آراؤه فيه تأثيراً لا يجاريه احد غيره . ففي ذلك الوقت كان الأشعري ، الذي اعطى اسمه اكبر مدرسة سنّية في علم الكلام ، قد اعلن انفصاله عن حركة المعتزلة العقلانية التي كانت سائدة من قبل. وتمّ لقاء ابن خفيف به بعد خروجه من شيراز في طريقه الى الحج. ودوّن ابن خفيف انطباعاته عن العالم الكبير بأسلوب خيالي ولكنه على غاية ما يكون من الادب . فعباراته العربية المسجعة تتحدى اية ترجمة ان تضاهيها بلاغة ، ولكنها لا تدع مجالاً للشك في انه تأثـّر بدفاع الاشعري عن العقيدة التقليدية تأثيراً عميقاً . فمقالة

ابن خفيف عن العقائد ، وقد نجت من الاندثار الذي اصاب تآليفه الاخرى ، تنسجم الى حد بعيد مع الخطوط العريضة التي وضعها الاشعري . وتقع هذه المقالة الصغيرة في ثلاثة اقسام من العقائد التي يجب ان يتمسك بها المسلمون عامة ، ويتبعها قسم آخر اوضح فيه المؤلف العقائد المختصة بالمتصوفة مؤدّاها : ان الصوفي يعتقد ان الفقر اشرف من الغنى وان الزهد بالكلية خير من الزهد ببعض الامور. ولا سبيل الى ادراك الله الا عن طريق خدمته . والله لا يمكن ان يُرى في الحياة الدنيا . والنبوة انما هي اشرف من الولاية وهي لا تدرك بالأعمال فقط . والمعجزات تختصّ بالانبياء ، والكرامات بالأولياء ... ولا سبيل الى التخلص من قيود العبودية . ولكن بمقدور المرء ان يتخلص من قيود الشهوات الجسدية . كذلك لا سبيل الى الخلاص من العبودية بوجه من الوجوه . ان الصفات البشرية تضمحلّ عند العارفين ولكنها تنقص عند المريدين . ومن الممكن العودة بعد الوصول . وفي اعتقاد الصوفي ان العبد ينتقل من مقام الى مقام الى ان يصل الى صفة الروحانية ، فيعلم الغيب ويتعالى عن المحسوسات ويمشي على الماء ويخفى عن غيره من الناس . ان السكر الروحي صواب عند المريدين ولكنه خطأ لدى العارفين . . فالصحو اسمى من السكر .

اما الهجويري الذي كتب بعد موت ابن خفيف بأقل من قرن ، فتنسب اليه عقيدة خاصة تتعلق « بالغيبة » و « الحضور »

في الاختبـار الصوفي . ويشرح ذلك قائـلاً : « ان هذين الاصطلاحين مع انهما يتناقضان في الظاهر ، فانهما يعبران عن المعنى ذاته من وجهات نظر مختلفة . « فالحضور » هو حضور القلب بصفته برهاناً على الايمان الحدسي ، فما كان مستوراً عنه له نفس قوة ما هو ظاهر له . و « الغيبة » هي غيبة القلب عن كل شيء غير الله الى حد انه يصبح غائباً عن ذاته وغائباً حتى عن غيابه ، فلا يعود يعي ذاته . وعلامة هذه الحال هي ترك كل سلطة شكلية ، اذ ان الغيبة عن الذات هي حضور مع الله والعكس بالعكس . فالله هو سيد القلب الانساني . وعندما تستبد نشوة ربانية في قلب المريد تصبح غيبة قلبه مثل حضوره (مع الله) ؛ فالمشاركة والانقسام يختفيان وتنتهي العلاقة مع الذات » .

ويذكر الهجويري ان عدداً من المتصوفة البغداديين ، ومن بينهم الشبلي والحلاج ، كانوا يفضلون « الغيبة » على « الحضور » . اما ابن خفيف ومدرسته فانهم من جهة اخرى « يقولون ان « الحضور » اسمى من « الغيبة » ويدللون على ذلك بقولهم انه طالما ان الكمالات تحصل « بالحضور » وبما ان « الغيبة » عن الذات هي طريق تؤدي الى « الحضور » مع الله ، فان الطريق تصبح ناقصة بعد ان تصل الى الهدف . « فالحضور » هو ثمرة « الغيبة » ، ولكن اي نور يوجد من « الغيبة » بدون « الحضور » ؟ ان المرء ليحتاج الى نبذ الغفلة كي يستطيع بواسطة « الغيبة » ان

يصل الى « الحضور » ، وعندما يصل الى هدفه فلا يعود للوسيلة التي بها وصل ، اية قيمة » . ويجمل الهجويري حديثه بقوله : « ان الفرق ، الذي بيّنه الشيوخ ، بين هذين الاصطلاحين هو فرق خفي يقوم في الظاهر على اختلاف في اللفظ بينما يعنيان في الاساس الشيء نفسه تقريباً . فالحضور مع الله هو الغيبة عن الذات – فما الفرق ؟ ومن ليس غائباً عن ذاته فليس حاضراً مع الله » . وهذا ما يتوصل الشراح المحدثون الى تقريره بعد ان ينفد صبرهم من المحادثات الدقيقة التي كان يقوم بها اولئك المتصوفون القدماء . ولكن اليس من الممكن ان يوجد حقاً فرق اساسي خطير بين وجهتي النظر هاتين ؟ ان الانشغال « بالغيبة » ادى بالضرورة الى تناقض جدّي ، فالذين اهتموا بالغفلة عن ذواتهم مالوا ايضاً الى ان يغفلوا واجبات هذه الذوات ، ليس فقط تجاه الله بل تجاه المجتمع . والاسلام هو في حد ذاته عبادة الله في المجتمع . « فالغيبة » هي موقف سلبي هدام ، في حين ان « الحضور » موقف ايجابي بناء ، وليس من قبيل المصادفة ان ابن خفيف وامثاله نجحوا ، بخلاف الحلاج ، في تخليص الاسلام من الشكلية العقيمة التي كان يغوص فيها الاسلام سريعاً ، وذلك بالتوفيق بين اصحاب النقل واصحاب العقل المتخاصمين بفرض قوة ثالثة تتألف من الاختبار الشخصي لله .

واخيراً انتهى ابن خفيف من سياحته وأدى فريضة الحج للمرة الاخيرة واستقر في شيراز مكرساً حياته للتعليم العالي

ولأن يكون مثلاً للطهر والتقوى . ولا نعلم الا القليل عما وقع له في حياته العملية هناك ، غير ان حاجاته تبدو انها كانت بسيطة جداً ، ومن الجائز ان يكون قد عاد الى مهنة صناعة الصناديق يستعين بها على سد حاجاته البسيطة تلك . ويحدثنا الشاعر « العطار » في كتابه « تذكرة الاولياء » انه التقى به في بلاط الامير البويهي عضد الدولة الذي ولي اقليم فارس منذ سنة ٩٥٠، قال : « قدم من بعيد متصوفان لزيارة الشيخ فلم يجداه في زاويته، وسألا عنه فقيل لهما انه في قصر عضد الدولة ، فصرخا : ماذا يفعل شيخ في قصر الامير ؟ ما كنا نظن ان شيخاً يفعل هذا . على كل حال ، فلنطف في المدينة . وذهبا الى السوق ودخلا دكان خياط ليرقعا ثوبيهما . ثم ان الخياط اضاع مقصه ، واتُّهِم الصوفيان بسرقته وسُلِّما الى الشرطي فقادهما الى عضد الدولة . فأمر هذا بقطع ايديهما . غير ان ابن خفيف، الذي كان حاضراً، صرخ قائلاً : مهلاً ، ليس ذلك من فعلهما . وهكذا فقد افرج عن الصوفيين . ثم قال لهما ابن خفيف : ايها الشيخان ان ما فكرتما به صحيح ، غير انني قدمت البلاط لاجل مثل هـــذا الامر . فأصبح الصوفيان في الحال من تلاميذه » . ان صحت هذه القصة ، فانها تعود الى السنوات الاخيرة من حياة ابن خفيف . فقد كان له من العمر ثمانية وستون عاماً عندما تسلم عضد الدولة حكم اقلـــيم فارس . اما كون ابن خفيف سنياً متشدداً – كما تدل عليه عقيدته – في حين ان البويهيين شيعيون متحمسون فلا يبطل صحة هذه القصة الطريفة . فقداسة الشيخ

وشهرته العلمية تتغلبان بسهولة على اية ريبة طائفية من قبـــل عضد الدولة . كذلك لا داعي الى التعجب من وجود وليّ في بلاط حاكم مسلم . فمنذ القديم والخلفاء يهتمون بان يحيطوا انفسهم برجال مقدسين يذكـّرونهم حتى في مجالس شربهم بأن كل سلطة زمنية هي زائلة وان الصدق والعدل هما ما يرضي الله ويضمن الثواب الابدي .

يمكننا من الروايات المتفرقة التي يرويها كثير من تلاميذه المعجبين ، ان نرسم صورة متماسكة معقولة عن هذا الولي المكرم الذي يزوره الناس كثيراً . وهذه الصورة المرسومة تشابه كثيراً الشيخ المجوسي الذي شهرته قصائد حافظ . وهذا يؤدي بنا الى الظن ان الذكرى الحية لمتصوف شيراز الاشهر كانت مثالاً لهذا الشاعر . فقد روى لنا تلميذه الديلمي واضع ترجمته انه لم ير قط استاذه غاضباً ولم يسمعه يغلظ الكلام لاحد الا في ثلاث حالات: الاولى عندما امر الملك بان تُقتل جميع الكلاب في المدينة . « فأخذ الناس يطاردون الكلاب في كل مكان ويقتلونها . وحدث ان لجأ كلب من هذه الكلاب الى المسجد حيث كان الشيخ ، فتبعه احد الناس ليقتله . فاشتد غيظ الشيخ وصرخ بالرجل : كف عن هذه الغلظة والا تضرعت الى الله الا يعيش احد منكم . فتملك الرجل خوف شديد وسقط على قدمي الشيخ . وكان هذا الرجل جندياً فتاب عن ذلك واصبح احد المتصوفين ولبس الخرقة ورحل الى مكة ، ولم يعرف احـــد ماذا حدث له في

النهاية » . اما المرة الثانية التي غضب فيها ابن خفيف فهي عندما قيل له ان فقيهاً يدعى ابا ميمون كان يشتم المتصوفة ، فغضب الشيخ وتفوّه ببعض الكلمات . والمرة الثالثة هي عندما سئل عما يعني ابو يزيد البسطامي بقوله : « لقد القيت عني جلدي كما تفعل الافعى » . فاجاب ابن خفيف : « ان قوله عميق» واحتاج الى وقت اتأمل في معناه » . فقال السائل : « سألتك ذلك لان ابا الحسن ابن بندار عندما سئل عن هذا القول اجاب انه يدل على ان ابا يزيد كافر » . فاستشاط ابن خفيف غضباً وتفوه ايضاً ببعض الكلمات القاسية .

ويروي الديلمي : «كان عندما يأتيه احد وهو بحالة الحزن يغادره دائماً مسروراً فرحاً . واذا تخاصم رجلان ، فلا يدخلان الى حضرة الشيخ حتى تكف خصومتهما ويغادر الغضب قلبيهما ويصبحان صديقين حميمين ولا يختلفان بعد ذلك عمرهما . وكان اذا اساء اليه احد يقابله بالخير . وكان الشيخ يتصرف تصرف الانبياء ، وقد سعى ليصبح كالملاك الكامل » . ويروي آخرون ممن صحبوه كيف كان الشيخ عندما يجلس بينهم يمزح معهم كالطفل ، ظريفاً متبسماً كل الوقت . « ولكن ما ان يفتقده الله حتى يشع منه جلال مريع مهيب يؤثر على الحاضرين الى حد لا يستطيعون عنده التحرك او رفع بنان » . وكان زهده عجيباً ، وكان حتى مريعاً ، فقد كان يثابر على الجوع خلال اشهر السنة كأنه يصوم شهر رمضان . ولم تكن توسلات اصحابه كي يستعيد

قوته عندما يهدّد الجوع حياته لتجدي نفعاً . فهو يسخر حتى من ضعفه الجسدي . وقد روى عن نفسه قائلاً : « كنت اتكلم ذات يوم في المسجد الجامع عن مقامات الاولياء العليا . وكان قد مضى علي اسبوع لم آكل فيه . واذا بدافع الى البول يتملكني حتى لم استطع ان امكث ، فاسرعت خارج المسجد وما ان وصلت الى سوق خوزستان حتى بُلت دون ارادة . فانهمر الدمع من عينيّ وبكيت كثيراً وانّبت نفسي قائلاً : تتكلم عن مقامات الاولياء السامية ولما تُشفِ نفسَك من عادات الاطفال » .

اما عن حياة ابن خفيف الداخلية الخاصة ، فما عدا قصة الهجويري الطريفة التي تروي قصة النساء الاربعمائة اللواتي لم يشاركنه الفراش ، فلم يروَ الا القليل . ويستشهد الديلمي برواية مؤداها انه كان للشيخ ولد يسمّى عبد السلام مات : « وقد حضر مأتمه جميع الائمة والشيوخ . ولكن صبر الشيخ الذي يوحي بالرهبة كان عظيماً الى حد منعهم عن تقديمهم العزاء له » . ويذكر العطار انه ولد له طفل في ظروف غريبة . ومن المستبعد ان يكون هو الطفل ذاته . « يروى انه في منتصف احدى الليالي دعا خادمه ليأتيه بامرأة . فقال له الخادم : انىّ اذهب في منتصف الليل ؟ غير ان لي ابنة ، فاذا سمح الشيخ ذهبت واحضرتها » . فأمره ابن خفيف بان يأتي بها . فاحضر ابنته واجرى الشيخ في الحال عقد زواجه عليها . ولما مضت

ثمانية اشهر ولد له طفل ومات في الحال . « فقال الشيخ لخادمه : قل لابنتك انه بامكانها ان تحصل على الطلاق اذا ارادت . فسأله الخادم : ايها المعلم ما هو سر ذلك ؟ فاجاب الشيخ : في الليلة التي تزوجتها كنت قد رأيت فيما يراه النائم ان القيامة قامت وكان كثير من الناس محشورين هناك يغمرهم العرق الى اعناقهم . واذا بطفل يأتي ويمسك بيد ابيه وامه ويجتاز الصراط الى الجنة كالريح ، فاشتقت الى ان يكون لي ولد ، فعندما اتاني هذا الطفل وذهب تحققت امنيتي » .

قامت الاحلام ، سواء اكانت صادقة ام غير صادقة ، بدور مهم في حياة الاوليـــــاء . ولم يكن ابن خفيف ليشذ عن هذه القاعدة . وقد خصص الديلمي قسماً مستقلاً من ترجمته ليروي بعض هذه الاحلام . ويذكر عن الشيخ انه قـــال : « حدث مرة انني لم آكل شيئاً لمدة عشرة ايام ، وذات ليلة رأيت في الحلم الملاك جبريل يأتي ويحملني الى السماء . وكانت كل سماء امرّ بها تبدو كبحر من الماء سقط فيه حجر ، وهكذا حملني من سماء الى سماء حتى وصلت الى السماء السابعة . هناك رأيت ارضاً كأنها اغصان من الذهب قد نسجت بعضها ببعض ، فاجلسني جبريل هناك وجلس هو في زاوية . ثم اشار الي ان انظر الى السماء ، فنظرت واذا بي ارى العرش ، ورأيت على يمين العرش رسول الله وابراهيم واقفين ، وقد لبسا ثياباً بيضاء ، وعلى شمال العرش رأيت موسى لابساً سروالاً يشبه الثيـــاب

اليمنية المقلمة . وكان يقف صامتاً وقد رفع اصبعه واطرق ؛ وكان شارباه طويلين ولونه بلون القمح . كذلك رأيت المسيح يذهب ويجيء وكان نضراً فتي الوجه ، ابيض اللون الى حمرة . فما رأيتهم حتى تملكني خوف شديد وسقطت على ركبتي ، فدنا نبينا محمد واخذ بذراعي واوقفني على قدمي ، فسقطت مرة ثانية ، وللمرة الثانية جاء اليّ واوقفني » . وتوقف ابن خفيف في روايته عند هذا الحد . يقول الديلمي ، الا انه انهى حديثه بقوله : « ورأيت ما رأيت » . وقد اختبر معظم الاولياء معراجاً كهذا المعراج مقتدين بذلك بما حدث للنبي . ورأى معظم الاولياء النبي في الحلم . وهذا ما حدث لابن خفيف .

غير ان ابن خفيف لم يقنع بعيشة الزهد ورؤيا الاحلام وفعل الكرامات ، فقد وضع كثيراً من الكتب ، ويعدّ له الديلمي من الكتب خمسة عشر ومثل ذلك من الرسائل القصيرة . ويظهر ان معظم هذه المؤلفات تتناول وجهات مختلفة من حياة الزهد والتصوف. غير انه ألـّف ايضاً في الفقه رسالة واحدة على الاقل، ورسالتين جدليتين ضد بعض البدع الخاصة. ولم ينشر ابن خفيف علمه واختباراته على الاجيال اللاحقة من خلال مؤلفاته بقدر ما نشر من خلال تلاميذه . فقد مرّت تحت يديه مئات كثيرة من الشيرازيين ، كما وفـــد عليه ايضاً العديد من البلدان القاصية والدانية . ويروى عن ابي نصر السراج الطوسي الذي مات سنة ٩٨٨ ، انه جلس بين يديه قبل ان يكتب كتابه « اللمع » المشهور

الذي لا يعد اقدم رسالة في التصوف الاسلامي وحسب بل اكبر مستند منظم ايضاً . اما ابو عبد الرحمن السلمي النيسابوري ، وهو مؤلف صوفي آخر مشهور ، فقد عدّ نفسه سعيداً لتمكنه من الاستشهاد بابن خفيف مباشرة . اما ابو نعيم ، وهو عالم كبير بكثير من فروع العلم ، وأحد ابناء شيراز – وقد جمع مجموعة ممتازة من تراجم الاولياء والمتصوفة المسلمين ومات سنة ١٠٣٨ – فقد درس عليه عندما كان حدثاً وابن خفيف كبيراً في السن .

ويذكر ابن زركوب في ثبت كبير وضعه عن تلاميذ ابن خفيف ان من بين تلاميذه ابن باكويه، وهو احد مترجمي الحلاج، وقد مات سنة ١٠٥٠ في شيراز ودفن فيها ومقامه لا يزال محفوظاً . وابن باكويه هذا يعرف بأبي كوهي وهو صاحب اقدم مجموعـــة موجودة للقصائد الصوفية باللغة الفارسية . ويمكننا بواسطته ان نستقصي تأثير ابن خفيف على شعراء شيراز وغيرهم. وقصيدته التي ترجمها الى الانجليزية المرحوم ر. أ. نيكلسون من مخطوطة فريدة في المتحف البريطاني تتفق وروحية حياة ابن خفيف وتعاليمه :

في السوق ، وفي التكية – لم أرَ الا الله
في الوادي وعلى الجبل – لم أرَ الا الله
كثيراً ما رأيته بالقرب مني في المحنة ،
في المنّة وفي النعمة – لم أرَ الا الله .
في الصلاة والصوم ، وفي الحمد والتفكر ،

في دين النبي — لم أرَ الا الله .
لا روح ولا جسم ، لا عرض ولا جوهر ،
لا صفات ولا علل — لم أرَ الا الله
فتحت عيني وبنور وجهه الذي غمرني
وفي كل عين اكتشفت — لم أرَ الا الله .
كنت اذوب كالشمعة في ناره
وفي اللهب المشع — لم أرَ الا الله .
نفسي رأيتها بعيني بكل وضوح
ولكنني لما نظرت بعيني الله — لم أرَ الا الله
وصرت الى فناء ، وتلاشيت ،
وها انااذا ، كنت انا الحيّ الابدي — لم أرَ الا الله .

لا يجـــرؤ احد ان يقول البيت الاخير من هذه القصيدة الا اذا كان يؤمن بنظرية الحلول عند الحلاج ، وهذه القصيدة هي تعبير كامل عن عقيدة « الحضور » عند ابن خفيف .

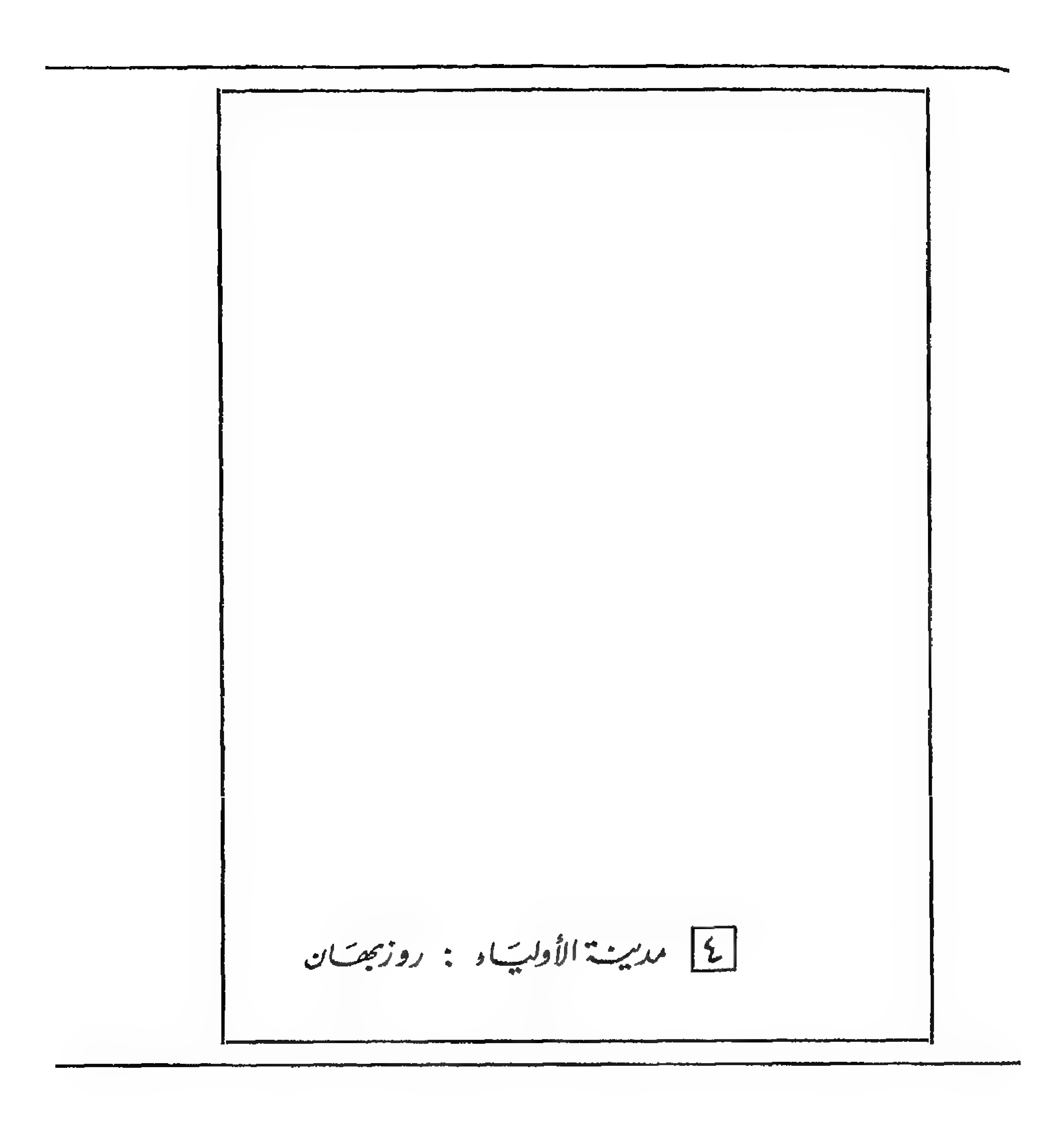
والآن بعد ان درسنا حياة ابن خفيف المقدسة ، آخذين بعين الاعتبار مجرى الحوادث المعاصرة ، وبعد ان درسنا طبيعة تعاليمه ومدى تأثيره ، لننتقل الى المشهد الاخير ونلق نظرة على موته الطاهر . ندين بالتفاصيل الى تلميذه عبد الرحيم بن احمد . « عندما مرض الشيخ ، اذ كان قد نام في الشمس ، بقي كل وقته خائر القوى من شدة الحمّى ، غير انه لم يضيّع مثقال ذرة من وِرْده . وكنت لمدة عشر سنين قبل موته اخبز له كل يوم

نصف كيل من الدقيق يعمل خمسة عشر رغيفاً . ولكن الشيخ لم يكن يأكل قط الا رغيفاً واحداً وكان يترك احياناً قسماً منه . وقد اتفق الاطباء عندما مرض انه لم يكن يشكو من اية علة . وشفاؤه يتم بأكله بعض الطعام، فحاولنا وسعنا لاقناعه بأن يأخذ شراباً بارداً ولكنه ابى . ولم نجرؤ على الكلام معه ، لما يوحيه من الهيبة . فدعا ابو الفتح جماعة من تلاميذه ورجاهم ان يتوسطوا لديه بأن يشرب شربة واحدة . فتوسلوا اليه معاً ، ولكنه اجاب : أتوسل اليكم بحق صداقتنا الطويلة ان تتركوني وشأني ولا تضايقوني ، انني اريد ، عندما امتثل امام الله ، ان امثل امامه جائعاً . فقالوا : ان ابا الفتح يحثك على ذلك رحمة منه عليك، فأجاب الشيخ : ان ابا الفتح لا يعرف المعنى الحقيقي للرحمة . قد حانت الساعة التي يجب عليّ فيها ان احضّر نفسي للقاء ربي . ثم انه عاش بعد هذه الحادثة سنة اخرى كان يأكل فيها كل يوم زنة عشرة دراهم فقط . قال الشيخ : قد سألت الله انني عندما اقدم اليه الّا املك شيئاً ولا يأخذ احد مني شيئاً ولا يكون على جسمي لحم . وعندما مات كانت هذه الامور الثلاثة قد تحققت كلياً . فقبل ان يموت بقي سبعة عشر يوماً دون ان تدخل الى بطنه ذرة من طعام ، وكان ارج عطر الورد يضوع من فمه . وللحقيقة كان كل شيء حوله عابقاً بتلك الرائحة . وقد لفت نظر اصحابه لذلك فأخذهم العجب ايضاً . قال الشيخ : عندما تسمعون الآذان ولا تجدونني في الصف الاول في المسجد اطلبوني في المقبرة .

ويضيف الراوي قائلاً : « ولما فارق الشيخ هذه الدنيا كان قد مضى عليه سنة ونصف السنة دون ان يحرّك قدمه . وقد كنت عند النزع الاخير وجماعة من تلاميـــذه حول سريره ، فقال لنا : قل اشهد ان لا إله الا الله وان محمداً رسول الله . وقد اخذ يردد هذه الكلمات حتى توقف نفسه . وكان طلبه الاخير ان يصلي عليه ابو بكر بن علاف ، واذا لم يكن حاضراً فأبو علي الحلي الفقيه الشافعي ، والا ابو علي الامام . فلما مات غـُسّل جسده وصلى عليه ابو بكر بن علاف . وكان النعش الذي سجي عليه مقوّى بمسامير من حديد . ووقف حسن بن بدويه ليمنع ازدحام الناس عليه فلا يجرؤ احد على لمس الكفن ، وكان رئيس نقابـــة القصابين وهو رجل ذو قوة شديدة اعتاد خدمة الشيوخ . واحاط عدد من رفاقه القصابين الشجعان امثاله بالنعش للغاية ذاتها . واجبر الناس ان يمروا بالجثمان كل بدوره منعاً للضوضاء والفوضى . واحاطت حلقة من الفرسان بالقصابين ليمنعوا ايضاً الغوغاء ، وحملوا نعش الشيخ الى المصلى ووضعوه هناك ، فتقدم اولاً ابو بكر بن علاف وصـــلى عليه حسب وصيته الاخيرة ، ثم تقدم علي الحلواني ، ثم ابو اسحاق نقيب الاشراف ، ثم ابو علي امام المسجد الجامع ، كل بدوره محاطاً بحاشية كبيرة . وبعد ذلك تقدم الناس جماعات جماعات، كل جماعة يتقدمها زعيمها ، وصلوا عليه حتى بلغت الصلوات على الفقيد مئة . وكان حـــاضراً في المأتم اليهود والنصارى والمجوس . وقد صلى كل واحد منهم حسب طقوس دينه . وتم

ذلك في مدة ساعتين فتعجب الناس لظنهم ان ذلك يحتاج الى اكثر من يوم » .

يقول الديلمي ان ابن خفيف مات في الثالث والعشرين من رمضان سنة ٣٧١ للهجرة ، الموافق للثاني والعشرين من اذار (مارس) سنة ٩٨٢ ، عن عمر ١٠٥ سنوات . ويعطي الثقاة تقديرات اخرى تتراوح بين ٩٥ سنة حداً ادنى و ١٥٠ سنة حداً اقصى . ولم يكن طول العمر (دون ان نعتبر الحد الاقصى) عجيباً بين العلماء والاولياء المسلمين ، على الرغم من مخاطر الاوبئة والمذابح التي كانوا يتعرضون اليها . ومن الطبيعي ان نستنتج ان اولئك الذين بلغوا هذا العمر الطويل كانوا تحت رعاية خاصة من الله ، وكانوا لذلك مكرمين . وهكذا فقد كان ابن خفيف مكرماً لأمرين : فقد كان معمراً كما كان ولياً .


٤ مدينة الأولياء : روزبهان

بينما نحن في جولتنا المختصرة في مشاهد شيراز ، مدينـــة الأولياء والشعراء ، محاولين اقتفاء اثر ابن بطوطة الذي سبقنا بستة قرون ، اذا بنا ننظر فنجد مشهداً مشهوراً آخر هو مشهد « الشيخ الصالح القطب روزبهان البقلي ، من كبار الاولياء » . وقد وجد ابن بطوطة ضريحه في المسجد الجامع الذي كان يخطب فيه الشيخ، وكان يتردد عليه استاذه المبجّل مجد الدين بن خدد مصلياً ومعلماً . وبينما كنا نتجوّل في الشوارع الضيقة في المدينة القديمة تذكّرنا حادثة رواها الشاعر الفارسي فخر الدين عراقي (توفي سنة ١٢٨٩) في كتابه الموسوم بـ « كتاب العاشقين » وقد ترجمناه منذ عشرين سنة :

ذلك الشيخ من شيراز ، المعروف بروزبهان
الذي لم يعرف له مثيل قط على وجه الارض
في الطهر والحقيقة ، كان جوهرة
ترصّع خاتم الاولياء ، كان رجلاً
عالماً في الروح التي هي حياة العالم أجمع
كان سيد العاشقين والعارفين جميعهم

وكان اماماً لكل قلب وصل .
وعندما جاء الى قاعة الحب
كان النهار ، كما كان اسمه ، مشرقاً .
ولسنين عديدة كان جماله المفرح للروح
يحيل النهار ليلاً والليل الحالك نهاراً .
وكان له عشيق ، جميل كالحورية
ملامحه تستلهمها عيناه
واتفق ان رآهما احد المجانين ، بينما كان الغلام
يضغط بشفتيه على قدميه ، فذهب مسرعاً
يخبر الامير سعداً
ذهب بأسرع من البرق يطوي الريح طياً
فصاح : « ايها الملك ، يا حامي الدين ،
رأيت فتى أمرد يقبّل قدمي الشيخ » .
اما سعد بن زنكي فقاده ايمانه
الى الظن ان الحكاية إن هي الا وشاية .
وذات يوم اتفق ان زار الزاوية
وشاهد بأم عينه ما درج عليه الشيخ :
رأى غلاماً ابيض اللون مشرقاً كالبدر ،
يشدّ الى صدره قدم الشيخ
فلما رأى الامير هذا المشهد بعينيه

احمر وجهه خجلاً وضحك مستخفاً .
وكان بقرب الوليّ موقد
مليءٌ فحماً ، تضطرم فيه النار
فأخذ قدمي الشيخ من صدر الغلام الابيض اللون
ورمى بهما في ذلك الموقد المضطرم
فهتف الولي : « ان الألم أذهلني
ولكنني لم اهتم لما جرى لقدميّ
فالنار التي تأخذ نصيبها من الجسد
لا ترمي الا الى ان تلتهم الادمغة الغبية .
فقد تحولت النار لابراهيم ايكة من الورد ،
ولما اوحى الله الى موسى
لم تلتهم النار عينيه ، فالبنسبة لما رأيت
كانت نظرتنا ذنباً ، في حين ان هوى القلب
يثمر في الروح : عندما يكون القلب طاهراً
لا يدنسه النظر . ان هذا الألم
لا يؤثر عليك ، ولكنه يشدني للقيد الى الابد » .

ان موضوع الحب ، كما سترى ، سواء أكان مقدساً ام مادياً، اعجب روزبهان الرجل والولي . وقد كان موضوعاً لكتابٍ هو من ألطف كتبه واجملها ، يدعى « عبهر العاشقين » . وقد

اصبح في متناول كل من يعرف الفارسية ، وذلك بفضل جهود هنري كوربان من باريس ومحمد معين من طهران (باريس ، ١٩٥٨) .

في سنة ١٩٢٨ زار شيراز العالم العلامة فلاديمير ايفانوف ، وهو روسي ابيض اتخذ الهند موطناً له منـــذ ان هرب من البولشفيك . زار شيراز في جولة له في بلاد فارس ، وهناك عثر على مخطوطة تحتوي على ترجمة مفصّلة لحياة روزبهان . « ولا تقوم اهمية هذه المخطوطة على مجرد كونها مصدراً لم يكن يعرف من قبل للتصوف الفارسي ، بـــل لكونها ايضاً تتناول الحياة الاجتماعية في شيراز قبيل الفتح المغولي » . وقد درس ايفانوف النص ، وهو قسم بسيط من الكتاب ، فاكتشف ان روزبهان ، حسب رواية حفيد له هو واضع الترجمة ، قد دفن في « دكان ، مكشوف خالٍ » هو عبارة عن غرفة خارجية تقع الى جانب الرباط الذي كان يعيش فيه . ويعتبر هذا المكان ، وقد دفن فيه ايضاً بعض اقارب روزبهان ، مكاناً مقدساً . وكان على الارجح مزيناً ببعض الزخارف الخاصة ، من هندسية او غيرها ، كانت بادية للعيان الى حد ان الذين لم يعرفوا شيراز ، كانوا قادرين على ملاحظتها ، كما يستدل من قصة درويشين استطاعا ان يتبيّناها في الحال . وفي هذا المكان درجت العادة على تقديم مناسك خاصة كل يوم اربعاء » .

ولكن ايفانوف ، بخلاف الدرويشين ، اعترضته صعوبات

كبيرة في تمييز المكان . « وجدتُ المحلّة التي اصبحت عـــلى الارجح تدعى منذ القرن الماضي على الاقل « محلة درب الشيخ » وجدتها مزدهرة المظهر ، ولكن بيوتها جميعها حديثة البناء نسبياً . ولم يكن هنالك ألبتة اي اثر لبناء خاص ، اما القبر ففي وسط ارض مهملة تقع بين المنازل وتبدو كأنها باحـــة صغيرة جداً . وكانت تؤدي اليها طريق ضيقة ، وللباحة باب يبقى عادة مغلقاً . وقد غطيت الارض بالنفايات . وفي الخلف وجَدْتُ قطعة من الحجر الرمادي اللون نقشت عليه اسماء الأئمة الاثني عشر بشكل دائرة . ومع ان سكان المحلة اكدوا لي ان ذلك هو قبر الشيخ ، فلم يكن من الممكن ان اسلّم بذلك . وحاولت ان انزع النفايات فعثرت بالقرب من المدخل ، قليلاً الى اسفل ، عـــلى قطعة مكسورة من الحجر الرمادي اللون المائل الى الاصفرار ، وقد كتبت عليها البسملة بشكل دائرة بالخط الكوفي المربع . ثم اني حفرت حفرة بالقرب من رأس الحجر فوجدت نقشاً احتفظ لحسن الحظ باسم الشيخ وتاريخ وفاته » .

وهكذا بعد قرون من الدمار والاهمال يعود الفضل للسيد ايفانوف باكتشاف المثوى الاخير لشخصية من اكثر الشخصيات اصالة وذكاء ممن انجبتهم شيراز . كان ميرزا حسن حسيني فسائي ، الذي جمع تاريخاً طوبوغرافياً لاقليم فارس ، لا يزال قبل خمسين سنة او يزيد ، يعرف المشهد بأنه بناء مهدّم يقع في حي البستان الجديد في شيراز . « غير ان عامة الناس في شيراز

كانوا لا يولون كثيراً من الاحترام لذكرى هذا الولي ، وكانوا يأخذون خفية احجار الضريح وآجره » . وقد روى بعد ذلك فرصت الشيرازي في كتابه « الآثار القديمة في بلاد فارس » ان الناس كانوا يتخذون من المكان زريبة لابقارهم واغنامهم . وعندما اولى الاستاذان كوربان ومعين اهتمامهما العلمي بروزبهان بعد سنين عديدة من التعاون المثمر في المعهد الفرنسي الايراني في طهران لم يجدا كبير عناء باقناع معالي السيد علي اصغر حكمت ، الذي كان مسؤولاً عن بناء مقام حافظ الحديث الجميل ، بأن يتولى ترميم مقام سلفه وابن بلدته روزبهان . وفي الوقت الذي كانا فيه يكتبان كتابيهما ، وفي شهر شباط (فبراير) سنة ١٩٥٧ بالذات ، قاما بزيارة للقبر – وكان العمل فيه على قدم وساق – فاكتشفا بلاطة ضريح روزبهان بالاضافة الى بلاطات اضرحة عدد من افراد عائلته . وقد علّق على ذلك كوربان بقوله : « اذا تحقق مشروع الترميم يصبح بالامكان استعادة الماضي المجيد الذي شهده ابن بطوطة وشرف الدين ابراهيم . وستشهد شيراز باكتشاف مشهد آخر من مشاهدها ذلك الاحترام الذي استحقه احد كبراء المتصوفة في ايران ، هذا المعلم ، صاحب المؤلفات التي تعد اساساً لفهم روحانية فريد الدين العطار وجلال الدين الرومي وأوحد الدين الكرماني واخيراً حافظ » .

ولد ابو محمد روزبهان ابن ابي نصر المعروف بروزبهان البقلي

سنة ١١٢٨ في مدينة فسا وهي مدينة نافست لمدة من الزمن شيراز نفسها في حجمها واطاييبها ، وهي تبعد سبعة وعشرين فرسخاً من عاصمة الاقليم . ويتحدر روزبهان من عائلة ديلمية كانت قد استقرت في اقليم فارس في عهد البويهيين . وهو يحمل اسماً فارسي الاصل (يقال ان اصله ديلمي) هو روزبهان او روزبه ويعني « ذو الايام السعيدة» . وقد اشار الى ذلك الشاعر عراقي في بيته المذكور اعلاه :

وعندما جاء الى قاعة الحب
كان النهار ، كما كان اسمه ، مشرقاً .

اما القسم الثاني من اسمه اي البقلي ، فيشير الى انه بدأ حياته العملية صاحباً لدكان بقالة .

كتب روزبهان في سيرته الموسومة بـ « كشف الاسرار » (وهو نص ذو اهمية كبرى لطلاب العلوم الدينية ، ويعده كوربان للنشر) يقول : « كنت في الخامسة عشرة من عمري عندما اصيب قلبي لاول مرة بهذه الامور الغيبية . فقد ولدت لعائلة كان اعضاؤها جَهَلة ، وفريسة للسكر والضلال ، وكانوا فظّين سافلين « كأنهم حُمُرٌ مستنفرة فرّت من قسورة » (القرآن ، ٧٤ : ٥١) . وما ان بلغت الثالثة حتى ثار في خلدي السؤال التالي : « اين ربك ورب العالمين ؟» وكان هنالك مسجد بالقرب من بيتنا ، وذات يوم ابصرت بعض الصبية الصغار هناك

فسألتهم: « هل تعرفون ربكم ؟ » فأجابوا : « يقولون ان ليس له قدمان او يدان ». كانوا قد سمعوا آباءهم ولا شك يقولون بأن الله تعالى ليس له اطراف او اعضاء . وما ان سألتهم هذا السؤال حتى تملكتني العاطفة واخذت بالركض . فقد حدث لي ما يشابه تلك اللمع المفاجئة من التذكر والحدس الوجيز اللذين يرافقان التأمل ، ولكنني لم افهم ماذا جرى على التحقيق .

« وفي السابعة بدأت اروّض قلبي على ممارسة التذكر والاخلاص الروحيين . فتملك قلبي حب جارف واحسست به يذوب من اثر ذلك . وقضيت كل هذا الوقت في حنين عميق . وغرق قلبي في محيط من التذكر الوجودي السابق الخالد وغرقت انا في اريج العالم السماوي . واذا بحالات وجيزة من الحدس والنشوة الشاردة تنفجر فيّ دون ان تحدث اي اضطراب جسدي ، الا انه تملك قلبي حلاوة بينما كانت الدموع تنهمر من عيني انهماراً . وفي تلك الفترة ايضاً اخذت ارى الكائنات كلها وكأنها وجوه بالغة الجمال وكانت تبعث فيّ ميلاً خاصاً الى الوحدة ، والصلاة المنفردة ، واعمال البر والحج الى قبور شيوخ المتصوفة الكبار .

« وما ان بلغت الخامسة عشرة حتى بدا لي انني اسمع نداء من عالم الغيب يقول : « انك نبيّ ». ولكنني همست لنفسي : سمعت في بيت والدي ان لا نبي بعد المصطفى ، ثم كيف لي ان اكون نبياً وانا آكل واشرب وأشبع حاجاتي الطبيعية ولي

اعضاء تناسلية ؟ كنت اظن ان ليس للانبياء مثـــل هذه النواقص .

« ومضى حين ضاع فيه قلبي كلياً بالحب . وذات ليلة نهضت بعد العشاء من دكاني واخذت طريقي الى مكان في فلاة مجاورة بغية الوضوء ، واذا بي اسمع حس صوت جميل ، فتحركت اعماق قلبي وعاطفتي الملتهبة تحركاً عميقاً وصرخت : « يا من يتكلم ، انتظرني ! » وتسلقت رابية قريبة واذا بي اجد نفسي في حضرة شخص على غاية من الجمال ، في زي شيخ صوفي ، فعييت عن الكلام . واذا به ينطق ببعض كلمات عن الوحدة الالهية لم افهمها ولكنني شعرت في الحال بحزن عميق وحب جنوني . وذهلت عن نفسي وفقدت وعيي . كان الناس يجيئون ويذهبون وكأنني في احدى الحانات . وبقيت على هذه الحال ردحاً من الليـــل الى ان استعدت وعيي ثم عدت الى دكاني ومكثت بقية الليل حتى الصباح، وقد تملكتني العاطفة والجزع والآهات والدموع . وذهلت ذهولاً كلياً وصعقت ، وصرخت دون ارادة مني : « اغفر لي ، اغفر لي ! » ثم سكن روعي . ويبدو انني بقيت على هذه الحال ساعات وساعات . وانتظرت ساعة اخرى واذا بعاطفة عنيفة تتغلب علي ، فأرمي خزنتي واجمع كل ما كنت قد ادخرت في دكاني ضد المجاعة وامزق ثيابي وارحل الى الصحراء . وبقيت على هذه الحال مدة سنة ونصف ، مشتاقاً ، مصعوقاً ، منتحباً مأخوذاً بالعاطفة . وكان

كل يوم يتميز برؤيا مجيدة من النشوة والزيارات المفاجئة لعوالم الغيب حيث كانت السماوات والارض والجبال والصحارى والخضرة تبدو لي كأنها النور الصافي. واخيراً تملكني شيء من الخمود» .

يمكننا ان نتوقف هنا لنتأمل مقدار ما يتوافق اختبار روزبهان مع موضوعنا العام الا وهو اهمية شيراز في التاريخ العالمي . ان الاحساسات التي وصفها بهــذا التفصيل الدقيق نستطيع طبعاً ان نجد لها ما يقابلهـــا في الادب الصوفي . ومــع ذلك فان حالة روزبهان انما تبدو كأنها حالة فارسية على الاخص وليس ذلك نتيجة لنضج وعيه الديني المبكر وحسب – مــع ان ذلك ليس بمستغرب في بلاد فارس – بل ايضاً نتيجة لشمول رؤياه للنور والجمال ونتيجة لنشوته التي لا تطاق والتي توصل اليها بواسطة حبه الحار المبرح. ان عبادة الفرس للجمال تشابه كثيراً عبــادة الاغريق له . ولكنها ايضاً تفـترق عن اختها الاغريقية ببعض الامور . فالفرس ، كالاغريق ، لم يصعب عليهم ان يروا المجرد في المحسوس ، ذلك ان الجمــال بالنسبة لهم انما هو استمرار تضم ابعاده المكان والزمان ، والعام والخاص ، وبصراحة يضم ايضاً الذكر والانثى . وفي الواقع ان الفرس قوم يتميزون كالاغريق بجمال اخاذ . ويروى ان روزبهان نفسه كان ذا جمال خارق

حتى بالنسبة الى الفرس . وكان الفرس كالاغريق شديـــدي الحساسية للجمال المادي مهما يكن الشكل الذي يتجلى فيه هذا الجمال .

غير ان عبادة الفرس للجمال كانت تفترق عن عبادة الاغريق له بأنها تنبع من حالة من التأمل اعمق وبأنها تحتوي على عنصر من الانطواء اقوى ، وكانت تميل بالتالي الى ان تكون اكثر تركيزاً واشد حدة ، واذا اردت اكثر جنوناً .

وليس من قبيل الاتفاق انه في حين وصل الفن الاغريقي الى الاوج في النحت وأصبح يشمل الحياة كلها او اكثر منها ، فان الفن الفارسي وصل الى الأوج في المنمنات ، كما وصل في الزخرفة المجردة الى حد التألق . فقد كان فناً غير مجسد ، رؤيا من الجمال المستقر في جميع الظواهر ، وليس في الامور الفردية المتصفـــة بالجمال اتصافاً. كان الجمال بالنسبة للفرس شيئاً شارداً وفي الوقت نفسه كان متحرراً من الزمان متكرراً بإستمرار : كان شارداً ، لان بساط الزهر الربيعي في الصحراء كان يذوي كالجمال البشري، تقريباً فور ظهوره بمظهر الكمال . وكان متحرراً من الزمان متكرراً باستمرار لان العين المتأملة كانت تنظر الى ما وراء سلسلة الكون والفساد ، الى عالم روحاني واسع المدى تتخلـــله احياناً بعض المظاهر المتصلة بدائرة العالم المادي الضيقة ، وهو عالم حقيقي يعتبر مصدراً لا ينقطع للجمال الظاهر كله وموئله الذي لا يزول . والجمال في نظر الفرس مقدس الى اقصى درجات

التقديس ذلك لان « الله جميل ويحب الجمال » . وقد خلق من تأمله الازلي لنفسه هذا العالم الجميل . فعبادة الجمال هي لذة جسدية رائعة وفي الوقت ذاته فعل من اكثر الافعال تقى وقدسية .

بينما كان روزبهان معتزلاً في الفلاة – على غرار النبي الذي كان يعتزل من وقت الى آخر في التلال الجرداء المحيطة في مكة ويستسلم للتأمل – انعم عليه بمشاهدة الخضر ، ذلك الهادي الروحاني الخفي الذي يقترن اسمه في الاساطير الاسلامية باسم موسى والاسكندر ، وهو المُدخل الى الاسرار الالهية . «كنت لا ازال في تلك الاثناء اجهل علوم الحقائق الروحانية . وقيّض لي ان ارى الخضر فاعطاني تفاحة اكلت قسماً منها ، فقال لي : كلْها كلّها فذلك هو المقدار الذي اكلته انا . ورأيت كأن بحراً عظيماً يمتد من السماء السابعة الى الثريا ، ولم أرَ شيئاً آخر : كان ذلك اشبه شيء بشعاع الشمس ثم ان فمي انفتح دون ارادة مني ودخل بحر النور كله فيه ، ولم تبق قطرة منه دون ان ابتلعها » . وفي رؤيا اخرى بدا له انه غاص في بحر آخر . « بدا لي هذه المرة وكأنني كنت في جبل المشرق ، ورأيت جماعة من الملائكة ، وقد امتد من المشرق الى المغرب بحر واسع لم ارَ شيئاً غيره . ثم ان الملائكة قالوا لي : غُص في هذا البحر واسبح نحو المغرب . فغصت واخذت اسبح ، فلما وصلت مغرب الشمس في ساعةِ الزوال ، رأيت جماعة من الملائكة على جبل

المغرب كانوا قد استحموا جميعهم بنور الشمس الغائبة فهتفوا لي : يا من هو في اسفل ، اسبح ولا تخف . ولما انتهيت الى الجبل قالوا لي : لم يقطع احد هذا البحر الا علي بن ابي طالب وانت من بعده » .

ان الاشارة الى علي الخليفة الرابع تذكرنا بالدعوى الشيعية التي يأخذ بها كثير من المتصوفة السنة (ويظهر ان روزبهان كان احد هؤلاء) . غير ان رؤيا اخرى اسمى من هذه كانت بانتظار روزبهان عند عودته من الصحراء . « بينما كنت على سطح بيتي شاهدت الله بصفة القوة والجـــلال الازليين واذا بالعالم اجمع يبدو كأنه نور شعشعاني عظيم قد بزغ ، ثم انه دعاني من وسط هذا النور سبع مرات بالفارسية : يا روزبهان ، لقد اخترتك لان تكون ولياً لي ، لقد اخترتك للحب فانت لي وليّ وحبيب . فلا تخف ولا تغتم ، فانا إلهك واكلأك بعنايتي في كل ما تريد » .

بعد هذه الرياضة الروحية الطويلة الامد ، قرر روزبهان ان يكرّس نفسه بالعلم التقليدي لخدمة الله وتعليم الانسان ، الامر الذي اختاره الله لاجل تحقيقه . فخطا الخطوة الاولى التقليدية وذلك بدراسته القرآن وحفظه عن ظهر قلب ففاز لذلك بلقب الحافظ . وقد سكن في تكية صوفية في شيراز حيث كان يتسنى له ان يحضر حلقات العلماء والفقهاء الذين كانوا يعلمون في تلك

المدينة . وقد اشتهر من بين هؤلاء ارشد الدين النيريزي امام المسجد القديم ، وقد مات بعد ان امضى سبعين سنة في الوعظ والافتاء ووضع الكتب الكثيرة في مختلف الموضوعات ، مات بعد ان طعن في السن سنة ١٢٠٨ ودفن في المصلّى . وعـــاد روزبهان من شيراز ، وقد ناف على العشرين من عمره ، الى مسقط رأسه فسا . وهناك تسنى له ان يتتلمذ روحياً على ابي الوفاء الفسوي . ولا بد من انه قرر في تلك الاثناء ان يؤدي فريضة الحج الى مكة مغتنماً الفرصة بذلك لزيارة العلماء والاولياء المشهورين المبثوثين في البلاد الاسلامية . ومهما يكن من امر فاننا نعلم ان انخراطه في الطريقة الصوفية ولبسه خرقة المتصوفة قد تما اخيراً على يد جاكر الكردي (توفي سنة ١١٩٥) الذي اتخذ زاوية له بالقرب من سامرا في العراق . وقد ساح روزبهان ، كما يُروى ، في البلاد حتى بلغ الاسكندرية حيث حضر حلقات السيلافي احد رواة الحديث المشهورين وهو من ابناء اصفهان وقد عمّر حتى بلغ المئة ومات سنة ١١٨٠ ، بيد ان كوربان يعتقد ، متبعاً في ذلك ماسينيون ، ان بطل هذا اللقاء كان رجلاً آخر بهذا الاسم. اما زيارته لسوريا و كرمان فلا مجال للشك بها.

في سنة ١١٦٥ عاد روزبهان الى شيراز ، ففي تلك السنة بنى زاوية قرب باب خدش ، وأسس حلقته الصوفية الخاصة . من الصعب ان يكون ذلك قـــد حدث دون موافقة السلطات وتأييدها. وهذا ما حدث بالواقع. فقد رُوي ان تقلا بن زنـكي ،

اتابك اقليم فارس الذي حكم من سنة ١١٧٥ الى سنة ١١٩٥ دعاه بنفسه للعودة من فسا الى شيراز . وفي شيراز ، وقبل ان يؤسس حلقته انخرط روزبهان للمرة الثانية في طريقة المتصوفة وألبسه الخرقة سراج الدين محمود بن خليفة (توفي سنة ١١٦٦) ، وهو احد افراد بني صليبا الاقوياء . هذا وليس من المستبعد ان يكون روزبهان قـــد اطـّلع في مكتبته على كتب الحلاج . واستطاع روزبهان ، بواسطة سراج الدين هذا ان يصل نسبته الروحية بابن خفيف ومنه بجميع اسلافه المتصوفين .

واتخذ روزبهان حياة التوجيه الروحي والتأليف . واسس طريقة خاصة سميت بالروزبهانية نسبة اليه . وقد انتشرت هذه الطريقة مع الايام وامتدت من اقليم فارس الى مراكش . وفي اواخر القرن الثامن عشر كانت هذه الطريقة لا تزال مزدهرة . وهناك دلائل تشير بأن حافظاً الشاعر كان منتمياً الى هــــذه الطريقة . وكان لهذه الاخوة شعائرها وطقوسها الخاصة بها ، وهي ولا شك شعائر وطقوس لطريقة عميقة التأمل ، متوحدة . ولذلك فقد دانت بدين الحب والجمال ، ذلك الدين الذي دعا اليه مؤسس هذه الطريقة لكي يأتي حافظ فيما بعد فيتغنى به . وبقي روزبهان يعظ في المسجد القديم وغيره لمدة خمسين سنة . وتـُروى عنه قصة حدثت اثر صعوده المنبر المرة الاولى ؛ فقد سمع امرأة تقول لابنتها : « يا بنية ، لا تظهري جمالك لأحد كي

لألا يصبح مُبْتَذَ » . فما كان منه الا ان خاطب الام قائلاً :
« ايتها الامرأة ، ان الجمال لا يرضى بأن يبقى محجوباً ، فهو يريد
ان يقترن الحب به ، فالجمال والحب تعاقدا سوياً ، قبل ان يكون
زمان ، بألا يفترقا ابداً » . فما كان من الحضور الا ان أصيبوا
بنشوة روحية .

تميزت الحياة في التكايا الصوفية بالغناء الروحي كل ليلة ،
ويدعى ذلك بالسماع . لا سبيل الآن الى تحديد الزمان الذي
دخلت فيه هذه العادة الى الاسلام ، ولكنها تعود ولا شك الى
زمن مبكر ، وقد تكون نتيجة للسامرات التي كانت تخفف
من ملل الحياة في البادية ، وذلك قبل الاسلام . يبدأ السماع
دائماً بترتيل القرآن ، وقد كتب الهجويري يقول ، «ان انفع سماع
للعقل واطربه للأذن هو سماع كلام الله . والمؤمنون والكافرون
على السواء البشر منهم والجن مأمورون بسماعه . ومن
معجزات القرآن ان المرء لا يمل قراءته وسماعه ، حتى ان بني
قريش كانوا يأتون خفية ليستمعوا الى الرسول يصلي ، فيعجبون
بقراءته » . وكان يتبع ترتيل كلام الله والصلاة عادةً انشاد
الشعر . « ان سماع الشعر مسموح به ، فقد سمعه الرسول ، اما
الصحابة فلم يسمعوه وحسب بل كانوا يقولونه ايضاً» . ويضيف
الهجويري قائلاً : « هنالك آراء مخطئة حول هذا الموضوع .
فبعضهم يحرم الاستماع الى الشعر مهما كان نوعه ، وقد قضى هؤلاء
حياتهم بذم اخوانهم المسلمين ، وبعضهم بعكس ذلك يحلل الشعر ،

وقد انصرف هؤلاء الى الاستماع الى الغزل ووصف وجه الحبيب وشعره والخال على وجهه » . وكانت هذه الانواع من الوصف تؤوّل بطبيعة الحال ، وهي تذكرنا بالشروح الصوفية « لنشيد سليمان» وقد وُضع حتى الشعر الخمري موضع الاستعمال واصبحت أشعار السكر لنديم البلاط ابي نواس ، المعروفة لقراء ألف ليلة وليلة ، مفضلة على غيرها ، اما وصف السكر فقد أوّل طبعاً بالنشوة الروحية .

يُروى كثير من الحكايات عن النشوة التي تنتـــج عن سماع الشعر الذي ينشد مقروناً بالموسيقى . « فكثيراً ما نرى ، مثلاً ، كيف ان الجمال والحمير تطرب عندما ينشد السائق صوتاً . ففي الهند ، كما هو معروف ، يذهب بعض الناس الى الريف ويأخذون بالغناء والصليل فتقترب الغزلان ويحيط بها القناصون آخذين بالغناء حتى تستسلم الى النوم نتيجة لسماعها الانغام المطربة ، وهكذا يستطيعون القبض عليها . ويظهر ذلك ايضاً في الاطفال اذ يكفون عن البكاء في المهد عندما يستمعون الى نغم يغنى لهم» . وما يحدث للحيوان ينطبق على الانسان انطباقاً اصح ، مع ان هنالك بدون شك « نتائج حسنة واخرى سيئة في كل حالة من الحالات . فالاستماع الى الاصوات الجميلة يحدث فوراناً في جبلّة الانسان . ويكون هذا الفوران حقيقياً اذا كانت الجبلة حقيقية ، ويكون زائفاً اذا كانت الجبلة زائفة . وعندما تكون طبيعة الانسان من مادة شريرة يكون ما يسمعه شراً ايضاً . وقـــد

صوّر هذا الامر ما روي عن داود الذي حبـــاه الله صوتاً حسناً وجعل من حنجرته مزماراً عذباً . فكانت تنزل السباع والطيور من الجبال والتلال تستمع الـــيه ويكف الماء عن الجريان وتقع الطير من الفضاء . ومما يروى ان الذين اجتمعوا من الناس حوله في الصحراء لم يذوقوا شهراً طعاماً وان الاطفال انقطعوا عن البكاء وما طلبــوا حليباً ، وعندما كان الناس يشدون الرحـــال كنت ترى كثيراً منهم وقد مات من النشوة من جراء الاستماع الى صوته . ويروى ان عدد الموتى بلغ ذات مرة سبعمائة فتاة واثني عشر الف شيخ . ثم ان الله شاء ان يفرق الذين يستمعون الى الصوت متبعين اهواءهم من الذين يتبعون الحق ويستمعون الى الحقيقة الروحية ، فسمح لإبليس ان يعمل ما يشاء ويظهر شره . وصنع ابليس ربابة ومزماراً واستقر قبالة المكان الذي كان فيه داود يغني . فانقسم المستمعون الى اخيار واشرار . فمن كتب له النعيم بقي يستمع الى صوت داود » .

اذا كان هنالك من خطر في حضور جلسات الشعر والموسيقى فان سعي الصوفي للوصول الى النشوة بالنظر الى قسمات مريد جميل الصورة يشكل خطراً اكبر بكثير . وقد ذم الهجويري صراحة هذا الامر فقال : « ان النظر الى الغلمان ومعاشرتهم امران محرّمان . ومن يحلل ذلك فهو كافر . اما الأحاديث المنقولة حول هذا الامر فهي باطلة فاسدة . وقد رأيت بعض الجهال يتهمون المتصوفة بهذا الجرم وينظرون اليهم بكراهية

شديدة ، ولاحظت ان بعضهم اتخذ ذلك قاعدة دينية ، غير ان الشيوخ المتصوفة كلهم متفقون على اعتبار مزاولة هذه الامور شراً ينسب الى الذين يقولون بالحلول – عليهم لعنة الله – والذين شوهوا سمعة أولياء الله ومريدي الصوفية » . بيد ان الحلاج قتل بعد ان اتهم بأنه من أكابر الذين يقولون بالحلول . ولا شك في ان روزبهان الذي كان يعجب بالحلاج ، كما سنرى ، سعى لأن يسوّغ ما اتهم به الحلاج فاعتبر « الشخوص » مظهراً مهماً في مجالسه الروحية . وتظهر لنا القصة المذكورة اعلاه التي رواها عراقي هذه النقطة ، وتسجل بطريقة عفوية مقدار الاحترام الذي كان يغدقه على روزبهان سعد ابن زنكي شقيق تقلا وخليفته في اتابكية اقليم فارس .

ويروي احد احفاد روزبهان وواضع ترجمته ان استاذ الولي في علم الحديث ، وهـــو شيخ طاعن في السن يتصف بالرصانة والتدين ، حضر ذات مرة مجلساً في تكية الولي فوقع في نشوة تامة من جراء ما رأى وسمع . وفي صباح اليوم التالي افتقد من حلقته المعتادة في المسجد ، وقد ليم على استغراقه مع الشيخ بهذه النشوة في الليلة السابقة . فقال : « لماذا ؟ لو ان ملاكاً مقرباً رأى ما رأيت عندما كنت بصحبة روزبهان لاضطر هو ايضاً لان ينضم الى حلقة الرقص » . غير ان روزبهان ، في اواخر حياته ، وقد مات سنة ١٢٠٩ ، طلق عادته المفضلة هذه قائلاً : « انني الآن اتلذذ بالسماع مباشرة من الله ، فمن الآن وصاعداً سأنقطع من

السماع مع اي واحد آخر » . وفي السنوات الاخيرة من حياته ، اصيب بشلل نصفي عجز ، على شدته ، عن ان يخفف من حدة ولائه . ذهب مرة احد تلاميذه الى القاهرة بدون ان يعلم معلمه بذلك ، بغية الحصول من بيت المال على كمية من زيت البلسم النقي وهو دواء يوصف ضد هذا المرض . فلما اتى بالدواء الثمين وقدمه الى روزبهان قال له هذا : « كافأك الله على نيتك الطيبة ، اذا خرجت الآن من باب التكية ترى كلباً اجرب مسكيناً وقد استلقى على جنبه ، فادهنه بهذا الزيت . واعلم ان آلام روزبهان لا تزول بزيت دنيوي ، فما مرضه الا قيد من قيود الحب قيّد الله تعالى بـــه قدمه الى ان يصل الى نعمة رؤيته تعالى وجهاً لوجه » .

ان روزبهان ، الذي بدأ حياته بقالاً ، لم يشب صوفياً شهيراً وحسب بل اصبح عالماً متعدد المعارف واسعها. ونحن اذا اصابنا العجب من ذلك فانه عجب ذاتي ناتج عن قياسنا الامور بمقياس الحاضر . ففي العصور الاسلامية الوسطى ، اي قبـــل قيام المتخصصين وظهورهم كطبقة متميزة ، كانت لكل رجل الحرية بأن يؤلف ويفوز باعتراف الناس له بالفضل او بتخليهم عنه ، وذلك حسب ما يستحق . وقد كان ذلك من اسهل الامور لعدم وجود درجات دينية . فالاسكافي يمكنه ان يحاضر بالتفسير او علم الكلام بمجرد حضوره الى المسجد ، ولكن كان على من يسعى الى الوصول الى القيادة الدينية والعلمية ، اذا اراد ان

يحصل على احترام اقرانه وثقتهم به في عصر بلغت فيه المنافسة اوجها ، ان يؤمّن الوسائل التي تدل على انه درس على رجال ثقاة ، وذلك عندما يكون حدثاً او حتى اذا كانت قد تقدمت به السن ، مع انه قد يكون هؤلاء الثقاة متخذين مهنة يدوية يمتاشون منها . وقـــد انتشرت عادة منح الاجازات للذين يحضرون الحلقات . فكان صاحب الحلقة يكتب في مخطوطة التلميذ بأنه منحه اجازة تعليم هذا الكتاب او ذاك الذي كان هو قد علمه اياه باجازة من معلمه وهكذا دواليـــك حتى تتصل السلسلة بمؤلف الكتاب نفسه . وقد ادى تأسيس المدارس القرآنية ومعاهــد درس الحديث والشريعة ، وكليات عـلم الكلام والفلسفة ، وفي الوقت ذاته تأسيس التكايا الصوفية ، الى اقامة مراكز يقيم فيها العلماء المحققون يعلمون ويؤلفون ، وهذه المؤسسات التي كانت رئاستها في غالب الاحيان وراثية وقف لها منشئوها والمحسنون والحكام المحليون عادة ، والوجهاء الوقوفات من عقارات واراض يدفع من ريعها للمعلمين الرواتب كما يمنح غالباً الطلاب الفقراء المعونات الكافية . هكذا كانت الحالة في التكية التي كان يقيم فيها روزبهان في اواخر ايامه بعد ان عاد من رحلته التي دامت ما يقارب العام .

يعود لروزبهان الفضل بأنه وضع ما يقارب سبعة وعشرين كتابا بالعربية والفارسية . ففي وقته كانت الفارسية قد عادت لتثبت اقدامها بصفتها لغة للادب والعلم ، بيد ان العربية

احتفظت بقاءها على انها لغة الاسلام ولغة المؤلفات الدينية .
وقد تحدرت الينا من نتاج روزبهان الضخم هذا الذي اضيفت اليه فيما بعد مجموعة من الشعر ، مؤلفات تبلغ على الاقل تسعة .
وقد وضع تفسيرين للقرآن ، قام احدهما – وقد ضاع – على اسس سنّية في شرح تقليدي للقرآن . اما الآخر ، ويوسم بـ « عرائس البيان »، فيتضمن تأويلاً صوفياً لكتاب الله . وفي هذا المجلد الذي نسخ (في لوكنو سنة ١٨٨٣) بـ ١١٠٧ صفحات من الحجم الكبير ، اتبع روزبهان طريقة الصوفيين المتقدمين امثال التستري (توفي سنة ٨٨٦) والسلمي (توفي سنة ١٠٢١) والقشيري (توفي سنة ١٠٧٢) . وقد ضمن روزبهان كتابه هذا ، بالاضافة الى مفهومه الباطني لكتاب الله ، تأويلات خاصة لمتصوفين متقدمين كالجنيد والشبلي والحلاج . ومعظم اولئك المتصوفة لم يكتب قط اي تفسير كامل للقرآن . وهكذا فان لهـــذا الكتاب الضخم الذي لا يزال بانتظار من يحققه تحقيقاً علمياً ، اهمية اساسية في درس الطريقة التي فهم بها الصوفيون كلام الله في شرحهم الخاص لعلم اللاهوت الصوفي .

اما في علم الحديث فقد وضع روزبهان مؤلفين ضاع كلاهما .
كذلك فانه تفوق في علم الفقه اذ وضع مؤلفاً ، ضاع ايضاً ، درس فيه نظريات المذاهب السنية الاربعة في الفقه مفضلاً منها المذهب الذي اسسه الشافعي (توفي سنة ٨٢٠) وهو المذهب الذي يفضله معظم المتصوفة . هذا وضاعت ايضاً ثلاثة مؤلفات

في علم الكلام. اما بقية نتاجه ، وهي تؤلف معظم ما كتب ، فقد تناولت بطبيعة الحال مختلف القضايا الصوفية . وسندرس بشيء من التفصيل احد هذه الكتب التسعة عشر التي لا تزال ثمانية منها في حيز الوجود . هذا الكتاب الذي سنتناوله هو « عبهر العاشقين » وقد اصبح لحسن الحظ في مقدور الجميع ان يدرسوه ويتمتعوا به . ولكن قبل ان نبدأ بهذه الرسالة عن الحب الصوفي والتي بلغت غاية البلاغة ، علينا ان نلفت النظر الى اهمية مؤلفات عدة لا تزال مخطوطة ، وقد زودنا كوربان، الذي وعـــد بتحقيق مؤلفات اخرى لروزبهان ، بمعلومات مفيدة عنها .

اما « منطق الاسرار » الذي ألفه بالعربية فهو « اول كتاب من كتب روزبهان الاساسية في التصوف » . وقد جمعه في فسا حوالي سنة ١١٧٥ حيث كان معتزلاً بانتظار دعوة الاتابك تقلا له للعودة الى شيراز . ويهتم الكتاب بصورة خاصة بتفسير الشطحيات وهي ما نطق به الصوفيون في حالات النشوة ، وهي عبارة عن اقوال متناقضة الظاهر كقول البسطامي : « سبحاني ما اعظم شاني » ، او قول الحلاج : « انا الحق » . وقد هزت هذه الاقوال اهل السنة هزاً وتعدّت على حرمتها . والكتاب يتضمن ايضاً شرحاً لـ « كتاب الطواسين » وهو من كتب الحلاج الصعبة التي عرض فيها فلسفته اللاهوتية ، ومن اكثرها انتقاداً من الآخرين . هذا ولما عاد روزبهان الى شيراز حثّه احد طلابه

المفضّلين على نقل هذه الرسالة الى اللغة الفارسية التي اصبحت اقرب الى فهم الناس في تلك البلاد . فنزل عند رغبته وذهب حتى الى ابعد من ذلك اذ وسع كتابه القديم توسيعاً ملحوظاً مقدماً لنا « خلاصة صحيحة للتصوف » . وقد علق عليه كوربان الذي وعد بنشر هذا النص فقال : « ان لهذا المؤلف اهمية كبرى حتى ان عدم نشره يسبب في الحقيقة فراغاً خطراً في معرفتنا للتصوف . وعندما ينشر هذا الكتاب يصبح بامكاننا ان نفكر بنقله الى الفرنسية فيتسنى للمرء اذ ذاك ان يفقه اهمية روزبهان ليس فقط في التصوف الاسلامي وعلى الاخص الفارسي منه بل اهميته في معرفتنا للروحانية الصوفية على وجه العموم » .

انه لمن المؤسف ان كثيراً من النصوص الاساسية في فهم الحضارة الاسلامية وشرحها – ولا حاجة الى الدلالة على عظمة اهميتها ومنجزاتها – لا تزال طي مخطوطات نادرة غالباً ما تكون موجودة في مكتبات نائية يصعب الوصول اليها . ان ما يرجى حصاده كثير ولكن العمال قليلون الى حد يرثى له ، وذلك لاسباب وجيهة اهمها ان الدراسات الاسلامية محرومة منذ زمن طويل من اي اعتمادات في الجامعات والمتاحف كما ان الالمـــام باللغات الخاصة بالمنطقة والشديدة الصعوبة وبالاصول المتبعة غالباً ما يكون بعيد المنال وغير مجزٍ . هذا اذا لم يكن بالفعل عقيماً لا يؤدي الى نتيجة . ثم ان تكاليف طباعة الكتب العربية والفارسية قد ارتفعت ارتفاعاً مدهشاً حتى ان المحققين تتثبط

عزائمهم لصعوبة وجود دار نشر تنشر لهم هذه المؤلفات ذات التكاليف الخيالية والتي لا ينتظر ان يباع من نسخها الا القليل . وهكذا فان العلوم الاسلامية في القرن العشرين قد علقت في حلقة لولبية متضخمة مفرغة تزيد ضيقاً كلما زادت ارتفاعاً . وبدلاً من ان تتوسع هذه الدراسات ، كما كانت عليه في عصرها الذهبي في القرن التاسع عشر وكما يجب ان تكون عليه تقاليد العلم ، وكما تتطلب العلاقات بين البشر ، نرى ان العمل في هذا الحقـــل المهم الحيوي من البحث الجدي يبدو وقد كتب له التقلص . فلدى الحكومات ووكالاتها وحدها الوسائل الناجعة لمكافحة هذا الاتجاه الهدام . وليس هنالك حكومات كثيرة – واعني بذلك مستشاري هذه الحكومات الرسميين – تحمل على تقدير القيمة الاصلية لنتاج الروح الانسانية وعلى تقدير قيمة التآليف الاسلامية التي لم يتسن بعد للقسم الاكبر منها ان ينشر وعلى تقدير قيمتها في القضايا المعاصرة .

لم يكن روزبهان المؤلف الاول في الاسلام الذي كتب في موضوع الحب بنوعيه : الروحي والدنيوي . فالتقليد الذي يقضي بأن يبقى العاشق وفياً حتى الموت كان تقليداً قوياً بين افراد قبيلة بني عذره في الجزيرة العربية منذ ما قبل الاسلام . وقد تغنى جميل بن معمر في شعره بالوفاء البطولي بعاطفة تتنكر لكل انانية . وقد مات هذا الشاعر حوالي سنة ٧٠٠ ليضع ابن داود بعد قرنين من الزمان « كتاب الزهرة » جامعاً فيه كثيراً

من الحكايات والاقوال والاشعار التي تدور حول الحب الانساني في جميع حالاته . وابن داود هذا كان مطلعاً على نظرية افلاطون التي تقول بوجود الروح قبل الولادة . هذا وقد ألّف العالم الاندلسي ابن حزم الذي مات سنة ١٠٦٤ كتابه الشهير « طوق الحمامة » الذي يقال انه كان له الاثر الكبير على مفهوم الحب الفروسي في العصور الوسطى . وفي هذه الاثناء كتب كثير من المتصوفة في سر الحب الالهي والولاء الصوفي والاخلاص الثابت للاله المحب المحبوب ، وفي عذاب المحب بسبب الغيبة ، وفي سكر لذته بالاتحاد وفي استحالته الى فناء الصفات البشرية باستسلامه الى ارادة الله المالكة ، وفي خلوده بالفناء الروحي في الذات الالهية ، وهي امور تشابه موضوعات الحب الدنيوي مشابهة غريبة ألهمت هذا الادب الجديد الجميل الذي يعد كتاب « عبهر العاشقين » مثالاً له رائعاً . وقد سبقت ذلك تآليف اخرى عولج فيها ثالوث الحب والمحب والمحبوب وذلك في ما كتبه الديلمي واضع سيرة ابن خفيف وفيما كتبه احمد الغزالي (توفي سنة ١١٢٦) ، شقيق الامام الغزالي ، وعين القضاة الهمداني الذي اتهم بالكفر وقتل سنة ١١٣١ عن عمر ثلاثة وثلاثين عاماً ، اي بعد ان ولد روزبهان بثلاث سنوات . اما الطيب الذكر ريموند لل الذي أرسل مبشراً الى الاندلس وقتل رجماً بالحجارة في بوجيه سنة ١٣١٥ ، فيرينا في مقدمة كتابه الموسوم بـ « كتاب العاشق والمعشوق » بأنه يعلم تمام العلم بأن « بين العرب بعض الرجال المتدينين ومن بين هؤلاء رجال يسمّون

بالمتصوفين هم ارفعهم قدراً ولهم اقوال في الحب وسنن يمتثلها الناس . وتلك اقوال تتطلب الشرح ، فيشرف الفهم وتسمو الارادة وتزداد ولاء واخلاصاً » . ولا شك في أن لسَلّ قرأ « اقوال الحب » هذه في اشعار ابن الفارض القاهري (توفي سنة ١٢٣٥) وابن عربي المرسي (توفي سنة ١٢٤٠) اللذين حافظا مع عراقي وحافظ والجامي والشعراء الفرس عامة ، على هذا التقليد الذي ورثه روزبهان وحافظ عليه حياً حتى عصرنا الحاضر .

ويروي لنا ابن عربي في كتابه الضخم « الفتوحات المكية » انه بينما كان روزبهان مقيماً في مكة وقـــع في غرام غانية . وبلغت به العاطفة مبلغاً جعله يطلق الآهات والزفرات مما سبب ازعاجاً كبيراً للحجيج عند طوافهم بالكعبة . وعلم ان محبته السابقة للمحبوب الإلهي قد تحوّلت الى تلك المرأة الغانيـــة ، فأبى ان يخفي هذا الامر عن رفاقه المتصوفة ، فخلع خرقته واعترف لإخوانه بذنبه . ثم انه تعلق بالغانية وأصبح كخادمها. وعلمت هذه بشعوره وبأنه رجل من رجال الله الكبار، فخجلت مما فعلت به وتابت الى الله من حياتها المستهترة ، فقبل الله توبتها اكراماً لإخلاص الولي ، وتعلقت هي بدورها في خدمة الشيخ وقدّر الله روزبهان ان يتخلص قلبه من التعلق بها فعاد وانضم الى رفاقه المتصوفة . ويعتقد كوربان ان هذه المغامرة اوحت لروزبهان بأن يضع كتابه « عبهر العاشقين » ويتألف الفصل الاول منه من سيرة حياته ويتكلم فيه عن امرأة من مريديه .

« اما بعد افهم يا اخي ، انني عندما انتقلت من مقـــام العبودية الى عالم الربوبية ورأيت جمال الملكوت بعين ملكوتية أخذت ارتقي في منازل المكاشفات آكلا على مائدة الروحانيين طعام المقامات والكرامات الصوفية . فطرت مع طيور العرش في فلك العليين، وشاهدت بعين وحدته تعالى رؤيا تجلي الحـــق الصافي . وكان شراب الحب الالهي يُكرع من قدح الجمال النقي ويسيل في حلق روحي ، وكانت حلاوة الهوى الازلي تدثر قلبي في حلة العرفان الصوفي والحدس الهيولاني ، وكنت انتقل بقوة في بحر المعرفة الالهية وأمخر عبابه ، شاقاً طريقي عبره ، بسفينة الحكمة الى ان وصلت الى شواطىء صفات الامر الالهي ...

« وأخذني الله الى حماه ، وأزال عني ثوب العبودية وألبسني ثوب الاحرار قائلاً لي : لقد اصبحت عاشقاً حقاً ، تهوى وتحب وتريد ، لقد اصبحت حراً تنطق بكلمات النشوة ، عارفاً ، مخلوقاً من الجمال معترفاً بإله واحد احد اعترافاً مخلصاً ، فاعمل الآن من خلال عملي وانظر بعيني واسمع بأذني وتكلم بكلامي واحكم بحكمي واحب بحبي فلأنت من عداد اوليائي ، مطمئن في حماي ، امين من غضبي تكلأك عنايتي ، غير اني سأمتحنك بمحنة الهوى وسأبتليك بالحق ، فمن احبك فسأنقذه من آلام عذابي وسيكون في عداد مريدي المختارين ومن عداد اوليائي .

« وعندما أتمت روحي دور المملكة السماوية ويوم عالم القوة، اذا بغم يصيبني فرأيت نفسي في السر بين مخالب الهوى . واذ

عدت من ذلك العالم الآخر قاسيت آلاماً مبرحة من الادراك وفي الوقت ذاته عدم الادراك ، وتلك هي حالة المحنة الارضية التي لا مفر منها . ثم اني اتخذت مسكني في عالم الجمال ، وفي مكان المحنة هذا برّحت روحي سهام الحب، فتاقت نفسي الى بعض الحلاوة، وسعى عقلي الى البحث عنه تعالى الذي خلق مثل هذا الجمال . واحرقني لهيب التوق الى الجمال الالهي فاذا بي ارتحل الى عالم الفانيات .

« وقادتني خطاي صدفة الى سوق المخلوقات الجميلة فكنت ابحث في كل صدفة عن لؤلؤة النعمة الخفية، واذا بي ارى في اعلى ساحة الجود جمال تلك الصفات وقد انعكس هذا الجمال على مرآة آيات الله . وكان طائر جنة الازل يختبىء في عش الآلاء الالهية، وقد ستره حجاب مصنوعات الله . ففنيت الصنعة بالصانع وادركتُ كم كان هذا نادراً وعجيباً وعرفت من هو هـــذا ، وشخصت عين ذاتي ، بدون ارادة مني ، بتلك المرآة ، وطغت عليّ فتنة الحب الشديد ، وبقيت عين ذاتي شاخصة بالصانع بينما كانت عين العقل تنظر من خلال الكفر الى الصنعة . ورأيت بعين ذاتي الجمال الازلي ، وبعين عقلي نظرت فعاينت الصورة الانسانية .

« ثم انها قالت لي : انظر بعينك الانسانية الى عـــالم الانسان . وسيطرت عين قلبي على نظري الجسماني فرأيت حورية لطيفة جميلة ، يوقع جمالها ولطفها كل من على هذه الارض

في الحب الشديد ، وكانت هذه الظبية بمشيتها الرشيقة تجعل الاسود فريسة لحبها ، سهلة الانقياد ، وكان سحرها وملاحتها يملآن الزهاد نفوراً من مجالسهم السماوية . وشخصت بها وهي تسير رشيقة على الارض، فمزقت عن وجه الزهد حجاب الحياء، وفي صمت توجهت اليها قائلاً :

انت اسمى من الجوهر والعرض

عندما وجد عالم الكون كنت انت المقصودة

فالعروش والطنافس هي فناء لك

والخلق كله هو مصنع لك ،

ولكن ما هذا الشخوص بالجمال الجريء ؟ ان النظر الى غير الله هو كفر في نظر الصوفية. فالعقل والعلم هما مضيعة للعمر» .

وتتبع ذلك محاورة رقيقة بين الصوفي وغاويته البشرية . تسعى الفتاة فيها الى سبر اغوار معرفة المعجب بها الروحية . واخيراً تقتنع بما تكتشفه . فتسأله بالعربية : « أتستطيع ان تشرح لي سر انشغال الحب البشري بالحب الالهي في كتيّب باللغة الفارسية يكون دليلاً لنفوسنا ولكل من يعشق حقيقة ويعشق ؟ » فيجيب روزبهان على سؤالها ويكتب رسالته في ثلاثين فصلاً .

يضيق المجال هنا عن ايراد مقطوعة اخرى طويلة من كتاب هو الاول من نوعه من حيث البلاغة الادبية ، هذا الكتاب الذي يتأمل فيه المؤلف من حين الى آخر موضوعات الحب والجمال السامية دون اتباع اي قاعدة مدروسة ، بل ، كما يبدو ، باتباع خواطر الالهام الآنية اتباعاً كيفياً كما تتفجّر في وعيه واحساسه. ان ترجمة ذلك لا تعبّر عن شيء من العبقرية المتوقدة المتجلية في الاصل ، والشبيهة في موسيقاها بموسيقى ديبوسي ، موسيقى اشعة الشمس ترقص على المياه المتموجة بنعومة ، هذا الارهاف الروحي الذي يتصف به التأمل الفارسي اتصافاً فريداً . هنا تخطر على البال ابيات لروبرت بردجز تنطبق على روزبهان وعلى زملائه المتصوفة والفنانين والصناع انطباقاً وثيقاً :

أحب الاشياء الجميلة كلها
فأنا اسعى اليها وأعبدها ،
فلا يمكن ان يحمد الله بأحسن من ذلك ،
والانسان في ايامه هذه السريعة
يكرّم لاجلها .

انا ايضاً اريد ان اصنع شيئاً
وان أتلذذ بما اصنع ،
مع ان الغد يبدو
وكأنه كلمات حلم فارغة
يتذكرها الناس عندما يفيقون .

غير ان الكلمات ليست فارغة، فللحلم جوهر خاص. ونحن، بعد كل هذه القرون من غارات البرابرة ومذابحهم الدموية وخصوماتهم الداخلية ، وصغارة حروبهم القبلية ، والزلازل والاوبئة التي اجتاحت بلاد فارس الطيبة وارض مدينة شيراز الفخورة ، لا نزال نذكر اولئك الرجال والنساء الذين أقاموا يوماً في تلك المدينة وسعوا ليجعلوها مدينة جميلة . اننا نذكر باعجاب الحياة التي عاشوا ، وندرس بسرور بالغ الكتب التي كتبوا ، فهم لذلك يكرّمون الى يومنا هذا ، وليس فقط في ايامهم تلك السريعة .

٥ مدينة الشعراء : سعدي

بقيت شيراز مصونة من الارزاء التي عمّت بلاد فارس في القرن الثالث عشر صوناً اقرب ما يكون الى المعجزة . وقـــد نقلت هذه المدينة الى الاجيال المتعاقبة ، بفضل ما كان عليه حكامها من حكمة وتعقل ، التقاليد الحضارية الراقية والحياة المتمدنة التي تحدرت من العصور الماضية . ففي ذلك الوقت كما قال البارون دوسون : « كان المغول ، الذين فاقوا بقساوتهم اشد الشعوب بربرية ، يجتاحون البـــلاد ويقتلون الرجال والنساء والاطفال ويحرقون المدن والقرى ، ويحيلون الحدائق الغناء الى صحارى جرداء ، دون ان يحدوهم الى ذلك اية كراهية او ثأر ، ذلك انهم لم يكونوا يعلمون حتى اسماء الشعوب التي أعملوا فيها السيف . ولو لم تكن الاخبار التاريخية في جميع البلدان متفقة على ذلك لظن المرء ان التاريخ بالغ في وصف وحشيتهم تلك . اما بعد الفتح فقد اخذ المغول يعاملون الذين نجوا من حد السيف معاملة العبيد . فقد كان حكمهم يعد نصراً للحرمان ، اذ داسوا على كل ما هو سام وشريف في حين ان أشد الناس فساداً ممن التحقوا بخدمة اولئك الاسياد المتوحشين حظوا بالثروة والشرف

والقدرة على اضطهاد المواطنين مكافأة لهم على ولائهم الدنيء .
وهكذا فان تاريخ المغول الموصوم ببربريتهم ، يعطينا صورة على اشد ما تكون من القبح . ولكن لصلة هذا التاريخ الوثيقة بتاريخ غيرهم من اصحاب الامبراطوريات ، لا بد لنا من دراسته لكي نفهم احداث القرنين الثالث عشر والرابع عشر فهماً صحيحاً » .

انقض اول هجوم شامل للفتح المغولي على مقاطعة ما وراء النهر الشمالية الشرقية فأحاطت القوات المغولية بها من كل جانب، وذلك منذ سنة ١٢١٩ فصاعداً. وفي سنة ١٢٢٠ سقطت بخارى لتتبعها سمرقند على الفور ، ثم جاء دور خوارزم وبلخ ونيشابور ومرو . وقد قدّر المؤرخ العربي ابن الاثير مجموع من ذُبح في مرو بـ ٧٠٠,٠٠٠ ، غير ان الجويني ، الذي كتب تاريخ المغول مرضاة لهولاكو خان سفاح بغداد ، رفع هـــذا العدد الى ١,٣٠٠,٠٠٠ ، « وذلك دون احصاء الذين بقيت جثثهم في اماكن غير منظورة » . وعندما سقطت نيشابور ، مسقط رأس عمر الخيام . « قطعت رؤوس القتلى ، كي لا يبقى بينهم احد على قيد الحياة ، ثم كدّست هذه الرؤوس بشكل اهرامات ، بعد ان فرّقت رؤوس الرجال والنساء والاولاد ، كل على حدة » .
لقد كانت تلك الايام حقاً ايامَ « ليهرب من يستطيع الهرب » : فقد انتشرت في العالم الاسلامي كالنار في الهشيم اسطورةُ انفتاح السور وظهور يأجوج ومأجوج انذاراً بانتهاء دور الدنيا، وتفرق

من هذه المدن اليائسة من اسعده الحظ ايدي سبا ، هرباً من هذا الرعب المشهود الذي لم يخطر على قلب بشر. فالتجأ بعضهم، مثل الشيخين نجم الدين دايا وجلال الدين الرومي الذي كان لا يزال في مقتبل العمر ، الى السلاجقة في آسيا الصغرى ، كما التجأ آخرون الى شيراز وقد كانت منذ سنة ١١٤٨ تحت حكم الاتابكة السلغُريين الامين، حكام اقليم فارس . وكان من جملة الذين بدأوا حياتهم من جديد تحت حماية سعد بن زنكي ثم ابنه وخليفته ابي بكر بن سعد رجل يدعى شمس قيس وهو خير من كتب عن الادب الفارسي نثره وشعره .

تلك هي الأسس الصاخبة التي رست عليها الحياة التي سنروي وقائعها ادناه . والآن لنلبّ الدعوة التي وجهها بقلمه الساحر السير ادوين ارنولد وهـــو الذي اشتهر بكتابه « نور آسيا » Light of Asia الدائم الاخضرار :

عُدْ معي ثانية من اجوائنا المظلمة
لنسمع سعدي العظيم يغني اسراره الملحنة
« بلبل ألف قصيدة » — فسيعزف
وسط الحديقة كثيراً من الألحان
الفارسية النادرة . ولكن انشدْ لهم اولاً اغنيتي ! —
كي لا يظلموك ويظلموني ويظلموا سعدي ،

قل لهم ان يأتوا بقلوب نزاعة الى الأفكار اللطيفة،

فأغنيتي هذه هي لذوي الحكمة والرأفة ؛

اما حديقتنا فتنطوي على نفسها وتغلق ابوابها

في وجه القساة الباردين الجفاة

وتفتح طرقها الخضراء الهادئة واسعاً ،

تلبية لدعوة الحب والخير والسلام !

ولد سعدي، كما تقول الرواية التقليدية، في شيراز سنة ١١٨٤ او سنة ١١٨٥ ومـات فيها سنة ١٢٩٢ ، ولا داعي للشك في صحة هذا التاريخ الأخير . اما اذا كان تاريخ ولادته صحيحاً فيكون هو ايضاً من اولئك المعمّرين الصالحين . بيد ان البحث العلمي الحديث يؤخر تاريخ ولادته الى حـوالي سنة ١٢٠٨ كما يرفض الرواية التي تقول بأنه لقّب بسعدي نسبة الى حماية سعد ابن زنكي له . وهنا تجدر الاشارة الى انه في كل ما نظم من اشعار لم نجد بيتاً واحداً قدمه الى ذلك الحاكم ، مع ان ابن سعد وحفيده كليهما حظيا بمدائح له سخية . هـذا ويقول لنا سعدي انه فقد اباه وهو في سن مبكرة – ومع ان تآليفه لا تخلو من الخيال الشعري عند ذكره للكثير من المعلومات عن حياته ، فليس يوجد من سبب لرفض هذه المذكرات :

ان الآلام التي يعانيها اليتامى اعرفها جيداً

فعندما كنت طفلاً حرمت من العطف الابوي.

وفي كتابه الاشهر « كلستان »[1] يقول سعدي بنثره المسجّع البليغ : «لا أزال اذكر انني كنت في عهد طفولتي مولعاً باحياء الاسحار زاهداً متقياً وفي ذات ليلة قعدت لخدمة ابي والمصحف الشريف في حجري اقرأ منه ما شاء الله ان اقرأ ولم ينطبق لي جفن على جفن . وكان الجماعة الذين اتوا للسمر عندنا قد غرقوا بنومهم فقلت لأبي : « ان واحداً من هؤلاء لم يرفع رأسه ولم يتهجد بركعتين ولقد استغرقوا في نومهم فكأنما هم اموات ». فقال لي : « يا روح ابيك انت ايضاً لو انك نمت لكان خيراً لك من ان تمزق جلود خلق الله »[2] . ليس في مغزى القصة ما هو غريب . اما اذا كانت هذه القصة قد وقعت فعلاً فيجب ان نستنتج منها ، مع عبد العظيم كراكاني اول عالم فارسي حاول ان يعيد كتابة سيرة سعدي بطريقة علمية ، ان الشاعر كان على الاقل في الثانية عشرة من عمره عندما فقد أباه .

في سنة ١٢٢٦ (وفي رواية اخرى في سنة ١٢٣١) انتهى حكم سعد بن زنكي ، ليعتلي العرش ابنه ابو بكر الذي سبق له

---

١ – نقل هذا الكتاب الى العربية محمد الفراتي تحت عنوان « كلستان ، روضة الورد» ، وزارة الثقافة والارشاد القومي ، مديرية التأليف والترجمة ، دمشق : ١٣٨١ هـ / ١٩٦١ م .

٢ – المرجع السابق ، ص ٩١ .

ان حصل على خبرة في ممارسة الحكم عندما كان ابوه في اسر السلطان محمد شاه خوارزم . كان عهد سعد الذي تميز بالخير والاحسان قد تلوثت السنوات الاخيرة منه بالحوادث الدامية التي وقعت بعيداً في الشمال الشرقي من بلاد فارس ، واضطربت نتيجة لمطامح خوارزمشاه بمد سيطرته المهددة على جميع البلاد ، هذه المطامح التي جاءت في غير اوانها بالنسبة الى سعد بن زنكي. ذلك ان جلال الدين بن محمد ، الذي عجز عن الوقوف بوجه المغول ، رأى ان يعوّض عن هزيمة المغول له في عقر داره بأن يوجّه حملة تتصف بالجنون على البلدان المجاورة ، فسقطت اصفهان واعتصم سعد في قلعة اصطخر القديمة . وفي سنة ١٢٢٤ هوجمت شيراز ونُهبت . كان سعدي في تلك الاثناء في سن تخوّله تحصيل العلم الثانوي الممتاز في عاصمة اقليم فارس بالرغم من كونه يتيماً ولكنه قرر ان مستقبله هو في غير مسقط رأسه ذلك الذي مزقته الحروب :

أتدري لماذا طوّحت بي يد النوى
فأمسيت في نجوى بعيداً عن الصحبِ

لِما نظرت عيني من الترك انها
ملاحم خزي كدت اقضي بها نحبي

قد اشتبكت فيها الانام بحالة
تشابه شعر الزنج في مأزق صعب

الى آدم تنمى التتار وانها
ذئاب ولوغ نابها مرهف الغربِ

واذ تركت تلك الفهود طباعها
رجعت قرير العين تواً الى صحبي

فألفيت شعبي في امان وغبطة
وألفيت جند الشعب كالاسد في الحرب[1]

هذا ما يقوله لنا سعدي في «كلستان» ، اذا كانت هذه الابيات حقيقة له .

رحل سعدي من شيراز الى بغداد ، ولما تكن قد سمعت بأحوال المغول . وهناك اكمل علومه في المدرسة النظامية المشهورة . والقول الشهير بأنه تتلمذ على العلامة الكبير ابن الجوزي الذي مات سنة ١٢٠٠ ، هو بالبداهة افتراض خاطىء نشأ من الخلط بين ابن الجوزي هذا ورجل آخر مذكور في احدى حكايات سعدي . اما زعمه بأنه لقي الصوفي شهاب الدين السهروردي (توفي سنة ١٢٣٤) ، مؤسس الطريقة الصوفية المشهورة ، فليس بعيداً عن الحقيقة .

غادر سعدي بغداد الى سوريا حيث وقع في سنة ١٢٢٩ على

---

١ – المصدر السابق ، ص ١٣ – ١٤ . اما الترجمة الانجليزية فنقلها المؤلف من ا. غ. براون .

الارجح في اسر الصليبيين . ثم تزوج عند خروجه من الاسر من فتاة زواجاً لم يحالفه الحظ . يقول في ذلك : « اعتراني ملل من صحبة اخواني في دمشق فخرجت هائمـــاً على وجهي في بادية القدس، وانست بصحبة الوحش بعد صحبة الانس. ولكني وقعت اسيراً بيد الافرنج فأصبحت اشتغل بالطين مع اليهود في خندق طرابلس[1] . حتى مرّ بي احد رؤساء حلب وكان بيننا سابق معرفة فقال لي : ما هذه الحال وكيف صرت الى هذا المآل ؟ فقلت :

هربت الى الصحراء عن صحبة الورى
الى الله لا أبغـــي سواه انيسا

تصوّر بهذا الوقت مـــا هي حالتي
مع البَهْمِ في الاسطبل صرت حبيسا ...

فرحمني ورق لحالي وافتداني من اسر الفرنجة بعشرة دنانير واخذني معه الى حلب . وكانت له ابنة فعقد لي نكاحها بمائة دينار وبعد ان بنيتُ بها ظهر لي انها سيئة الطبع مجبولة على العناد مخلوعة العنان سليطة اللسان فنغّصت عليّ عيشي ...

---

١ – في الاصـــل الانجليزي « حلب » ، ويجب ان تكون « طرابلس » حسب الاصل الفارسي .

سيئة الخلق بدار الخيّر ِ جهنّم من قبل يوم المحشر

حذار ِ من امثالها حذار ِ وقل: قنا ربّ عذاب النار

وذات مرة اطالت بي لسانهـــا واستمرت تقول : « ألست انت ذاك الذي اشتراك ابي فأعتقك من قيد الفرنجة بعشرة دنانير » ، فقلت : بلى هو الذي اشتراني بذلك المقدار ولكنه اوقعني بأسر يديك بمائة دينار »[1] .

انها قصة اخلاقية لا بُدّ انها نالت استحساناً كبيراً في مجتمع يحتل فيه الرجل المقام الاسمى . ولكن من يدري ، ربما كانت كغيرها من القصص قد وضعها سعدي لمجرد مغزاها الاخلاقي . ولذلك فليست بأكثر من غيرها ركوناً اليها . ففي اول حكاية من حكايات « كلستان » يروي سعدي قولاً يستحسنه لاحـــد الملوك : « الكذب الذي يجر من ورائه نفعاً خير من الصدق الذي يثير فتنة »[2] ، ومهما يكن من امر فان معظم هذه الاخبار ترمي الى مغزى اخلاقي معروف ، كما هي الحال في دعـــواه المشهورة التي ذكرها بالتفصيل في كتابه « بوستان » ومؤداها انه قتل كاهن هيكل هندوكي في سومنات في كوجرات بعد ان اكتشف حيلته التي يتقرب بها الى السذج . وقد علـّق على ذلك

---

١ – المرجع السابق ، ص ١١٤ – ١١٥ .

٢ – المرجع السابق ، ص ٣٧ .

إ. غ. براون الذي صدّق القصة على ظاهرها فقال : « ما اقل ما يعرفه المسلمون ، حتى المثقفون منهم ، عن الاديان الاخرى . فهذا سعدي ، على ما هو عليه من سعة اطلاع وكثرة اسفار ، لم يستطع ان يروي قصة عن هيكل هندوكي دون ان يخلط فيها بين معلومات زرادشتية وحتى مسيحية » . ثم ترجم القصة شعراً هذا تعريبه :

ذات ليلة احكمت اغلاق باب الهيكل ،

وكالعقرب صرت اركض يميناً ويساراً ؛

ثم اخذت استكشف ما هو فوق ، قرب المنبر ، وما هو تحت

حتى رأيت ستاراً مرصعاً بالذهب ،

وقد وقف وراءه كاهن من عبدة النار

ممسكاً في يده بطرف خيط .

وكما كان الحديد يظهر لداود ليناً كالشمع ،

كذلك ظهرت ألاعيبه واضحة لي ،

فعلمت انه هو الذي يشد بالحبل

عندما كان الصنم في الهيكل يحرّك ذراعه .

ورآني البرهمي فخجل خجلاً شديداً

فمن العار ان تفتضح خسة هذه الالعوبة

فهرب من وجهي ولكنني لحقت به

ورميت به في بئر رأساً على عقب

فقد عرفت انه لو تسنى له الفرار

لوجدت نفسي في مأزق حرج

فلن يتورع من ان يستعمل السم او السلاح

ليحول دوني ودون افشائي فعله الشنيع هذا .

انت ايضاً اذا تسنى لك ان تكتشف مثل هذه الألاعيب

فأود بالمحتال : لا تعف عنه ! كن سريعاً

لانك اذا أبقيت على حياة هذا اللئيم ،

كن على يقين انه لن يرحمك

فمع انه عليه ان يحني رأسه امام عتبة بيتك

فلن يتورع من قطع رأسك اذا ساعده الحظ على ذلك .

اذن ، لا تتبع خطى هذا الدجال الضالة ،

والا ، اذا انت لحقت به ، اضرب بسرعة ، واقض عليه .

اذا نحن صدقنا كل ما يرويه سعدي من اختبارات ، كان لا بد لنا من الاعتراف بأنه رحالة كبير ، حتى في تلك الايام التي كان فيها العلماء والهواة معتادين على هذه الرحلات الطويـلة والمشحونة بالمصائب العظيمة. ومن الصعب جداً ان نتتبع خطاه في رحلاته من الهند الى مصر، ومن افغانستان الى آسيا الصغرى، ومن الحبشة الى مراكش . ولذلك فلا سبيل الى التعجب مما قاله عنه واضعو ترجمة حياته بأنه لقي الشاعر امير خسرو في دلهي والمتصوف جلال الدين الرومي في قونية ، او مما روي عنه بأنه حج الى مكة اربع عشرة مرة . فلو كنا من اهالي شيراز ، حوالي سنة ١٢٥٦ ، اي عندما انهى سعدي رحلاته وعاد الى وطنه، وسمعناه يخبر عن مدن غريبة وبعيدة، وعن لقائه كبراء الرجال ، فلن يسعنا الا ان نقول بأنه كان حقاً رجلاً اختبر العالم . فحازت لذلك حكمته السديدة ، التي عبر عنها بنثره الانيق وشعره البديع أبلغ تعبير ، اهتمامنا وتقديرنا لكونها قائمة ليس على اقوال مأثورة وأمثال قديمة بل عـلى مشاهد شخصية هي ثمرة مغامرات تميزت بالاخطار .

عندما عاد سعدي الى شيراز كان ابو بكر بن سعد متربعاً على عرش اقليم فارس منذ مدة طويلة . وكان قد اشترى عهده الطويل هذا من اسياده المغول في بلاد فارس ، وذلك باستسلامه الارادي لهم وادائه الجزية . وقد بلغت المذلة بالاتابك الكبير ان انضم ، في الاعوام الاخـيرة من حياته ، الى قوات هولاكو

المحتشدة للزحف على بغداد ، هذا الاتابك الذي كان قد زيّن عاصمته بالعديد من الابنية الضخمة والذي كان همه ان يرعى في قصره العلماء والشعراء يأتون اليه من كل حدب وصوب . توجّه سعدي الى هذا الرجل آملاً رعايته له ، فبلغ مراده ، كما نقرأ في مقدمته لكتابه « كلستان » الذي أتمه في سنة ١٢٥٨ ، وهي السنة التي سقطت فيها بغداد ، (وأقتبسُ القطعة التالية من المقدمة ، وهي تتفق مع ما ورد في ترجمة فرنسيس غلادوين ، التي طبعت اول مرة سنة ١٨٠٨) :

« لقد وقع جميل ذكر سعدي بأفواه الاعوام وتغلغل صيته بآفاق البسيطة لما أبداه من بليغ الكلام وذاق الناس من حديثه المقطر ما يشبه حلاوة السكر ورفعوا رقع انشائه الى رتبة الاوراق الذهبية ومع كل ذلك فلا يليق به ان يحمل هذا على فضله وبلاغته الادبية ، بيد ان ملك الاوان وقطب دائرة الزمان القائم مقام سليمان الناصر اهل الايمان ملك الملوك المعظم الاتابك الاعظم مظفر الدين ابي بكر سعد بن زنكي ظل الله في ارضه ، ربّ ارضَ عنه وأرضِهِ لما لحظه بعين عنايته وأيده ببليغ رعايته وأظهر له صادق ارادته كان ذلك الاحترام موجباً لاقبال جميع الانام من الخواص والعوام ولا جرم ، فالناس على دين ملوكهم .

متى ما شملت العبدَ منك بنظرةٍ

تفق في الورى آثاره شهرة الشمس ...

اللهم متّع المسلمين بطول حياته وضاعف ثواب جميل حسناته وارفع درجات أودّائه وولاته ودمّر على اعدائه وشنائه بما تلي في القرآن من آياته اللهم آمن بلده واحفظ ولده .

[شعر عربي الاصل]

لقد سعد الدنيا بـه دام سعـده
وأيـده المولى بألويـة النصر

كذلك تنشا لينة هو عرقهـا
وحسن نبات الارض من كرم البذر

يا من تعالى وتقدس احفظ خطة شيراز الطاهرة بهيبة الحكام العادلين وهمة العلماء العاملين واجعلها الى يوم القيامة في امان وسلامة »[1] .

كان سعدي قد قدم كتابه « البوستان » ، وهو اول ثمرة من ثمار عبقريته الناضجة ، الى الاتابك نفسه . وهو مؤلف من عشرة فصول من الحكايات المسجعة والنصائح . وقد وعظ الاتابك بجرأة في قصيدة يمدحه فيها :

ان الملوك يتداولون الحكم في هذه الدنيا الفانية
وقد جاء دورك الآن ، فاحكم اذن بالعدل .

---

١ – المرجع السابق ، ص ١٢ – ١٣ .

ولذلك فقـــد اختار ابن الاتابك ، « ملجأ العالم وظل الله ولطفه في ارضه ذخر الزمان وكهف الامان المؤيد من السماء المنصور على الاعداء عضد الدولة القاهرة سراج الملة الباهرة جمال الانام فخر الاسلام ... سعد بن الاتابك الكبير » ، اختاره لكي يقدّم له كتابه الثاني في اخلاق الناس . و « البوستان » ، الذي ، كغيره من القصائد التي تدور حول الامثال الحكمية ، لا يمكن ترجمته ، قد جلب لمؤلفه شهرة واسعة لم تردها الاجيال المنصرمة الا شهرة فوق شهرة فنرى الخطاطين والفنانين بعد ذلك يأخذون بنسخ القصائد وتزيينها بالرسوم لمحبي الفن والادب الاغنياء وليس هؤلاء بنادرين في بلاد فارس . وهكذا انتجوا مخطوطات تعد من اعظم مخطوطات العالم . هذا وسجل « الكلستان » نصراً مماثلاً فكان الملوك يفخرون به يزيّن مكتباتهم . هذا وقد اعتُبر كلا الكتابين ، اللذين وضعا بلغة فارسية بسيطة ولكنها في غاية الصحة والبلاغة ، نموذجين في الانشاء لاجيال كثيرة . فهما مليئان بالمشاعر السديدة التي يحرص المعلمون على تلقينها لتلاميذهم . وقد اجبر طلاب العلم في كل مدرسة في بلاد فارس على قراءتها وذلك لمدة تقارب سبعمائة سنة . وهكذا فاننا لا نبالغ اذا قلنا انهما اثـّرا على العقلية الفارسية اكبر تأثير بعد القرآن .

قال امرسون عندما كان في كونكورد عام ١٨٦٤ ، وكان قد اعجب « بالكلستان » اشد الاعجاب حين قرأ ترجمة

غلادوين : « مع انه لم يكن لسعدي تلك النزوات الغنائية التي تميّز بها حافظ ، فقد كان يمتاز بالنباهة والادراك والشعور الاخلاقي العادل ، وكان له ملكة التعليم ، يستخرج على غرار فرانكلين العبرة من كل أمر . انـــه شاعر الصداقة والحب والتضحية والصفاء . ففي الصفحة من شعره ترى القوة متساوية وتشعر بلهجة من الفرح واضحة جعلت اسمه مقروناً بهذه الخاصة ، فالاسم « سعدي » هو نسبة الى السعد . ولم تنشأ هذه الخاصة من خفة موجودة فيه او من مجرد تعوده على الفرح بل نشأت في الاصل من طبيعة الفرح المتأصلة فيه والتي من نتيجتها الانتصار وطرح المصائب بسهولة جانباً ، مع تذوق للسرور ومناعة ضد الالم . وهي الى ذلك نتيجة لادراكه الطبيعي للقوانين الخيّرة التي تسيطر على العالم . فهو يوحي للقارىء بالرجاء الصالح ! ما اشد الفرق بين لهجة بايرون المتشائمة وحكمة سعدي الخيّرة . فالتلميذ والسقاء والسائح والجندي الذي يقاتل النصارى في الحروب الصليبية ، والاسير الذي يسخّر في حفر الخنادق امام مدينة طرابلس ، والشاعر المكرّم الذي يلزم بيته بعد ان بلغ من العمر عتياً ، هذه الاختبارات القاسية المتنوعة ازالت تباعاً كل نغمة اقليمية واكسبته سهولة في التعبير عن الحالات كلها . غير ان السبب الاهم للشعبية الكبيرة التي يتمتع بها هو ان ادراكه العميق في معالجته مختلف الموضوعات، تعدى الاشكال والالوان المحلية الى النَفَس العالمي . فهو يتحدث من خلال لهجة من اللهجات الفارسية ، الى جميع

الامم ، وهو في ذلك دائم الجدة اشبه شيء بهومر وشكسبير وسرفانتس ومونتتان » . ان العاقل الموحّد ، وليس لنا ان نستنكف من ان نحذو حذوه ، لا بد ، كما هو متوقع ، ان يتأثر بهـــذه المشاعر الانسانية التي تتجلى في الابيات التالية من « الكلستان » :

الناس كالاعضاء في التساند لخلقهم من كنه طين واحد

اذا اشتكى عضو تداعى للسهر بقية الاعضاء حتى يستقر

ان لم تُغمّ لمصاب الناسِ فلست انساناً بذا القياس[1]

وقد تعدّى سعدي بشعوره حدود مملكة الانسان ، واهتم السير وليم جونز ، بطل الحرية العظيم ، وصديق بنجامان فرانكلين الذي أيد بشجاعة قضية استقلال امريكا ، اهتم اهتماماً خاصاً بهذه الابيات المزدوجة التي ترجمها من « البوستان » :

لا تدس على تلك النملة التي تخزن الحبوب الذهبية ،

فهي تعيش سعيدة ، فلا تمتها بالالم .

تعلم منها ، بدلاً من ان تقضي

على سعيها الصابر وعنائها المثابر .

---

١ – المرجع نفسه ، ص ٤٤ .

عاش سعدي في عهد نشوء القوميات ، فلا بد والحالة هذه ان يتذكر حكمة فارس القديمة وقد تعلمها الناس من جراء الوقوع في كثير من المصائب غير المتوقعة . فها هو يذكر في اول حكاية من «الكلستان» انه «كان مكتوباً على شرفة ايوان افريدون هذه الابيات :

اخي لم تكن دنياك دار اقامة
فعلق اذن بالله قلبك واستغنِ

ولا تنخدع فالملك ليس مخـــلداً
ودنياك كم ربّت نظيرك للدفن

سواء اذا ما الروح طارت لربها
اتدرج بالديباج ام كفن القطن» [1]

وهكذا مع انه كان ظاهر الخضوع في مديحه للحاكم فقد اعطى لنفسه حق الفيلسوف في ان يُذَكِّر سيده (كما رأينا سابقاً) بأن قوة الانسان لا تخلد . ووضع نفسه موضع الناطق بلسان الشعب طالباً من الملك ان يكون عادلاً في شعبه :

ما الملوك الا رعاة انيط بهم رعاية المساكين ،
مع ان خيرات هذا العالم هي تحت صولجانهم

١ – المرجع السابق ، ص ٢٧ – ٢٨ .

فالانعام لم توجد لخدمة الرعاة

بل الرعاة هم الذين وجدوا لرعاية الانعام .

انك ترفل اليوم بالنعمة

وغداً قد تقع مريضاً تصارع الاقدار ؛

قليلاً ، وسترى الارض تضم في حناياها

دماغ ذلك الذي رسم المشاريع

فالفروق تضمحل بين الملك والعبد

عندما يحين حكم القضاء ،

اذا المرء نبش تراب القبور

فهل يستطيع ان يميّز بين الغنى والفقر ؟

ان التحذير من القدر المتقلب برهن انه كان في الوقت المناسب ، وكان برهانه هذا مفجعاً . ذلك ان خراب بغداد والوحشية في اغتيال آخر الخلفاء قادا سعدياً الى رثاء كان في غاية الصراحة . فقد تآمر « حامي المؤمنين ملك الملوك العظيم » مع اعداء الاسلام لكي تعم هذه الفاجعة التي لا مثيل لها :

ليت دموعاً من الدم تنهال من السماء على الارض

فأمير المؤمنين المستعصم قد قتل

اما ابو بكر بن سعد فسرعان ما جاء يوم دينونته . ففي الثامن عشر من ايار (مايو) عام ١٢٦٠ وافاه الاجل ليتبعه بعد اثني عشر يوماً ابنه سعد بعد ان انتظر السنين الطوال ليعتلي عرش اقليم فارس . وخلفه على العرش الطفل محمد بن سعد ليحكم بالاسم دون الفعل . ولكن لم يلبث ان قضى نحبه في تشرين الاول (اكتوبر) سنة ١٢٦٢ ، فيتربع على العرش ابن عمه ، محمد شاه وذلك لمدة اشهر قليلة انتهت بقتله . فتسلم الصولجان اخوه سلجوق شاه ، ولم يبقَ في يده الا ثمانية عشر شهراً لم تنصرم حتى جاء المغول وفتكوا به . غير ان هذا العهد القصير كان كافياً لان يلجأ سعدي الى حماية السلاجقة الدائمة فيتحدث الى صغيرهم كما يتحدث الى كبيرهم :

ان الدنيا لا تدوم ، لا يدوم الا علامات العدل :

العمل لاجل الخير والصلاح ، والسعي لاجل الكرامة .

فلا تؤاخذ عبدك على زلته ، فأعظم الملوك

قد اصغوا الى نصيحة أقل العبيد .

ما اسعد من يموت فيتحدث الناس عنه بالخير ،

ان بني آدم لا يتركون بعدهم الا الذكر .

عندما قام هولاكو خان بتنصيب انكيانو اميراً على شيراز وذلك عام ١٢٧٠ ، لم يتورع الشاعر الشيخ من ان يذكره بحقيقة الموت والحياة التي لا ترحم :

ان الحظ دار كفاية ، وسيدور ايضاً :
فالبصير لا يعلق قلبه بالدنيا .
وانت الذي لديك كل وسيلة ، اعمل لغاية ما
قبل ان يأتي زمان لا تستطيع فيه العمل .
ان رستم ، اصفنديار الذي قُدَّ من فولاذ —
وهؤلاء الابطال الذين تتحدث عنهم الشاه نامه
لكي يعرف اولئك الذين يعظمون هذا الكتاب
ما خلّف الآخرون من آثار
هؤلاء جميعهم زالوا ، ونحن ، ايتها العين الوقحة
ما كنا لنتعظ بعد ونتخذهم مثالاً
وانت ، يا من كنت نطفة في الرحم
ثم صرت طفلاً يرضع ثدي امه ،
ثم انتصبت قامتك
كسروة شامخة ، وأصبحت وجنتاك بلون الفضة ،
الى ان اصبحت اخيراً رجلاً مشهوراً ،
فارساً في الحلبة ، بطلاً في الحرب :
ان ما شاهدته لا يدوم كما هو

وما ستشاهده كذلك لن يدوم على حاله

فهذا الجسد الدقيق ، عاجلاً ام آجلاً ،

سيعود الى التراب ، وفي التراب سيرقد .

العرش والثروة والامر المطاع والملك – كل

ذلك ان هو الا هباء سيفنى :

ان قصراً مطلياً بالذهب افضل منه

ذكرى رجل حسن الصيت .

هذا هو المثال الذي اتبعه الفرس ، وهم ورثة حكمة تتعدى حدود الزمان ، وذلك عندما مدّنوا الاعراب الاشداء الفاتحين وثقفوهم . وها هم الآن يعملون بنجاح كلي مماثل على تمدين المغول المتوحشين . وكانت شيراز ، قبل كل شيء ، المدرسة التي تعلموا فيها الفنون الجميلة التي تزدهر زمن السلم . وقد اعطى سعدي مسقط رأسه شيراز كل محبة قلبه المخلص ، وقد تجلت هذه المحبة اكثر ما تجلت في عودته اليها بعد سنين كثيرة من التشرد .

ما ابهى عيد النيروز وأبهجه ، لا سيا في شيراز ؛

فالغريب ينسى وطنه ، ويصبح عبداً لها بكل ارادته .

على تلك الحدائق يتربع الورد الاحمر ملكاً كما كان

يوسف على مصر ،

والنسيم يأتي بحلته العابقة الى قلب المدينة .

فلا تعجب اذا جاء الربيع فرأيت الغيرة تستعر ،
والسحاب يبكي والزهر يضحك ، كل ذلك لأجلك !

ان لهذه القصيدة التي اقتطعت منها هذه الابيات، كما قال مترجمها الى الانجليزية إ. غ. براون، « مكاناً مرموقاً في قلوب الشيرازيين لما فيها من ثناء على المدينة هي جـــديرة به ولا شك » . وفي قصيدة اخرى نظمها على ما يظهر عندما كان مغضوباً عليه من قبل السلطان ، يفكر سعدي بالرحيل ثانية عن وطنه الحبيب سعياً وراء حظ يصيبه في مكان آخر ، ولكنه سرعان ما يطرح هذه الفكرة جانباً فيقول :

قلت : « الآن سأسيح
في هذا العالم حراً ،
اكسر قيد العبودية ، واذهب
بحرية .
« افلا يوجد في غير فارس
بيوت آوي اليها ؟
في بلاد الروم ، او الشام ، او البصرة ،
او بغداد ؟ »
غير ان هذه البيوت هنا لا تزال
تمسك بذيل جلبابي :
ارض شيراز ، وجدول
ركن الفضي

وفي مقربة من رأس النهر المعروف بركن آباد ، ابتنى سعدي زاوية بداخلها بستان مليح . ويخبرنا ابن بطوطة قائلاً : « وقد صنع الشيخ هنالك احواضاً صغاراً من المرمر لغسل الثياب . فيخرج الناس من المدينة لزيارته ويأكلون من سماطه ويغسلون ثيابهم بذلك النهر وينصرفون ، وكذلك فعلت عنده رحمه الله » . ولا بد ان الشاعر كان يأمل ان يقضي بقية حياته بمعزل عن حمأة الاحداث السياسية في سكون هذا المكان الذي لا يطرق الا لماماً ، يتأمل شاكراً نعمة الله التي حفظته من اخطار كثيرة . وقد كرّس قواه منذ ان كتب « البوستان » و « الكلستان » لكتابة الغزل الذي كان الى ذلك الحين لا يزال من الفنون الشعرية المهملة نسبياً . كتب رضا زاده شفق ، احد كبار الثقاة في الادب الفارسي يقول : « نظم الشعراء المشهورون قبله الغزل ، غير ان القصيدة كانت تحتلّ المقام الرسمي ، ويعجب بها الناس ، في حين ان الغزل كان يقوم بدور اقل اهمية . غير ان سعدي فضّل الغزل على القصيدة لكونه يعبّر عن المشاعر ، بينما كانت القصيدة ترمي عامة الى غايات ابعد منالاً . فسعدي هو الذي روّج هذا النوع من الشعر » . ومع ان بعض غزلياته هي مديح ظاهر ، كتب طمعاً بأن تغدق عليه الهبات ، فان كثيراً من غزله دينيّ صوفي على ما فيه من استعارات وصور مأخوذة ، ككثير غيره من الشعر الفارسي الصوفي ، من سجل الشعراء الذين تغنوا بالغزل المادي وملذات الخمرة المحرمة . وقد رأينا في الفصل السابق كيف ان روزبهان

استعمل تشابيه مماثلة كما فعل ابن الفارض وابن عربي في شعرهما العربي . لقد كانت هذه العادة مستعملة من قبل ، حتى قبل ان بدأ سعدي بنظم غزلياته ذات المعاني التي يصح فيها الوجهان . وكان لنجاحه في هذا الضرب من الشعر وتجليته فيه ان مهدا الطريق لحافظ ومهدا الى تثبيت هذا التقليد في الشعر الفارسي تثبيتاً نهائياً .

اذا بكت ضحية الحب
فليس ذلك غريباً ،
فالحب عذاب
يعصى على كل طبيب .

ان المجنون حباً ،
كما يعلم العقلاء ،
يصم اذنيه
عن كلام الناصحين .

من لم يشرب
كأس الحب حتى الثمالة
لا يعرف شيئاً
من اسرار الحياة الخفية .

المسك والعنبر والبخور
والطيب النادر الوجود ،
كل ذلك لا يقاس
بعبق حبيبين .

غريب اذا ما الطريدة
أفلتت من الفخ ،
ولكن ليس غريباً
اذا قضت نحبها في الفخ .

دع الصديق يعلم ما يحدث
معي هنا ،
فأنا لا أخاف
كيد العدو .

بكى العدو
اذ شاهد بليتي ،
فالغريب كان شفوقاً ،
والقريب لم يكن .

ان الوردة الضحوك
وقد ألقت برأسها الى الوراء
لا تعرف شيئاً
عن احزان البلبل .

و كيف يمكن لسعدي
ان يشتكي من هواه
فمع ان الهوى شقاء
عليه ان يحتمل اذاه .

عندما يرى القارىء العادي شعراً من هذا النوع لاول مرة لا بد له من ان يردد ما قاله امرسون : «جميل هو عدم التسلسل عند الشعراء الفرس . ان النقد الادبي الاوروبي يجد ان الوحدة في الكمال الجميـــل مفقودة في كل مكان . هنالك رمال بدون احجار ، كأن الصحراء المجاورة قد جعلت الفكر قاحلاً . لقد قيل عن كتاب «الفصول» لطمسون انه بامكان المرء ان يقرأ سطراً من الصفحة ويدع سطراً دون ان يفطن الى ذلك . غير ان اسلوب طمسون هو كالغراء والقار اذا قيس الى تطواف الشعراء الشرقيين الحر الذي لا مثيل له . فلا موضوع يعز عن مبادرتهم السريعة . فسواء الغزل والقصيدة فكلاهما فصل من الحِكَم ، او من الحِكَم غير المجزأة الى فصول ، كلاهما در غير منظوم فيه من جميع الالوان والاحجام والاثمان» . ان القارىء الغربي اذا تعمق في تقاليد الشعر الفارسي والشعر العربي الذي غالباً ما كان يُتَّخَذُ نموذجاً ، يتمكن من ان يدرك المثال الذي كانت تتمثله هذه الثورة الادبية ، التي كانت على ما يظهر ثورة عفوية . وليس بعيداً ان تكون هذه الثورة قد توقع الناس حدوثها كذلك . فان شعباً كانت دوافعه الفنية تركن الى دقائق الفن العربي arabesque اللامتناهية لا يمكن له ان يرضى بأبيات شعرية غير منتظمة .

اضطر سعدي اخيراً ان يغادر موطنه شيراز مرة اخرى، مع ما كان عليه من محبة شديدة لها ورغبة قوية بالبقاء هناك

عزيز الجانب . كان ذلك لظروف لا تزال غير معروفة . وغالب الظن انه اضطر لمغادرة شيراز نتيجة لصراحته في نصحه لأحد السلغُريين الفاسدين او لأحد الولاة المغول القساة .

ان روحي منفطرة على شيراز ، سقيمة حزينة :
فاذا اردت ان تستقصي اخباري ، عليك ان تذهب الى
بغداد .
فالحاكم هناك سيساعدني ، ولا شك ، على امري ،
واذا هو رفض مساعدتي فيكون ذلك غريباً حقاً !
فيا سعدي ، ان حب الوطن امر متأصل فيك ، وهو
ظاهر واضح !
ولكنني لا استطيع ان اموت من الفاقة لمجرد انني
ولدت هنا .

وهكذا انضم سعدي الى طائفة الشعراء والعلماء الذين فروا خوفاً الى عاصمة الاسلام المهدمة . وقد حداهم الى ذلـــك ما طرق سمعهم بأن وزير هولاكو واخاه حاكم بغداد كانا يعملان على إحياء الاسلام وبعث الحضارة الفارسية . فقد عيّن هولاكو شمس الدين الجويني صاحباً للديوان ، اي رئيساً للادارة المدنية لبلاد فارس وذلك بعد مضي اربع سنوات على نهب بغداد . واستطاع الجويني ان يحتفظ بمنصبه هذا خلال كثير من

التقلبات والمؤامرات الماكرة وبقي فيه طوال عهد آباقا ، خليفة هولاكو ، الذي حكم مدة طويلة (١٢٦٥ - ١٢٨٢) وطوال عهد احمد ، القصير الامد (١٢٨٢ - ١٢٨٤) وهو الامير المغولي الذي اعتنق الاسلام . وعندما اطاح ارغون باحمد هذا ، عمل شمس الدين على التكيّف مع هذا التغيير ، ولكنه أُعدم في ١٦ تشرين الاول (أكتوبر) سنة ١٢٨٤ بتهمة الخيانة العظمى ، تلك التهمة المألوفة في ذلك الزمان .

كان سعدي على وفاق مع شمس الدين . وقد نظم لهذا المناصر الجديد مجموعة من قصائد المديح امتزج فيها كثير من النصح الموجّه للعظماء والمتسلطين . وقد دعا مجموعته هذه بالصاحبية نسبة الى لقب «صاحب الديوان» . وفي مجموعة الشاعر الكاملة التي جُمعت بعد موته بخمسين سنة او ما يقارب ذلك نرى عدداً من الرسائل المتبادلة بين سعدي وشمس الدين الجويني . انها رسائل طريفة حقاً ولكنه يُشَكّ بصحة نسبتها تلك . وهي عبارة عن خمسة اسئلة يوجهها الوزير القوي المثقف الى الشاعر وتتميز ببساطة كلية : «من هو افضل : الانسان ام الشيطان ؟» «هل الذي ادى فريضة الحج خير ممن لم يؤدها ؟» وهكذا دواليك . ويطلب الوزير من الشاعر اجابة جدية عن هذه الاسئلة ، ويجيب عنها سعدي . اما ما روي عن ارسال رسالة شمس الدين فهي ايضاً بعيدة الاحتمال . كتب جايمس روس في سنة ١٨٢٣ معتمداً على مصادر فارسية ما يلي : «تقول

الرسالة في الاسئلة التي وجهها صاحب الديوان ان هذا الصديق الكريم ارسل اليه خمسمائة دينار مدعياً انها ثمن طعام لطيوره، فاختلس منها الخادم، وقد اعتبر نفسه طائراً من طيور سعدي، مئة وخمسين ديناراً، فكان بذلك اشبه شيء بالايرلندي، اذ لم يعلم ان الرسالة التي ترافق هذه الهدية والجواب عليها سيكشفان أمره. وبعد التأكد من مكر الرسول اعيد على الفور حاملاً امراً الى بيت المال في شيراز ليدفع الى سعدي ١٠٠٠٠ دينار من الذهب»! «وفي مناسبة اخرى»، يقــول الكاتب، «ارسل هو واخوه علاء الدين، وهما وزيرا هولاكو خان، خليفة امبراطور التتار وابنه، كيساً الى سعدي فيه ٥٠٠٠٠ دينار او ما يقارب ٢٤٠٠٠ ليرة انجليزية، وكان سعدي في ذلك الوقت قد أصبح شيخاً يقيم في زاوية في شيراز، وذلك لكي ينفقها في بناء خان تحت قلعة كوهندار بالقرب من شيراز. وكان سعدي يرغب في اكمال بناء ذلك الخان».

وفي رسالة نثرية اخرى منسوبة الى سعدي حين كان في آخر حياته، مقالة تصف اجتماعه بالايلخان آباقا نفسه. وهي قصة ليست بأقرب كثيراً الى العقل من ذكرياته المنشورة في تآليفه السابقة. وفيما يلي تعريب لترجمة جايمس روس الانجليزية، قال: «عند عودتي من أداء فريضة الحج الى مكة المكرمة ولما وصلت الى تبريز عاصمة الملك تشرفت بالاجتماع بأحد العلماء الاتقياء. ورغبت برؤية ذينك الرجلين البارزين اعني خواجا

علاء الدين وخواجا شمس الدين لما يربط بيننا من اواصر الصداقة منذ القديم . وذات يوم عزمت فيه ان ازورهما فالتقيت بهما في الطريق راكبين في ركاب آباقا خان سيد العالم . واذ وجدتهما منشغلين لم أرَ من اللائق ان احشر نفسي للسلام عليهما فانتحيت جانب الطريق . ولكنهما ما ان رأياني حتى ترجلا ولحقا بي وأحنيا رأسيهما الى الارض ، واقتربا مني وقبّلا يدي وقدمي وهنآ هذا الحقير بسلامة الوصول وقالا : « ليس من العدل ألا نكون قد أخبرنا بالقدوم السعيد ايها الوالد الجليل الوقور » .

وكان السلطان آباقا خان ينظر الى هذا المشهد فقال : « كم من السنين مضت على شمس الدين في خدمتي ، وهو يعرفني سيداً على العالم ومع ذلك لم يقدم لي قط هذا الولاء والاحترام اللذين قدمهما لهذا الرجل » ! وما ان عاد الشقيقان وركبا حتى التفت الى شمس الدين قائلاً : « من هذا الرجل الذي حييتماه بهذا التواضع واستقبلتماه بهذا الاحترام » ؟ فأجاب شمس الدين : « انه والدنا يا مولاي » ! فقال السلطان : « سألتكما مرات عديدة عن والدكما فكنتما تجيبان بأنه مات ؛ وها انكما تقولان الآن ان هذا هو والدكما » . فأجاب : « انه والدنا وشيخنا : فربما طرق اسم الشيخ سعدي الشيرازي المشهور سمع سموكم الملكي ، فقد تغنى بأقواله الناس في جميع انحاء العالم » .

فأمرهما آباقا خان قائلاً : « لا بد ان تعرفاني اليه » ، فأجابا « سمعاً وطاعة » . وبعد مضيّ ايام قليلة طلبا من الشيخ ان يزور الملك فرفض طلبهما وقال : « اريحاني من هذه الزيارة

واعتذرا له عني » . قالا : « لا شك انك ذاهب لأجلنا وما عدا هذا الطلب افعل ما بدا لك» . ويواصل الشيخ قائلاً : «فوافقت على رفقتهما وذهبت الى البلاط مرضاة لهما وقابلت الملك». ولما حان وقت الانصراف قال جلالته : « اعطني حكمة اتعظ بها » . فقلت : « لن تأخذ معك شيئاً من هذه الدنيا الى الآخرة الا الثواب او العقاب ، فكن في هذه الدنيا محسناً وصادقاً » . فقال آباقا خان : « ضع هذا المعنى في شعر » . فنظم الشيخ على الفور هذه المقطوعة الرائعة في العدالة والحق :

اذا كان الملك راعياً لأمته
تكون انعامه مقدسة
لأن تلك الانعام هي ثواب الراعي
اما اذا لم يكن راعياً لأمته
فليكن جزاؤه السم الزعاف
فما يقوله يكون إلزاماً على المؤمنين .

فبكى آباقا خان واخذ يسأله : « هل انا ذلك الراعي ام لا ؟ » فكان الشيخ يجيبه كل مرة يسأله فيها « اذا كنت راعياً فاياك قد عنيت في البيت الاول والا كان البيت الثاني ينطبق عليك » . واضاف الشيخ قائلاً : « ولما اذن لي بالانصراف كررت هذه الابيات القليلة :

ان الملك ظل الله
وظل الله نسخة عن الاصل
ان الرعية لا تقدر على عمل الخير
ما لم يسلّط عليها سيف الحاكم
فكل عمل خيّر وجد في هذا العالم
جاء من عدل الامراء .
ان الحكم القائم على الشر
لا يمكن ان يكون عادلاً بوجه من الوجوه » .

وقد وقعت هذه الابيات احسن وقع عند آباقا خان » .

مع ما في هذه الحكاية من مبالغة فلا يمكن ان نعدها مستحيلة الوقوع . ففيها يُظهر سعدي ما عرف عنه من صدق النصيحة للايلخان . كذلك تبدو فيها عناصر مدح الذات الذي اشتهر عنه . كان تأكيد سعدي على تفوقه على اقرانه من تجارة الشعراء في تلك الايام وهي عمل كان الشعراء يعهدون به في تلك الاوقات التي كثرت فيها الشكوك الى اصدقائهم الاخصاء وتابعيهم . ولم يكن سعدي ليشط عن هذه القاعدة ، وهو القائل :

سعدي ! لم يكتب شاعر
صفحةً احلى مما كتبت
تُهدى الى عصر
تميّز بالذكاء .

فليدم هذا اللسان العذب
وليبق دائم النعمة
هذا اللسان الذي عرّف الناس حقيقة العذاب
وحقيقة القلق .

ومهما يكن من امر فان هذه القصة تعكس بأمانة الصورة الشائعة في بلاد فارس في تلك العصور لدور الشاعر في المجتمع . والحق يقال انه في اي عصر غير ذلك العصر وعند اي شعب غير ذلك الشعب لم يحظ النوابغ الخلاقون والبحّاث والعلماء والكتّاب بمثل هذا الاحترام الكبير ولم يروا امـــام كفاءاتهم مثل تلك الابواب المفتوحة تدعوهم الى التقدم . وان كان هؤلاء قد شعروا احياناً بريح الشؤم الباردة تصفر حول آذانهم فانما يكون ذلك امراً نال منهم كما نال من بقية الناس على السواء . والحكيم هو ذلك الذي كان خلال اعوام السعد يجمع من الثروات ما يكفيه في ايام الشيخوخة حين يعتزل العالم فيعيش في بحبوحة مُعداً نفسه بالصلاة وعمل الخير الى يوم الدين . وذلك ما فعله سعدي .

تلك هي الامنية الاخيرة التي حدت بشاعرنا الى العودة للمرة الاخيرة الى شيراز . غير ان المدينة في ذلك الوقت كانت قد خسرت مقامها العالمي الذي اثـّل قصورها وحدائقها في اوج حكم السلغريين الذهبي ، فتقلصت واستحالت الى بلدة اقليمية يسيطر عليها حاكم مغولي . ولكنها كانت لا تزال شيراز احلام الشاعر ، موطن الجمال المقدس ، ترقد فيها عظام ابن خفيف وروزبهان ،

والكثير غيرهما من الاولياء الذين عبدوا الله في جمال القداسة .
كان سعدي في منفاه النائي مبرّح الشوق الى وطنه هذا ، والى حريته ، والى دفء الشمس معطيةِ الحياة في ذلك الوطن المتألق الذي لم يكن يحب في مجاز الحب الروحاني او الزمني إلاه .

رعى الله هذه الارض
حيث حبيبتي تقيم
ففيها يقيم قلبي المضنى
وفيها تسكن روحي

ان هذا الذي ترونه
ما هو الا شكل لا حقيقة فيه
اما قلبي فهو يقطن في الوادي
حيث تقطن تلك التي سحرت قلبي

هنا يقيم جسمي مريضاً شاحباً
وروحي هناك تحيا قوية سليمة
هنا سمائي ، ولكن نجمتي
الحسناء الشاردة تتألق هناك

يا نسيم الصباح العليل
ليتك على جناحيك تحمل لي اريجها
اسألك ان تمر من فوق شيراز
ففي شيراز مَن احب

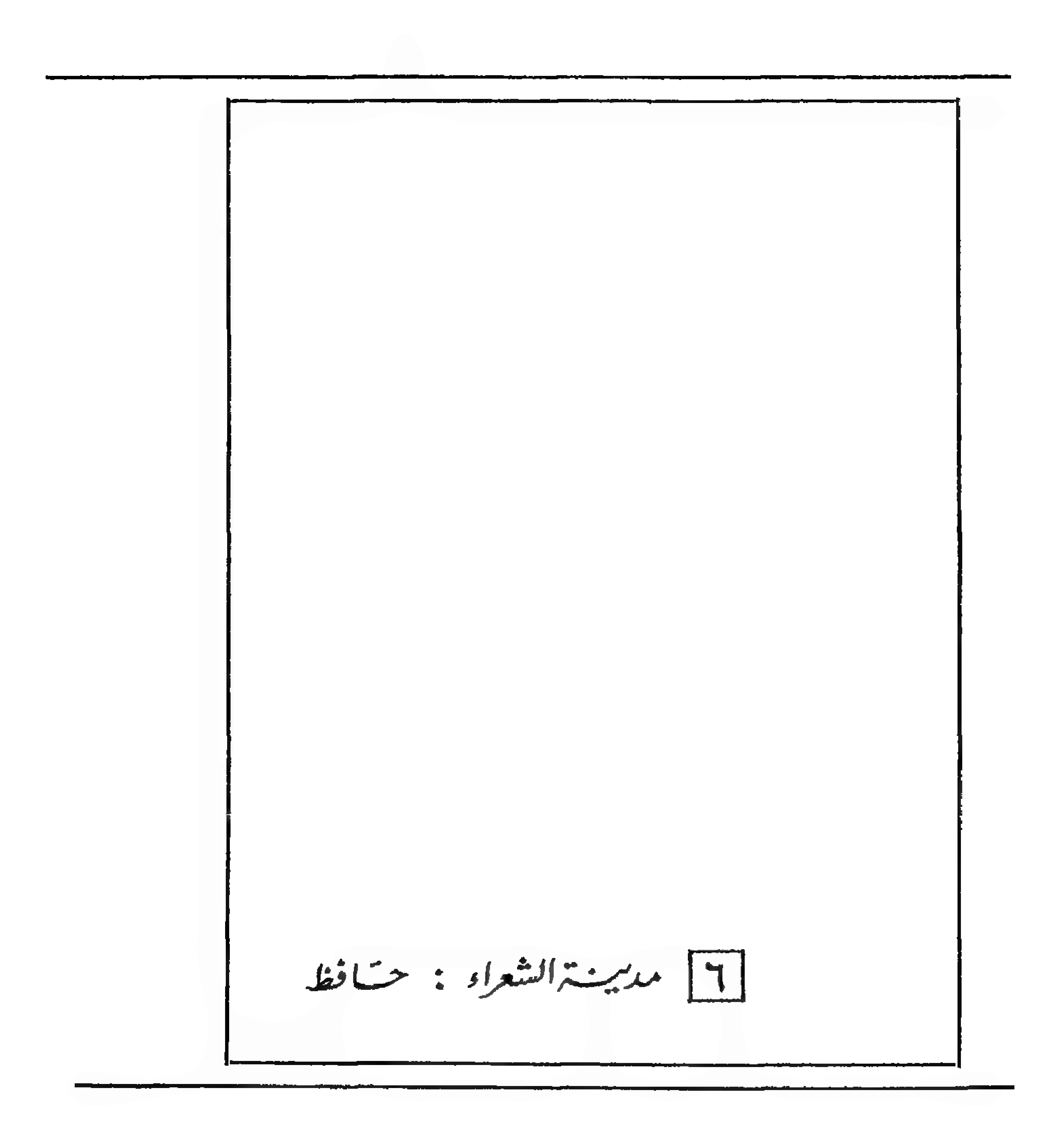
لمن اشكو ألمي
ومن اسأل ان يشاركني عذابي
سأذهب الى ذلك المكان
حيث تقيم تلك التي تعرف سرّ عذابي

ان قلبي لا يريد الذهاب
الى حيث تضوع في المرج الزهور الحلوة
فقلبي يذهب حيث
تذهبين انت يا حبيبتي

لماذا تعانق هذه الدار المهدمة
يا سعدي ، انها ليست مكاناً لك
فاحزم امتعتك اذن ، وابحث
عن الدار التي تؤوي اليها الاحرار

في تجوالنا في مشاهد شيراز نرى كما رأى هربرت من قبل ، وذلك بعد مضي اكثر من ثلاثة قرون ، انه « دفن في ظاهر البلدة ذلك الشاعر العالم والفيلسوف مصلح الدين سعدي » . ومنذ ذلك الوقت اخذ كثير من الرحالة الاجانب يحجون الى هذا المكان فيزورون حافظاً اولاً اذ يقع قبره ، كما سنرى ، على مسافة اقرب مما هو عليها قبر سعدي وقد بقي هؤلاء الرحالة يذكرون ، حتى سنوات قليلة خلت ، مع إ. غ. براون الذي كان هناك سنة ١٨٨٨ ، « ان ضريح سعدي يقع على مسافة من

المدينة ابعد ، يحيط به بناء اقل فخامة . على ان ديوانه مشهور في بلاد فارس ، عن جدارة ، يقرأه الناس كما يقرأون مجموعتيه الاخريين الكلستان والبوستان اللتين تشابهانه صفاء في الاسلوب وغنى في العبارة وتنوعاً في الموضوع كما تشابهانه في حكمته السديدة . وديوانه هذا يقرأه الناس في بلاد فارس ويقدرونه على الارجح اكثر مما يقرأون ويقدرون «الكلستان» و «البوستان» . هنا يتساءل المرء فيما اذا كانت قصائده لا تلاقي استحساناً في بلاده واجتهاداً في درسها وترديداً ، اكثر مما يستحسنون ويدرسون ويرددون قصائد حافظ . ولكن على ذكراه يجثم شبح يكفي لان نقول ان قليلاً من ابناء بلدته ، ان وجد هذا القليل ، من اهتم بمشاركته مثواه الاخير . فضريحه يقف وحيداً في ذلك البناء الصغير . فقد كان سعدي كما يعتقد على العموم ، سنياً . ويقال ، ويؤكد ذلك بعض المعجبين به ، انه كان كاتماً لتشيعه ، والكتمان مسموح به في التعاليم الشيعية عندما تقتضي سلامة المرء ذلك . غير ان الريبة في انه كان سنياً تابعاً لهذا المذهب الذي يبغضه الفارسي الشيعي ، كانت كافية لان يقوم احد المجتهدين المتعصبين في شيراز بكسر بلاطة الضريح التي وضعت في الاصل على قبر الشاعر » . غير ان الجيل الجديد من الايرانيين كفّروا عن اهمال اجدادهم — او بالحري تخريب آثارهم القديمة — فبنوا نصباً جميلاً على قبر سعدي ، هو اجدر بالشاعر وبأمته .


٦ مدينة الشعراء : حافظ

عندما ولد حافظ ، وهو باتفاق الجميع اعظم شعراء الفرس، كان اقليم فارس ينعم باستقلال حقيقي تحت حـــكم شرف الدين محمود شاه . وكان الايلخان اولجايتو في الاصل قد عيّن محمود شاه مديراً لشؤون الممتلكات الملكية (اينجو) في تلك الانحاء، وفي عهد ابي سعيد ، خليفة اولجايتو ، أصاب محمود شاه المزيد من النجاح ، فما بلغ سنة ١٣٢٥ حتى اصبح لا ينازعه منازع الا عصابات اللصوص التي كانت تعيث بالجبال فساداً وتجتاح مـــن وقت لآخر السهول . نزح والد حافظ، على ما يقال، من اصفهان الى شيراز ، عندما كان الاتابكة لا يزالون في اوجهم ، فاشتغل بالتجارة وأصاب قسطاً من النجاح ولكنه في اواخر حياته اخذ باهمال اعماله . فلما مات خلف ارملته وولده الصغير في ضائقة مالية .

لم يكن حافظ قـــد بلغ العقد الثاني من عمره عندما لقّنه الدهر اول درس في اضطراب الحكم ، هذا اذا كان قد اصبح في تلك السن المبكرة واعياً للاحداث السياسية ، ولا أظنه الا كذلك لكونه فارسياً . ذلك ان ابا سعيد، في آخر عهده ،

تنكّر لمحمود شاه وخلعه . اما خليفة ابي سعيد اربا خان فقد احتفل بصعوده على العرش بأن اعدم محمود شاه في تبريز ، وكان ذلك سنة ١٣٣٥ . وفي السنة التالية سقط اربا ، فابتهج لذلك ابناء محمود ونقلوا جثمان ابيهم الى شيراز ليرقد بالقرب من عظام ابن خفيف المباركة . كان ذلك هو العمل الوحيد الذي قاموا به مشتركين . فما ان انتهت مراسم الدفن حتى دب بين الاخوة نزاع على من سيغتلي عرش والدهم .

بدأ النزاع بأن قتل مسعود شاه اكبر الاخوة الاربعة الابنَ الثاني كيخسرو الذي كان مستأثراً بالعرش اثناء وجود مسعود في المنفى المؤقت ، ثم امر بحبس الابن الثالث محمد في قلعة سفيد . غير ان محمداً ما لبث ان فر الى بير حسين الجوباني الذي كان معسكِراً بالقرب من تلك الانحاء ، وهو ينتمي الى عائلة من الامراء كان قد قوّى شكيمتها غازان خان . فاستطاع بفضل بير حسين هذا ان يطرد مسعوداً من شيراز . غير ان انتصاره هذا كان قصير الامد، فما لبث بير حسين ان استهواه هذا النصر فقتل محمداً وفكر بالاستئثار باقليم فارس مما اثار غضب اهالي شيراز فقاتلوه وطردوه ورحبـــوا بعودة مسعود . وفي العام التالي عاد حسين يعينه على ذلك قريب له يدعى اشرف . ولكن القائدَين منيا بالهزيمة ، فانسحب اشرف برجاله وفر حسين الى ابن عمه الامير حسن كوجك فباغته هذا الاخير وقتله في الحال.

اما ابو اسحاق الابن الاصغر لمحمود شاه ، الذي كان قد ولي

اصفهان من قبل حسن كوجك فقد قرر الآن ان يطالب بشيراز. وكان مسعود بعد ان طرد من العاصمة قد طلب من ياغي باستي ان يستعيد له العرش . في هذه الاثناء طلب ابو اسحاق المعونة من اشرف شقيق ياغي باستي . واخذ ياغي باستي مسعوداً الى اسوار شيراز ولكنه ما لبث ان قتله هناك . وكان ذلك سنة ١٣٤٣ . ثم انه اراد ان يحالف اشرف بغية الاستيلاء على شيراز للجوبانيين ، غير ان امير هؤلاء حسن كوجك رأى في تلك الاثناء ان ينازع ملك بغداد الجلائري ، حسن بزرك ، امارة فارس ، فقتل في المعركة بيد زوجـــه في ١٥ كانون الاول (ديسمبر) سنة ١٣٤٣ . ثم استحكم الخلاف بين اخوته على من سيخلفه ، فحال ذلك دون ايقاف ابي اسحاق عن التقدم .

تلك كانت الحالة العامة المتلونة التي نشأ فيها حافظ الفتى . ولكنه استطاع ان يحصل على ثقافة جيدة كان منها ان حفظ القرآن عن ظهر قلب (فاستحق لذلك لقب الحافظ) ، وشق طريقه مخاطراً الى دنيا التأليف . ولكن اشعاره لم تجمع الا بعد موته ، لترتّب قوافيها على الاحرف الابجدية وفقاً لما كانت عليه عقلية الجامعين في تلك الايام وكلَفِهم بهذا النوع من الترتيب . وهكذا ضاع علينا ايجاد اية وسيلة لتعيين تواريخ هذه الاشعار ، ولم يبق لنا الا الدلائل الداخلية . والدلائل الداخلية تفتح باباً للظن والتخمين، فهي ليست واضحة كل الوضوح كما انها لا تكفي بمفردها. غير انه لدينا قطعة ذكر فيها الشاعر اسم مسعود وهذا

يدلنا على ان حافظاً نظم بعض اشعاره مرضاة للملك قبل سنة ١٣٤٣ . ولكن عبقريته تفتحت حقاً في عهد ابي اسحاق الذي حكم عشر سنوات . وكان حافظ يتذكر هذه الاوقات وفي قلبه حزن عميق :

في الحقيقة ان خاتم ابي اسحاق الفيروزجي
قد أومض في بهاء ، ولكن دولته كانت متعجلة [١]

وكان الشاعر يحب ان يتذكر اولئك العظماء الذين شرفوا بمواهبهم المختلفة بلاط آخر بني اينجو . فقال هذه الابيات التي اصبحت مضرب الامثال لكثرة ما رددها الناس ترديداً اصيب في بعض الاحيان بشيء من التشويه :

في عهـــد سلطنة الشاه الشيخ ابي اسحاق
ما اعجب ما كان ملك فارس عامراً بخمسة اشخاص
الاول ملك مثـــله يمنح الولايات
وقد أعد نفسه حتى أمّن عدالة العيش الرغيد
ثم ولـيّ الاسلام الشيخ مجد الدين
الذي لا تذكر السماء قاضياً افضـــل منه

---

١ – انظر كتاب « حافظ الشيرازي ، شاعر الغناء والغزل في ايران ». تأليف الدكتور ابراهيم الشواربي ، ص ١٨٨ ، القاهرة : مطبعـــة المعارف ومكتبتها بمصر ، سنة ١٩٤٤ .

ثم بقية الابدال الشيخ امين الدين
الذي حـــل يُمن همته الاعمال المعقدة

ثم ملك العلم عضد[١] الذي في التصنيف
وضــع باسم الشاه كتابـــه « المواقف »

ثم ذلك الكريم القاضي قوام ذو القلب الخضم[٢]
الذي اكسبته دنيا العطاء والعدالة صيتاً حميداً

اولاء لم يتركوا نظيراً لهم ومضوا
فالله عز وجـــل يرحمهم اجمعـين .

باستطاعتنا ان نميز الرجال المشهورين الاربعة الذين ذكرهم حافظ مع ابي اسحاق. فاحدهم مجد الدين اسماعيل الذي قصده ابن بطوطة بصورة خاصة عند زيارتيه الاثنتين لشيراز . فقد زاره في المدرسة المجدية حيث كان يقوم باعطاء الدروس . وهو يروي انه رأى هناك ابا اسحاق نفسه واقفاً بين يدي الفقيه الكبير ممسكاً اذن نفسه في يده ، وهكذا فِعْل امراء التتار عنــد ملوكهم . وكان والد مجد الدين ، ركن الدين يحيى ، فقيهاً مشهوراً ايضاً وقد مدحه سعدي فلم ينسه ركن الدين في اواخر حياته . ولا بد ان يكون ذلك قد اضرم طموح حافظ الفتى بالذكريات عن عبقريته الشعرية . واما الشيخ امين الدين محمد ، وهو ابن الشيخ زين الدين علي الكازروني ، خير خلف لخير سلف ، وسليل اسرةٍ اشتهرت بتدينّها منذ القدم ، فهو بالاضافة الى كونه معلماً بارزاً ، كان ينظم الشعر . ويعد من جملة تلاميذه

خواجوي كرماني (توفي سنة ١٣٥٢) احد شعراء ابي اسحاق . وكان حافظ يفاخر بأنه يقتدي بشعره . وليس غريباً ان يكون حافظ قد تعرف بخواجوي بواسطة امين الدين الذي توفي سنة ١٣٤٤ فأدخله الى الحلقة الملكية . اما عضد الدين عبد الرحمن ابن احمد الايجي (توفي سنة ١٣٥٥) فقد كان قاضياً ومعلماً في شيراز وضع بالعربية كثيراً من الكتب في الفلسفة وعلم الكلام مما جعله في مصاف كبار الثقاة في هذين الحقلين ، فكانت كتبه تدرّس في مختلف بلاد الاسلام حتى بعد وفاته بمدة طويلة . وقد بلغ كتابه « المواقف » شهرة واسعة ، فوضع عليه كثير من العلماء الشروح وشروح الشروح والتعاليق . ولا شك في ان حافظاً حضر دروسه . واما حاجي قوام فاسمه الكامل حاجي قوام الدين حسن التَـمْغَجِيّ . وقد قام بدور كبير في تمكين ابي اسحاق من العرش وكان يبـــذل ثروته الطائلة بسخاء في تشجيع العلم والادب . قدّم اليه ابن زركوب كتابه « تاريخ شيراز » كما خصه حافظ بثلاث قصائد على الاقل مدحه فيها مباشرة اثناء حياته ، علاوة على مدحه اياه بصورة غير مباشرة في قصائد اخرى كثيرة – كما رثاه سنة ١٣٥٣ . كذلك نظم حافظ قصيدة بليغة رثى بها مجد الدين اسماعيل وذلك حين توفي سنة ١٣٥٥ عن اربع وتسعين سنة ، وهذا مطلعها :

ان مجد الدين السري[1] وسلطان القضاة اسماعيل
الذي كان قلمه الفصيح يسجل خطباً في الشريعة

برهن ابو اسحاق ، الذي تسلم اخيراً العرش بعد محاولات فاشلة عديدة ، على انه رجل طموح فما استتب له الامر في شيراز وبقية اقليم فارس حتى اخذ يعمل على توسيع ممتلكاته (يشجعه على ذلك ما آلت اليه دولة المغول آنذاك من تفسخ ، شأنه في ذلك شأن الكثير من الامراء) ، فضم اليه يزد وكرمان . وقد ادى به ذلك الى التصادم مع بني المظفر المجاورين . وهي اسرة اسسها شرف الدين مظفر (توفي سنة ١٣١٤) . وكانت تحت امرة ارغون وغازان واولجايتو على التوالي ، كما كانت عاصمتها مَيْبُدْ بالقرب من يزد . خلف مظفراً ابنُه مبارز الدين محمد ، وكان في ذلك الوقت فتى في الثالثة عشرة من عمره ولكنه ما عتم حتى اصبح حاكماً حازماً قاسياً ، فاستولى على يزد حوالي سنة ١٣١٨ محافظاً على امارته الصغيرة ضد الثورات الدموية . وقد افـــاد هو ايضاً من الفوضى التي نتجت عن موت ابي سعيد فضم اليه كرمان سنة ١٣٤٠ . وحاول ابو اسحاق مرتين ان يخلص كرمان من قبضة اميرها الجديد ولكنه في المرتين مني بالفشل . وفي سنة ١٣٥٠ حاول استخلاص يزد فصدّ حالاً .

---

١ - عرّب هذا البيت عن الفارسية رأساً . وكان المؤلف قد اورد في النص الانجليزي ترجمة لرتشرد له غايان فيها كثير من التصرف .

(المترجم)

وبعد سنتين اعاد الكرة على كرمان فمني للمرة الثالثة بفشل ذريع . وقد قوّى هذا النصر النهائي من عزيمة مبارز الدين فنقل المعركة الى معسكر العدو . وفي سنة ١٣٥٣ استولى على شيراز ، وواصل انتصاراته ليأخذ اصفهان ويقتل عدوه العنيد الشجاع وذلك سنة ١٣٥٧ .

كان حكم المؤرخين ، كحكم التاريخ ، ضد ابي اسحاق . فقد كان، على ما امتاز به من صفات محببة الى النفس لم يكن تشجيع الفنون والآداب بأقلها ، ظاهر القساوة الى حد الجنون ، وليس هنالك من يضاهيه في تلك الاوقات العاصفة التي عاش فيها ، لا سياسياً ولا عسكرياً . ففي ذلك العصر الذي امتاز بالحروب المستمرة كلف بفنون السلم كلفاً شديداً . فقد كان في احسن اوقاته وهو يستمع الى الموسيقى الجميلة ويحتسي خمرة شيراز الحلوة محاطاً بالشعراء ينظمون فيه القصائد ويغالون فيها بمدحه . ذلك كان من صالح الادب ولكنه لم يكن من صالح الدولة قط . فلم تكن مجالس الشراب ولا قصائد المديح لتستطيع ان تحافظ على دولته المتداعية . فما ان نازل بضعفه قائداً صلباً شجاعاً مثل مبارز الدين حتى تحطمت دولته شر تحطيم . وقـــد احتفل المظفري بدخوله شيراز وذلك باغلاق حانات الخمر دلالة على التديّن السني الذي عزم على فرضه على اهالي المدينة الشيعيين المثقفين . وهكذا قل رواج الشعر الذي كان ينظمه حافظ من خمريات وغزل وغناء . واذا به يصاب بخيبة ، فيجد نفسه (كما

تدلنـــا احدى المخطوطات المؤرخة سنة ١٣٥٥ والمحفوظة في طشقند) وقد صار الى رجل ينسخ اشعار غيره من الناس ليربح قوت يومه . ولنسمعه يندب الايام الحلوة التي مضت :

لم نعد نرى المحبة ، في احدٍ ، فمـــاذا اصاب الاحبة
الاعزاء ... ؟ !
وهل انعدمت الصداقة ... ؟ ومـــاذا اصاب الرفاق
والاصدقاء ... ؟ !

ولقد تكدر « ماء الحياة » ... فأين « الخضر » السعيد
الاثر ... ؟ !
وفاضت دماء الورد ... فماذا اصاب نسمات الربيع
المنتظر ... ؟!

وكانت هذه الديار دياراً للاحبة والاصحاب
فلما انتهى الحـب لم ادر مـــاذا اصاب منازل
الاحباب ... ؟ !

وقد طرحوا، في وسط الحلبة، كرة الكرامة والاحسان
ولكن احداً لا يقتحم الحلبة . فماذا اصاب الخيالة
والفرسان ... ؟ !

ولقد اينعت الورود ، ولكن الطير صامت عنها ...
غافل

فماذا اصاب الطير ، وماذا اسكت العنادل
والبلابل ... ؟ !

وأحرقت « الزهرة » قيثارتها ، فلم تعد تتغنى بلحن
الحب والحنين
ولم يعد احد من الناس يشرب على لحنها ، فماذا اصاب
الحرّيفة الشاربين ... ؟!

فيا « حافظ » ... ! صمتاً ... ! فلم يعد احد يعرف
اسرار الإمكان
ولم تعد لك فائدة من ان تسأل احداً عما اصاب
الزمان ... !! [1]

ودار دولاب الحظ مسرعاً نحو نكبة اخرى . فلم يطل الزمان بالفاتح المقدام لينعم بامبراطوريته الجديدة . ففي سنة ١٣٥٨ وقع في امر ابنه الشاه شجاع بينما كان على رأس حملة عسكرية استولى فيها لوقت قصير على مدينة تبريز . فأمر ابنه بسمل عينيه تبعاً لتلك العادة البربرية السائدة في تلك الايام . ثم قضى نحبه سنة ١٣٦٤ . ويظهر ان حافظاً لم ير من المناسب ان يلتمس فضل مبارز الدين ، ذلك الامير الفظ ، مع انه نظم قصيدتين يمدح بهما وزيره برهان الدين فتح الله .

---

١ – هذه الابيات من كتاب « اغاني شيراز » ترجمة الدكتور امين الشواربي ، الجزء الثاني ، ص ٨٥ .

لم يكن الحسد الاخوي ومنافسة الدويلات المجاورة ليحولا دون ان يتبوأ الشاه شجاع عرش اقليم فارس لسنوات طالت نسبياً . ففي سنة ١٣٦٣ استولى اخوه محمود على يزد ، وقد كان يحكم عـــلى ابرقوه واصفهان . ولكنه ما لبث ان حوصر في اصفهان حتى وصل الاميران الى اتفاقٍ ما كان ليدوم طويلاً . ففي السنة التالية تحالف محمود مع اويس الجلائري الذي كان على بغداد منذ سنة ١٣٥٥ ، ليضرب حصاراً حول شيراز دام احد عشر شهراً وانتهى باستيلائه عليها . ولكنه لم يلبث ان خسرها ثانية سنة ١٣٦٦ . وفي سنة ١٣٧٥ مات الشاه محمود فاستولى الشاه شجاع على اصفهان . واستطاع في السنة نفسها ان يخضع أويس فظن امير شيراز ان الوقت قد حان لان يتوسع بفتوحاته نحو اذربيجان محارباً حسيناً امير بغداد الجديد . غير ان ما احرزه الشاه شجاع من انتصارات كان نصيبه الخسران، فسرعان ما تبيّن له ان الشاه يحيى ابن اخيه يحوك المؤامرات ضده . فأوقف فتوحاته وعقد صلحاً مع حسين ، وازوج ابنـــه زين العابدين بابنة صاحب بغداد. غير ان ذلك لم يضع حداً للخلاف بين الاميرين المتجاورين . ففي سنة ١٣٨١ قـُتل حسين بيد اخيه احمد ، فالتمس هذا صداقة الشاه شجاع ومعونته لكي يتسنى له ان يجابه ما ينتج عن ذلك من مطالب للطامحين بالعرش ، ولكنه سرعان ما تنكـّر لهذه الصداقة حالما ضمن العرش لنفسه . غير ان سحابة كانت تتجمع في الافق في تلك الاثناء لتستحيل الى عاصفة سرعان ما كسحت كل تلك المؤامرات الصغيرة لتحيلها

الى دمار وترميها في مطاوي النسيان . ولد تيمورلنك ، ذلك الذي أورث الذكريات الرهيبة ، سنة ١٣٣٦ في بلدة كش من بلاد ما وراء النهر ، واعتلى العرش بعد ان أراق الدماء فيكون بذلك الوريث الاصيل لجغتاي والحفيد الحقيقي لجنكيزخان . وبعد ان بقي عشر سنوات في تدعيم حكمه ، اجتاح خراسان سنة ١٣٨٠، وفي غضون سنتين استولى على جرجان ومازندران وسجستان . اما الشاه شجاع فقد سلم بهذا الشؤم وابتاع رضى الفاتح العظيم بتقديمه الهدايا الثمينة له وتزويجه ابنته . وفي سنة ١٣٨٤ وافاه الاجل فاراحه من المتاعب المقبلة .

شهد عهد الشاه شجاع تفتح عبقرية حافظ على اكملها . ففي عهده أعيد فتح الحانات ورجع الشيرازيون المتخوفون الى سابق بهجتهم :

في وقت السحر ... اوصل « هاتف الغيب » الى سمعي
هذه الانباء السارة
بـــأن الدورة للشاه شجاع ، فاشرب الخمر في جرأة
وجسارة ... !!

فلقد انقضى ذلك العهد حينما كان ينزوي « اهل النظر »
وفي افواههم آلاف من ألوان الحديث ... وشفاههم
صامتة تنتظر ... !!

فلنقل الآن هذه الحكايات الطوال على صوت القيثارة
فقد ضاق باخفائها صدري ، واضطرب بما فيه من نار
حارة ... !!

والملوك وحدهم هم الذين يعلمون مصلحة الملك والسلطان
فحذار من ان تتنبس ببنت شفة يا «حافظ» فانك سائل
مسكين يلازم الاركان [١] .

وكان هـــذا الحذر في محله . فمع ان حافظاً افاد كثيراً من الروح التحررية التي كان يتميز بها الامير الجديد فان العلاقات بين الامير والشاعر لم تكن دائماً على ما يرام . فالمنافسة على عطايا الملك كانت شديدة كالمعتاد ، لا حدود لها يقف عندها المتنافسون في معركة الدهاء التي لا تعرف الرحمة . ذلك مـــا حدث لحافظ ، فوقع فيما لا تحمد عقباه . فقد رأى ان يتآمر على عماد الدين الكرماني ، وكان المفضّل من بين المتصوفين عند الشاه شجاع ، فلم يكن شاعراً وحسب بل كان الى ذلك مشهوراً باجتراح المعجزات. وقد درّب هرّةً ان يتابعه في الصلاة فيركع اذا ركع ويسجد اذا سجد . وأدهش هذا الامر صاحب شيراز ، فظن حافظ انه اذا ما تهكّم عليه فقد يبتعد الشاه عن هذا النظير الخطير . فما كان منه الا ان خاطب الشاه بهذه الابيات :

---

١ – ترجمة الدكتور ابراهيم الشواربي ، المرجع السابق ، الجزء الثاني ، ص ١٤٢ – ١٤٣ .

نصب « الصوفي » شباكه وفتح طوايا جعبته الماكرة
ووضع بذلك اساس المكر والخديعة مع الافلاك المشعوذة
الساحرة

ولكن ألعوبة الفلك كسرت له بيضة في قلنسوته
لانه اجترأ على عرض شعوذته على «اهل الاسرار»... !!
اما انت ايتها الحمامة التي تختال في مشيتها ... الى اين
تذهبين ... ؟ !

قفي ... ولا تنخدعي اذا اصبح قِط الزاهد بين
المصلين ... !!
وانت يا « حافظ » ! لا تلم المعربدين، لان الله منذ الازل
لم يجعلنا في حاجة الى الزهد والرياء والدجل ... !! [1]

ولكن بدلاً من ان يشكر الشاه شجاع لحافظ تحذيره هذا ، غضب عليه لنيله من ذكائه، او ربما لان حافظاً شبه الشاه بحمامة كانت ألعوبة سهلة بيدي هر سارق . ومما زاد الطين بلة حادث آخر اعتبره الشاه حطاً بكرامته، فقد كان الشاه شجاع، ككثير من الناس في ذلك الزمان ، يقضي وقته بنظم الشعر ، فظن من حقه ان ينتقد حافظاً ، فقال له ذات يوم : « ان واحدة من

---

١ – ترجمة الدكتور ابراهيم الشواربي ، المرجع السابق ، الجزء الاول ، ص ١٦٠ .

غزلياتك لا تجري على نهج واحد من أولها الى آخرها . بل اننا نجد في الغزل الواحد بعض الابيات في وصف الخمر ، والبعض الآخر في التصوف والباقي في التغزل بالحبيب ، وهذا التلوّن والتنوّع في اغراض الغزل لا يجيزهما البلغاء والفصحاء » . فأجابه حافظ : « ان ما قاله مولاي هو عين الصدق ومحض الصواب ، ومع ذلك فان اشعار « حافظ » يتردد ذكرها في سائر الآفاق ، بينما لا تستطيع ان تتعدى اقوال غيره من الشعراء ابواب شيراز »[1] . وقد اغضب الشاه شجاعاً هذا الرد اللاذع ، الجريء حتى بالنسبة الى شاعر فارسي ، فما زال يتحيّن الفرص ليتخلص نهائياً من هذا التابع المتمرد . حتى تهيأت له الفرصة عندما نمي اليه ان حافظاً نظم قصيدة ورد فيها بيت تنكّر فيه الى الاسلام :

اذا كان الاسلام هو ما لدى حافظ من معتقد
فوا ويلاه اذا كان بعد اليوم ، يوم آخر ... !![2]

---

١ – راجع كتاب « حافظ الشيرازي ، شاعر الغناء والغزل في ايران » . تأليف الدكتور ابراهيم الشواربي ، ص ٢١٨ . اما النص الفارسي الذي عرّبه المؤلف فهو منقول عن كتاب « حبيب السير » لخواند امير ، ص ٣٧ ، الجزء الثاني من المجلد الثالث .

٢ – ترجمة الدكتور ابراهيم الشواربي ، المرجع السابق ، ص ٢١٩ .

فقال الملك : « لماذا ، ان حافظاً هو مجرد كافر ، ينكر البعث . فكفّروه ايها الفقهاء » ! فخاف حافظ وأسرع الى زين الدين التايبادي ، احد الاولياء المشهورين ، وقد كان ماراً بشيراز في طريقه الى مكة ، وعرض عليه الامر ، فأشار عليه هذا الصوفي اللبق ان يسبق ذلك ببيت آخر يقرر فيه انه سمع شخصاً يقول البيت المأخوذ عليه . فأخذ حافظ ممتناً بهذه المشورة وعاد الى الشاه شجاع معدّلاً القصيدة :

وما أجمل ما جاء في هذا الحديث الذي سمعته في وقت
السحر ووعته اذناي
عندما اخذ يغنيه « مسيحي » على باب الحانة وعلى
نغمات الدف والناي ... !!

قال : اذا كان « الاسلام » هو ما لدى « حافظ » من
معتقد على هذه الشاكلة
فوا ويلاه ... ! اذ كان بعد اليوم يوم آخر ، او غداة
مقبلة ... !! [١]

ذاك هو نوع الروايات التي دوّنها المؤرخون المتأخرون عن حافظ والشاه شجاع . فليس لدينا اي سجل معاصر لهما .

---

١ – ترجمة الدكتور ابراهيم الشواربي ، « أغاني شيراز » ، الجزء الثاني ، ص ٣٢٢ .

ويبدو ان هذه الروايات هي على الارجح روايات مختلقة قصد منها توضيح بعض الامور الغامضة مما ورد في مؤلفات الشاعر المجموعة وتفسير بعض محاولات التقرب الى الامراء الآخرين . فهناك قصة رويت بالمناسبة مؤداها ان محمود شاه البهمني ارسل الى حافظ يدعوه الى بلاطه في الدكن « ومنحه مبلغاً من المال ينفقه على رحلته . فأنفق الشاعر قسماً كبيراً منه قبل مغادرته لشيراز ، وعند وصوله الى بلدة لار ، في طريقه الى الخليج الفارسي ، التقى بصديق له معدم فأعطاه ما تبقى معه من مال . ثم هيأت له الظروف ان يلتقي بتاجرين فارسيين ، هما خواجه زين الدين الهمداني وخواجه محمد الكازروني ، وكانا في طريقهما الى الهند ، فعرضا عليه ان يدفعا له نفقات السفر نظير التمتع برفقته . فسافر معهما الى ميناء هرمز ثم استقل السفينة التي كانت تنتظره هناك ، فما كادت تبحر به حتى هبت عاصفة هوجاء هالته هولاً شديداً وجعلته يعدل عن عزمه ويعود من حيث اتى . فلما رجع حافظ الى شيراز ارسل الى محمود شاه » قصيدة نظمها في هذه المناسبة . وقد نقل مؤرخ هندي عاش في القرن التاسع عشر هذه الرواية فأخذها إ. غ. براون على ظاهرها كما فعلت جرترود بل وغيرها . غير ان محمود شاه لم يعتل عرش البهمنيين الا في سنة ١٤٨٢ وهو غلام في الثانية عشرة من عمره وبذلك نكون امام امرين : اما ان دعوته وصلت الى حافظ وقد بلغ من الكبر سناً لا تسمح له على الارجح بالقيام بمثل هذه الرحلة الطويلة ، واما ان تكون هذه الحادثة ، وهذا هو الاقرب

الى الحقيقة ، من قبيل الروايات المسلية ، اختُلِقت لكي تؤيد القول بأن الشاعر كان ذا شهرة طبقت الآفاق . ومهما يكن من امر فقد أوحت هذه الرواية الى جرترود بل بقصيدة هي من اجمل ما ترجمته عن الفارسية [١] :

---

١ – اثبت في المتن الترجمة العربية للقصيدة المنسوبة الى حافظ ، وهي من ترجمة الدكتور ابراهيم الشواربي . راجع كتاب « اغاني شيراز » الجزء الثاني ، ص ٥٥ . وهذه هي ترجمة جرترود بل :

Not all the sum of earthly happiness
Is worth the bowed head of a moment's pain,
And if I sell for wine my dervish dress,
Worth more than what I sell is what I gain!
Land where my Lady dwells, thou holdest me
Enchained; else Fars were but a barren soil,
Not worth the journey over land and sea,
Not worth the toil!

Down in the quarter where they sell red wine,
My holy carpet scarce would fetch a cup -
How brave a pledge of piety is mine,
Which is not worth a goblet foaming up!
Mine enemy heaped scorn on me and said:
« Forth from the tavern gate! » Why am I thrust
From off the threshold? is my fallen head
Not worth the dust?

Wash white that travel-stained sad robe of thine!
Where word and deed alike on color bear,
The grape's fair purple garment shall outshine

قضاء لحظة واحدة في حزن ، لا يساويه العالم أجمع
فبع للخمر خرقتك فانها لا تساوي اكثر من ذلك...!!

ولدى بائعي الخمر ، لا تعدل سجادتك كأساً واحدة
فما ابدع سجادة التقوى هذه التي لا تساوي كأساً
واحدة ...!!

Thy many-colored rags and tattered gear.
Full easy seemed the sorrow of the sea
Lightened by hope of gain - hope flew too fast!
A hundred pearls were poor indemnity,
Not worth the blast.

The Sultan's crown, with priceless jewels set,
Encircles fear of death and constant dread;
It is a head — dress much desired — and yet
Art sure 'tis worth the danger to the head?
'Twere best for thee to hide thy face from those
That long for thee, the Conqueror's reward
Is never worth the army's long-drawn woes,
Worth fire and sword.

Ah, seek the treasure of a mind at rest
And store it in the treasury of Ease;
Not worth a loyal heart, a tranquil breast,
Were all the riches of thy lands and seas!
Ah, scorn, like Hafiz, the delights of earth,
Ask not one grain of favor from the base,
Two hundred sacks of jewels were not worth
Thy soul's disgrace!

ولقد لامني الرقيب وقال لي : « إلوِ وجهك عن هذا
الباب »
فماذا دهى رأسي ...؟ حتى اصبحت لا تساوي تراب
هذه الاعتاب ...!!

وهذا التـــاج السلطاني ينطوي على كثير من العظمة
والهيبة والخوف
وهو تاج اخاذ بمجامع القلوب حقاً ، ولكنه لا يساوي
اضاعة الرؤوس ... !!

وما ايسر ما بدت لي متاعب البحر عندما طمعت في
الربح
ولكني اخطأت تقديري لان هذا الطوفان لا تساويه
مئات الجواهر واللآلىء ... !!

ومن الخير لك ان تخفي وجهك عن اعين المشتاقين اليك
فالفرح بغزو العالم ، لا تساويه المتاعب التي تتحملها
الجيوش ... !!

واقنع كـ « حافظ » وامض عن هذه الدنيا السافلة
فان حبة واحدة من منّة السفلة ، لا تعدلها القناطير
المقنطرة من الذهب ... !!

وتتحدث رواية اخرى ، هي اقرب الى الواقع من سابقتها ،

عن عزم حافظ على الاقامـــة في بغداد ، وذلك عندما كان السلطان اويس على عرش الجلائريين (حكم من ١٣٥٥ – ١٣٧٤). غير ان حوادث القصة تجعلها اقرب الى وقوعها في السنوات الاخيرة المظلمة من عهد مبارز الدين من وقوعها في عهد الشاه شجاع .

وجوهرك المنقى ، غنيّ عن مدحنا
وماذا تفعل الماشطة ، في الحسن الموهوب من الله ... ؟!

ولم نصل في « شيراز » الى المقصود والمراد
فيا حبذا اليوم الذي يرحل فيـــه « حافظ » الى بغداد ... !! [1]

وعلى هـــذا النحو اخذ حافظ يتودد الى اويس . وقد كان اويس رجلاً له معرفة بالادب ، لا يتخذ من الشعراء اقل من سلمان الساوجي شاعرية ، فلا بد اذن من ان يغتبط اذا ما انضم حافظ الى بلاطه ، ذلك ان الامراء الفرس كانوا يقيسون عظمتهم بعظمة حاشيتهم ومنجزاتها ، تمـــاماً كما يقيسونها بانتصاراتهم العسكرية . وكذلك امل السلطان احمد بن اويس بأن يرحب بالشاعر الشيرازي في بغداد ، مما حدا بحافظ الى ان يقول :

---

١ – ترجمة الدكتور ابراهيم الشواربي ، المرجع السابق ، الجزء الاول ، ص ١٦٧ .

احمد الله على معدلة السلطان
احمد ابن الشيخ اويس من حسن الايلخاني

الخان ابن الخان والشاهنشاه بن الشاهنشاه
الذي يليق بك ان تسميه : « حياة العالم »

... ولم تتفتح لمتعي برعمة واحدة من براعم الورد
الفارسية
فيا حبذا دجلة بغداد... ويا حبذا خمرها الريحانية... !!

وافعل كالاتراك... فصفف ذؤابتك وهذب طرتك
ففي طالعك الجود « الخاقاني » والنشاط
« الجنكيزخاني » ... !![1]

وهو في قصيدة اخرى يقول مفتخراً :

ولقد اسرتَ ، يا حافظ !! « العراقَ » و « فارس »
بالشعر الحلو
فتعال الآن !! فالنوبة نوبة « بغداد » والوقت وقت
« تبريز » [2] .

---

١ – تعريب الدكتور ابراهيم الشواربي ، المرجع السابق ، الجزء الثاني ، ص ٢٩٥ – ٢٩٦ . وقد ورد البيت الاخير من المقطوعة المذكورة قبل سابقه .

٢ – تعريب الدكتور ابراهيم الشواربي ، المرجع السابق ، الجزء الاول ، ص ٨٤ .

ولكن عندما تحق الحاقة ، لم تكن الصعوبات وخيبة الامـــل لتبعده عن موطنه الاصلي الحبيب :

ونسيم « المصلّى » ومجرى نهر « ركناباد »
لم يأذنا لي بالسير والسفر ... !!

وكن كـ « حافظ » فلا تأخذ القدح الا على انين القيثارة
فانهم قد عقدوا حبات القلوب الى أوتارها الحريرية
الطروبة ... !![1]

اما ناقلة هذين البيتين الى الانجليزية [2] ، فهي ايضاً جرترود بل . وتذكرنا اماكن الجمال المعروفة هذه في شيراز بقصيدة ابعد شهرة هي « الاغنية الفارسية » لحـــافظ التي خلدها ايضاً في الانجليزية السير وليم جونز بلغته الانجليزية الكلاسيكية الرفيعة :

---

١ ـ تعريب الدكتور ابراهيم الشواربي ، المرجـــع السابق ، الجزء الثاني ، ص ٢٤ .

٢ ـ

The murmuring stream of Ruknabad, the breeze
That blows from out Mosalla's fair pleasaunce,
Summon me back when I would seek heart's ease,
Traveling afar ; what though Love's countenance
Be turned full hard and sorrowful on me,
I care not so that Time's unfriendly glance
Still from my Lady's beauty turned be.

لو ان ذلك التركي الشيرازي يأخذ قلوبنا باشارة واحدة
من يده
فانني من اجـــل خاله الاسود اهبه « سمرقند »
و « بخارى »

فيا ايها الساقي ! ناولني الخمر القانية ، فلن تجد في جنة
المأوى
أحلى مكاناً من حـــافة نهر « ركناباد » ، وروضة
« المصلى » [1]

ولنسمع حافظاً في قصيدة اخرى خفيفة الروح ممتعة يمتزج

---

١ – تعريب الدكتور ابراهيم الشواربي ، المرجع السابق ، الجزء الاول ،
ص ٥٥ . اما ترجمة السير وليم جونز فهي :

Sweet maid, if thou would'st charm my sight,
And bid these arms thy neck infold ;
That rosy cheek, that lily hand,
Would give thy poet more delight
Than all Bocara's vaunted gold,
Than all the gems of Samarcand

Boy, let yon liquid ruby flow,
And bid thy pensive heart be glad,
Whate'er the frowning zealots say :
Tell them, their Eden cannot show
A stream so clear as Rocnabad,
A bower so sweet as Mosellay.

فيها موضوعا الحب والخمر امتزاجاً بارعاً يخفي مـــا تتضمنه القصيدة من مديح ، لنسمعه يناظر قصيدة لسعدي فيذكر ممر « الله اكبر » الذي يقع الى الشمال من شيراز :

اي حاجة لحديقتي الى السرو والصنوبر ؟!
وهل تقل عنها شجرة الشمشاد الناشئة عندي في المنزل

فيا ايها « الناشيء المدلل » ! اي مذهب اتخذت لنفسك
بحيث اصبح دمي حلالاً لك اكثر من لبن امك ؟!

فاذا رأيت الهموم تطل عليك من بعيد، فاطلب الشراب
فقد شخّصنا لك داءك ، والمداواة به مقررة

ولماذا ننسحب ونبتعد عن اعتاب « شيخ المجوس » بائع الشراب ...؟!
والحظ الموفق في ذلك الجناب ، والفتح الميسر في ذلك الباب ...!!

و « احزان العشق » ليست الا قصة واحدة ، ولكن ما اعجبها من قصة !!
اسمعها في كل لسان ، ولكنها غير مكررة !

وليلة امس ، اعطاني الحبيب موعداً بوصاله وكان الشراب يلعب برأسه
فاليوم ما عساه يقول ؟! وماذا يكنّ لي في رأسه ؟!

ولا تَعِبْ « شيراز » ونهر « ركناباد » وهذا النسيم
البليل
ولا تحقر امرها فهي « الخال » على خد الاقاليم السبع

وفرق بين ماء الخضر الذي مكانه في الظلمات
وبين نهرنا الذي منبعه « الله اكبر »

ونحن لا نضيع شرف الفقر والقناعة
فقل للمليك : « ان القوت اليومي مقرر مقدر ... !! »

ويا حافظ !! اي طرفة بديعة قلمك الذي هو عود من
النبات !!
والذي يثمر من الفاكهة المحببة الى القلب ما هو أحلى من
الشهد والسكر ... !![1]

وتنتهي القصيدة بما سمح به للشاعر من فخر تلاعب فيه حافظ تلاعباً فيه الكثير من الابتكار .

وقد ذُكر الشاه شجاع على أقل تقدير في خمس من قصائد حافظ . ويمكننا ان نؤكد بقدر ما يخوّلنا الظن من تأكيد بأن هناك مقطوعات شعرية اخرى كثيرة جداً نظمها حافظ لكي

---

١ – تعريب الدكتور ابراهيم الشواربي ، المرجع السابق ، الجزء الاول ، ص ٩ – ٩١ .

تنال رضى الشاه دون ان يذكر اسمه فيها . هذا ولم ينس حافظ ان يتــودد ايضاً الى وزراء الشاه الكبار الذين تمكن بفضلهم وحدهم ان يصل الى الامير . وهناك اثنان من الوزراء على الاخص كانا هدفاً لسهامه الغنائية المجنحة، ويُروى ان الوزيرين اجازاه بما يستحق . وقد ذكر حافظ قوام الدين محمداً خمس مرات في شعره. وقوام الدين هذا قام بدور مهم في حملات الشاه شجاع العسكرية . وكذلك نظم حافظ بجلال الدين تورانشاه قصائد كثيرة . وقد بقي جلال الدين هذا في خدمة الشاه شجاع مدة عشرين عاماً ، ومات بعد سيده بستة اشهر . ودرج حافظ على تشبيهه بآصف وهو وزير سليمان، كما تذكر الاساطير العربية . وتشبيه هذا الوزير بآصف مديح لبق يتضمن بطبيعة الحال ان الشاه شجاعاً نفسه كان حكيماً عظيماً كما كان سليمان .

ولـّى الشاه شجاع قبيل موته ابنه زين العابدين علياً عـلى شيراز ، كما ولـّى اخاه عماد الدين احمد على كرمان . وما ان تسلم علي الحكم حتى خاصمه ابن عمه الشاه يحيى خصاماً لم ينفع معه عقد الصلح، فخسر اصفهان وهرب الى يزد. وفي سنة ١٣٨٧ علم يحيى ان عامله على اصفهان مظفراً الكاشي استسلم لتيمور عند مقدمه ، فغادر شيراز الى بغداد وتركها الى الشاه يحيى ليوقع ما يستطيع من شروط مع الفاتح الرهيب . امـــا اهالي اصفهان فقد بلغ بهم الجهل ان قتلوا رسل تيمور ليدفعوا دماءهم ثمناً لتهورهم هذا في مجزرة رهيبة . وولى تيمور السلطان احمد

على اقليم فارس وعلى كرمان . وتوالت على ذلك سلسلة عجيبة من الاحداث تعبّر عن طبيعة الاقدار المتقلبة التي حلت بذلك الزمان . اما زين العابدين علي فقد ضمن صداقة ابن عمه الشاه منصور في ششتر وذلك اثر مغادرته لشيراز . ولكن الشاه منصوراً هذا ما لبث ان هاجمه وأسره وبذلك فُتحت الطريق الى شيراز امام الشاه منصور . ولم يطل المقام بعلي في الأسر ، فما لبث ان فر بمساعدة حراس السجن ليتحالف مع الشاه يحيى والسلطان احمد ضد الشاه منصور . ولكن هذا الاخير استطاع التغلب على هذا الحلف ليستولي على بلاد العراق بأجمعها . اما علي فقد أركن الى القرار . غير ان حاكم الري ألقى عليه القبض وسلّمه الى الشاه منصور فأمر هذا بأن تسمل عيناه . اما منصور فطمح ، مغتراً بانتصاراته ، الى ان يجرّب حظه مع تيمور . ولكن هذا الطموح مني بالفشل ، فزحف الفاتح العظيم على ابواب شيراز وبعد مقاومة يائسة سقط منصور ، فأعلن من بقي من بني المظفر ولاءهم لتيمور ، ولكن اعترافهم المتأخر بالواقع المحتم لم يمهلهم الا اسبوعاً واحداً لكي يفنوا عن بكرة ابيهم . وكان ذلك في آذار (مارس) سنة ١٣٩٣ . وانتهى بانتهائهم مجد شيراز المظفرية .

كان حافظ قد بلغ الستين حين مات الشاه شجاع ، فاضطر في هذه السن المتقدمة الى ان يبحث عن امير آخر يلجأ اليه . وكان من طبيعة الحال ان يجد ضالته في ابنه زين العابدين، فمدحه

في عدة قصائد ، منها – كما يظن قاسم غني – « اغنية شيراز » المشهورة . ولهذا الظن مكان جدير بالاهتمام ، حتى ولو قادنا الى الاعتبار ان المقصود من « التركي الشيرازي » هو الملك الفتى نفسه ، لا « الفتاة الجميلة » كما ورد في التفسير الرومنطيقي الذي جاء به السير وليم جونز . وهكذا يكون زين العابدين قد رفض عرض حافظ بأن يلتحق بخدمته بصفة شاعر ومستشار خاص . ولكن رفض زين العابدين هذا لم يقنع حافظاً بأن يذعن له :

فاذا وبختني او عنّفتني فانني ادعو الله قائلاً :
أيليق الكلام المرير بالشفاه الحلوة الحمراء ؟ !

فيا حبيبي استمع لنصيحتي فان الشبان السعداء
يحبون اكثر من انفسهم نصيحة « الشيخ » العارف

وماذا كانت نصيحة الشاعر ؟

وتحدثْ عن الطرب والخمر ، واقلَّ البحث ، في اسرار الدهر
فان احداً لم يحلّ ، بالحكمة هذا اللغز المعمى ، ولن يكشف عنه احد [1]

---

١ – ترجمة الدكتور ابراهيم الشواربي ، المرجع السابق ، الجزء الاول ، ص ٥٥ – ٥٦ .

وبالاختصار فقد كانت فلسفة حافظ الخاصة اللاعقلانية العلاج الوحيد لجميع الامراض والمشكلات . وهذه الفلسفة تقـــول بالاستسلام الى مسرات الحياة الممتعة فيتخلص المرء بذلك من أوقاته العصيبة ، اي على حد ما يعبر عنه استاذه روزبهان : هي محبة الجمال العابر الذي هو ظل جمال الله الخالد وهو ظل ظاهر للعيان قريب المنال .

ويظهر ان زين العابدين لم يكن بحاجة الى اغاني حافظ ونصائحه . فحوّل الشاعر انظاره الى الشاه يحيى ليدل هذا على انه تجارة اشد ربحاً . ولكن ما ان طرد الشاه منصورُ الشاه يحيى من مملكته المقلقلة حتى هرع حافظ الى تقديم الولاء لهذا المنتصر الاخير ، فنظم فيه كثيراً من خيرة اشعاره وانضجها . وكان حافظ في تلك الاثناء يقضي ايامه الاخيرة. انه لمن المؤسف حقاً ان نرى شاعر الملوك يعيش في مثل هذه الاوقات المضطربة ، فتدعوه الحاجة الى الطواف ببضاعته من باب بلاط متهدم الى آخر . وقد بقي على قيد الحياة حتى شهد مقدم تيمور بأهواله ، فلا عجب اذن اذا تأوه في هذه الابيات عند رؤيته التتار ينصبون خيامهم عند اسوار شيراز :

يعتزم الدهر فتنة مرة ثانية
فها انا والسكر وفتنة عين الحبيب

انني لأعجب من دوران الفلك

ولا اعلم من ذا الذي سيوريه التراب

واذ يوقد شيخ المجوس النار

لا اعلم شعلة من يضيء ويعلي

ان خدعة الحياة قصة واضحة

والليلة حبلى لا احد يدري من ستلد في السحر

في ساحة القيامة هذه ، اريقت الدماء

فاسكب انت في الكأس دماء الدن !

وفي الايام الاخيرة من عمره ، هذا اذا كنا نثق بما رواه احد المؤرخين بعد موت الشاعر بما يقارب الثلاثين عاماً ، قابل حافظ تيمورلنك الذي تعرف الى شعره وعفا عنه لما ابداه من سرعة خاطر عرفت عنه : «فعندما قدمت بيارق سلطان العالمين ، حامي ديار العالم ، الامير تيمور غور خان ، وفي ايام افول دولة السلطان زين العابدين ، صدر الامان على اهالي شيراز . وكان الشاعر حافظ في جملة سكان المدينة ، يمتلك بيتاً في حي من احيائها ، ولذلك فقد ورد اسمه في قائمة الذين عليهم ان يدفعوا الفداء ووصلت التعليمات الى الجابي بأن يقبض منه مبلغاً من المال . فشكا الشاعر حاله الى الامير المذكور معلناً بأنه مفلس معدم . فقال له الامير : أأنت قائل هذه الابيات :

لو ان ذلك التركي الشيرازي يأخذ قلوبنا باشارة واحدة
من يده
فانني من اجـــل خاله الاسود اهبه «سمرقند»
و «بخارى» .

ان من يستطيع ان يهب بخارى وسمرقند من اجل خال واحد لا يمكن ان يكون مفلساً ! فأجاب حافظ ، انه بسبب هذا الاسراف اصبحت مفلساً ، فأعجب جلالته بهذا الجواب السريع واعفاه مما كان متوجباً عليه» .

تختلف روايات المؤرخين الفرس بعض الشيء حول السنة التي مات فيها حافظ ، واقربها الى الحقيقة هي انه توفي سنة ١٣٨٩ وهو في الرابعة والستين او الخامسة والستين . وقـــد دفن في المصلّى الذي كان في يوم من الايام تلك الحديقة من الورد التي شهرتها قصائده . اما اول من بنى مشهداً على ضريحه فكان الفاتح المغولي بابر ، باقتراح من استاذه محمد معمائي . وكان ذلك سنة ١٤٥٢ . ويقال انه لما دخل الشاه اسماعيل (حكم من ١٥٠٢ — ١٥٢٤) الى شيراز ، وهو اول الملوك الصفويين ، امر بأن يهدم المشهد . ولكنه الغى امره هذا عندما قيل له بأن حافظاً كان شيعياً وليس سنياً كما تبادر الى ذهنه . ذلك ضريح زميل

سعدي Hodgee Haier على حـــد تعبير توماس هربرت عند زيارته لشيراز .

وفي سنة ١٧٧٢ خصص مؤسس الاسرة الزندية كريم خان مبلغاً عظيماً من المال لتكبير المشهد ، فوضعت بلاطة من الرخام فوق القبر ، وبقيت هذه البلاطة على حالتها تلك ، مع شيء من الترميم الى ان شاهدها إ. غ. براون ووصفها بقوله : « يقع قبر حافظ في وسط حديقة مغلقة ، زرعت بطريقة جميلة بأشجار السرو والبرتقال . اما القبر فتدل عليه بلاطة من الحجر بسيطة ، بيضاوية الشكل حفرت عليها نقوش هي في معظمها مختارات من شعر حافظ » . ثم ذكر براون تلك المقطوعات واضاف قائلاً : « ان ما يتمتع به حافظ من شهرة لا تعادلها شهرة ، يتجلى بهذا العدد الكبير من القبور التي تحيط بضريحه . فأيُّ فارسي لا يرغب حقاً ان تختلط بقاياه ببقايا هذا الشاعر المجيد ، الذي لو وجد في هذا العصر لعمل التعصب كل ما بوسعه ليحرمه حتى حق مراسم الدفن » ؟ ! غير ان العالم الانجليزي لم يخطر بباله ان بعد ما يقارب الاثنتي عشرة سنة من زيارته لضريح حافظ انتهكت حرمة الضريح وحطمت البلاطة التي اقامها كريم خان ، وذلك اثناء انفجار آخر من التعصب حدث بقيادة احد المتصوفين . ولكن ، عندما كان على عرش بلاد فارس رضا شاه بهلوي ، وكان علي اصغر حكمت وزيراً للمعارف ، كفّرا عن هذا العمل الشائن تكفيراً مشرّفاً فشيّدا

ضريحاً جديداً ، يفوق بفخامته المشهد القديم . وماذا اختير من قصائد حافظ ليزيّن بها الضريح ، غير تلك التي يتنبأ بها عن موته وعن خلوده . وقـــد ترجمتها الى الانجليزية جرترود بل ترجمة في غاية من الجمال [١] :

---

١ –

Where are the tidings of union? that I may arise -
Forth from the dust I will rise up to welcome thee!
My soul, like a homing bird, yearning for paradise,
Shall arise and soar, from the snares of the world set free.
When the voice of thy love shall call me to be thy slave,
I shall rise to a greater far than the mastery
Of life and the living, time and the mortal span:
Pour down, oh Lord! from the clouds of thy guiding grace
The rain of a mercy that quickeneth on my grave,
Before, like dust that the wind bears from place to place,
I arise and flee beyond the knowledge of man.
When to my grave thou turnest thy blessed feet,
Wine and the lute thou shalt bring in thine hand to me,
Thy voice shall ring through the folds of my winding-sheet,
And I will arise and dance to thy minstrelsy.
Though I be old, clasp me one night to thy breast,
And I, when the dawn shall come to awaken me,
With the flush of youth on my cheek from thy bosom will rise.
Rise up! let mine eyes delight in thy stately grace!

اين بشرى وصالك ... ؟ حتى اهب من رقادي للقائك
فانا « طائر القدس » قد افلتُّ من شباك الدنيا على
ندائك ... !!

ومجيي لك ... لو انك دعوتني الخادم الوفي الامين
لصحوت وانا سيد الاكوان على دعائك ... !!

فيا رب ... ! ادركني بغيب من سحب الهداية
قبلما اهب بغتة من التراب محروماً من آلائك ... !!

واجلس على تربتي ومعك المطرب والشراب
حتى اهبَّ من لحـــدي ، طمعاً فيك ، راقصاً على
نغماتك ... !!

ثم قـُمْ ... ايها الصنم الجميل! وأرني قدك وخفة حركاتك
فانني عنـــد ذلك اهب راغباً في الحياة ، مصفقاً
لبهائك... !!

فان كنتُ شيخاً ... فضمني ليلةً الى صدرك ، وضيّق
عليَّ العناق
فانني في وقت السحر ... اهب غض الاهاب ، جمَّ
الشباب من ضماتك

Thou art the goal to which all men's endeavor has pressed,
And thou the idol of Hafiz' worship; thy face
From the world and life shall bid him come forth and arise !

ثم امنحني مهلة ... لكي اراك فيها يوم الممات والرحيل
فقد استطيع كـ «حافظ» ان اهب راغباً في الحياة
للقائك ... !! [1]

ليس هنالك صوفي تحدث عن الاتحاد بالعاشق المعشوق الالهي بمثل هذا الصدق وهذه البلاغة .

الى الآن كان الحديث يدور حول حافظ شاعر الامراء . اما اذا أردنا ان نوضح العلاقة بين احوال حياته ومعيشته وبين تاريخ شيراز في آخر عهد لها من الامجاد في العصور الوسطى فلا بد لنا ان نقول بأن حقيقة عظمة حافظ هي في عبادته الصوفية للجمال، التي ألهمته في جميع ما كتب . وما علينا الآن الا ان ندرس اولاً خَلْقَه للجمال في ما هو خارج عما تحت ارادته : اي اللغة الفارسية، والاوزان والقوافي والصور البيانية في الشعر الفارسي. كان حافظ في هذه الامور مديناً جداً لاسلافه ولابن بلدته سعدي، فقد سوّغ وثقف، اكثر من اي شخص غيره، كلا اللغة والاسلوب الشعري ، ولكن عبقريته جعلته لا يكتفي باتباع هذا المثال بل فاق عليه ، فمفرداته غنية متنوعة ، وهو يحسن الموازنة بين لغة الشعب واللغة العلمية ، ويتجنب استعمال تلك التعابير الحوشية الثقيلة التي كانت تثقل ابيات شعراء المدح المحترفين في القرون

---

١ — ترجمة الدكتور ابراهيم الشواربي ، المرجع السابق ، الجزء الثاني ، ص ٢٣٧ — ٢٣٨ .

السابقة، حتى اننا نستطيع ان نقول بحق بأن ما كتبه انما يفهمه الناس جميعاً ، فهو يستعمل مختلف الصناعات الادبية التي أذعنت لها اللغة اذعاناً طيعاً ، ولكنه يتجنب الافراط وما ينتج عنه من ملل وغموض .

وقد احسن التعبير عن هذه النقطة المرحوم ميرزا محمد قزويني بما سماه « الشعر من الدرجة الاولى » في الفارسية » . قال : « يتألف الشعر ، كما هو معروف ، من عنصرين اثنين هما المبنى والمعنى . والشاعر الحق والناظم المجيد كلاهما يحافظان على التوازن الدقيق بين هذين العاملين ، اي المبنى والمعنى . وهما لا يفرطان ولا يقصران بأي منهما . فهما لا يبالغان بتجميل المبنى وتنميق التعابير وذلك بأن يستعملا الصناعات اللفظية المتأنقة ، كالتلاعب على الالفاظ والكناية وشبه الكناية والمقابلة والترديد والجناس وتغيير النقاط ونظم القصائد التي تؤلف الحروف الاولى من ابياتها كلاماً مفيداً، واسناد الاجزاء بعضها الى بعض، ولزوم ما لا يلزم ، واستعمال الحروف المنقوطة وغير المنقوطة، والمتصلة وغير المتصلة ، وما الى ذلك من فنون هي اشبه ما تكون بألاعيب الاولاد مما هي بأصول بليغ النثر والشعر التي يتقيّد بها الرجال الجادون . هذا والشاعر الحق لا يهتم بتجميل المعاني فينشغل بالاخيلة المنسوجة نسجاً انيقاً وبالافكار المتضمّنة والتشابيه الغارقة في الابهام والاستشهادات الغامضة التي من شأنها تعقيد اللغة وابهام المقصد مما يضطر السامع الى ان يجدّ في التفكير

ليدرك ما يقصده الشاعر . وهذا ما يتميز به مثلاً الشعراء «الهنود» . والشاعر الحق لا يبالغ باستعمال الفنون البيانية كالمقابلة والمعادلة والتورية والابهام والاستدراك والتظاهر والتلميح والوصل والقطع وما شابه ذلك ، الى حد ارهاق عبارته واتعاب السامع . انه من الواضح طبعاً ان اجادة استعمال فن من هذه الفنون، إما وحده وإما مع فن آخر او فنين، لـيَزيدُ من بلاغة الاسلوب . ولكن ما ان تتكاثر هذه الفنون وما ان يزدحم عدد منها في بيت واحد او يتقارب بعضها من بعض حتى يتألف شكل في غاية من التصنع هو ، في الحقيقة ، اهانة لفن الشعر ذاته ، ولا ينتج عنه الا ملل السامعين وارهاقهم » .

وبعد ان يعرض القزويني جميع شعراء الدرجة الاولى من الفرس يصل الى النتيجة التالية : «ان من تحتوي قصائده وتتضمن كل ما يمكن ان يوجد في الشعر من جمال ، سواء أكان في اللغة ام في المعنى ، وكل صفة من صفات الخيال او الواقع التي توجد في الكلام الجميل ، وهـــو ، في الوقت ذاته ، ابلغ من كتبوا واشدهم ايقاعاً في كل العصور بما فيها العصور القديمة والحديثة على السواء ، ان هذا الرجل ، الذي ، اذا قيس بكواكب الشعر من الطبقة الاولى ، كان شمساً مشرقة ، هو ، بدون اي استثناء وبدون اي شك او تردد ، الخواجا شمس الحق والملة والدين محمد حافظ الشيرازي ، قدس الله روحه العظيمة » !

كان حافظ اذاً صانعاً عظيماً للكلمات والصور . وهذه هي

المواد الاولية التي يتألف منها عملياً الشعر الصافي . ولكن الكلام في الواقع ، على ضرورته في خلق الشعر العظيم ، لا يكفي وحده بطبيعة الحال لخلق اعظم الشعر . لم يكن حافظ مجرد صانع ماهر يعمل بحذق لاختراع الاشكال المعجبة ، فإعطاء هذه الاشكال معاني خالدة يتطلب فلسفة لا تقل رقياً ، ويتطلب رؤى شاعر ورسالة شاعر خليقةً بالاستكشاف في اي زمان وحريّة بالقبول في اي مكان . واذا كان حافظ يتحدث الينا بهذه النضارة وبهذا الايحاء ، في القرن العشرين ، كما كان يتحدث الى الشعب الفارسي في تلك الازمات الشديدة التي مرت بها حضارته في العصور الوسطى ، فلأن روحه ارتفعت صعداً فوق الفساد المادي الذي اصيب به ذلك الزمان وكل زمان ، ولانه وجد في عبادة الجمال الخالص الطريق الوحيد لفهم اللاعقلانية المتجلية في مصير البشر . ولنردد ما قاله رضا زاده شفق : « بالاضافة الى الحساسية والشعور الحاد اللذين يضيئان شعر الخواجا يعجب المرء كيف ان هذا الشاعر المتحرر في طبعه استطاع ان يحافظ على قوة خياله الشعرية وجديته في وجه الحوادث الدامية التي مني بها الزمان الذي عاش فيه . فقد كانت بلاد فارس جمعاء تتمخّض بالثورة والعدوان ، ولا يُستثنى اقليم فارس ولا شيراز ذاتها من هذه المعركة . فقد شاهد حافظ بأم عينه قتل الملوك وتدمير البيوت وحروب المغتصبين ، كما شاهد حتى الخصام بين بني المظفر ذاتهم . غير انه كان ، على ما يبدو ، ينظر الى هذه الحوادث بجلال روحي كأنها امواج صغيرة في

البحر المحيط . كان نظره مركزاً على وحدة اوقيانوس الطبيعة ، على معنى الكون وغايته . صحيح ان فكره كان يثور من حين الى آخر ، فتستبد به العاطفة ويقول :

ما هذه الفوضى التي اراها في الجو المتقلب ؟
ارى كل الآفاق مدلهمة بالثورة والعدوان .

ولكنه كان دائماً يعود الى رصانته العقلية فيسعى الى طمأنينة القلب في عالم يضطرب تحت افكاره الواسعة السماوية » .

اما نحن ، اولئك الذين نعيش في ازمة من الحضارة لا تقل يأساً ، وفي ايام يبدو فيها ان كثيراً من الشعراء والفنانين والموسيقيين المحدثين قد اتخذوا تأليه الفوضى والقبح ديناً لهم ، فيحسن بنا ان نتأمل قضية حافظ هذه المعجبة . ذلك الشاعر الذي ظل مؤمناً بالجمال ، في عالم تستوطنه الفوضى والقبح . يعبد الجمال ويخلق الجمال ويُبقي الجمال على قيد الحياة يؤاسي به ويلهم رفاقه ضحايا الظروف المحتمة ، دائم النظر يشعّ فيضيء انفسنا والاجيال القادمة على السواء . والآن فلنردد قصيدة اخرى من تلــــك القصائد الكثيرة التي تتحدث عــن ايمانه الراسخ بالنظام الالهي والتي تقدم لنـــا حلّه للغز اسر الروح الخالدة ضمن حدود الزمان والمكان . هنا نرى ابياتاً يتأمل فيها حافظ بما في الاسلام من سر عظيم تجلـّى باستشهاد الحلاج ذلك الولي المتصوف :

منذ سنوات وقلبي يطلب مني كأس جمشيد
ويتمنى ما فيه من كل غريب وبعيد

والجوهرة التي خرجت من اصداف « الكون والمكان »
كثيراً ما طلبها من الضالين على شاطىء اليمّ ... !!

وليلة امس حملت « مشكلتي » الى « شيخ المجوس »
فهو قادر على ان يحل « المعمى » بتأييد من نظره

فرأيته هاشاً باسماً ، في يده قدح من الخمر
وكان يتفرج في مرآتها على مئات من الاشكال

وقلبه كالبرعمة المقفلة يخفي اسرار الحقيقة
ولكنه حشّى اوراق خاطره من نسخة قلبه

فقلت له : « متى اعطاك الحكيم هذه الكأس التي ترى
فيها العالم ... » ؟
فقال : « في اليوم الذي صنع فيه هذه القبة الزرقاء »

والله مع الموله الواجد في كل الاحوال
ولكنه لم يره ، فظل يناديه من بعيد بقوله : « يا الله »

وهذه الشعوذة التي احكمها « السامري »
عملها امام عصا موسى ويده البيضاء

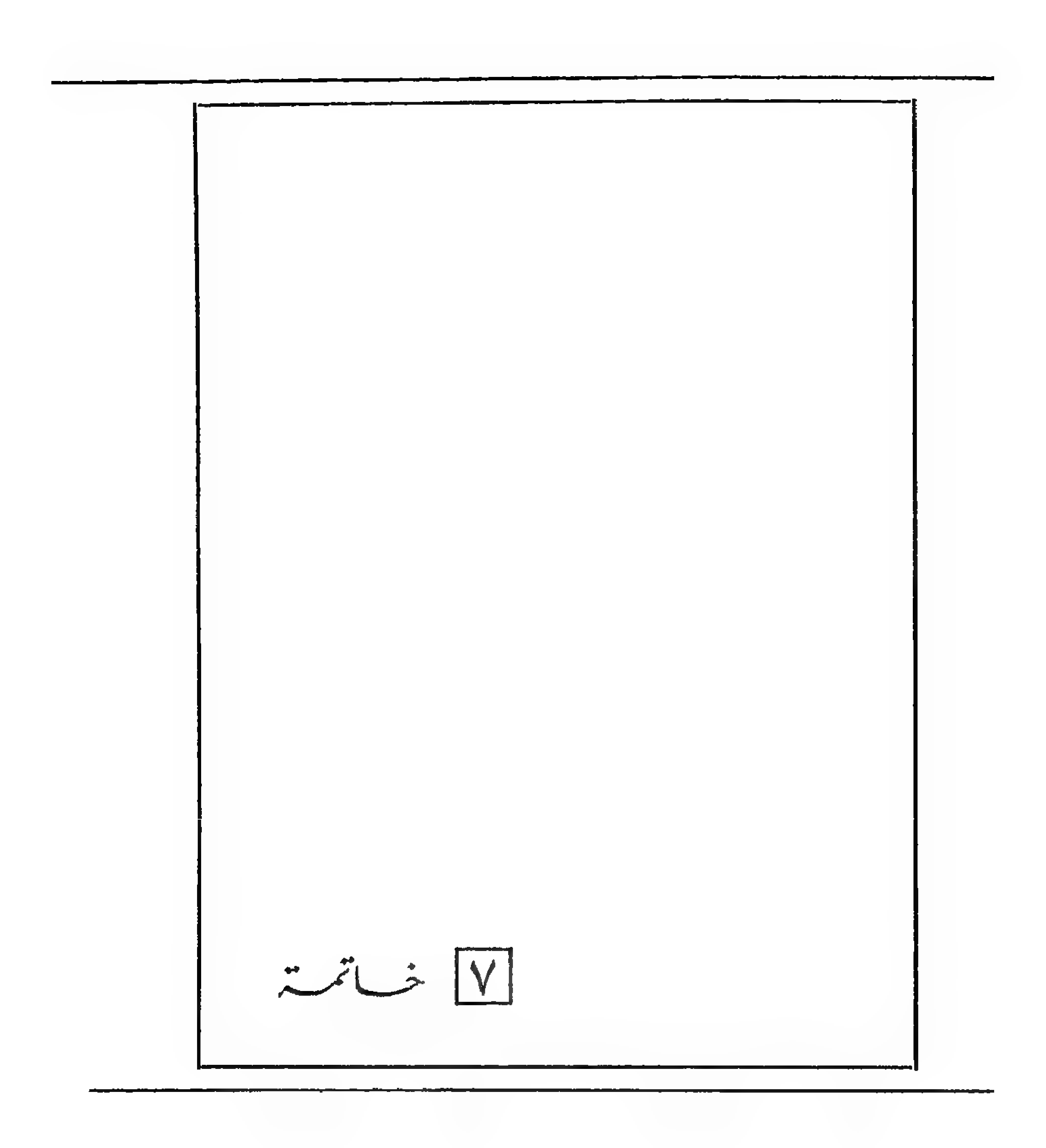
فأجاب : «ان هذا الصديق الذي ارتفعت به قمة المشنقة
كان جرمه انه اذاع الاسرار »

واذا اعانتني روح القدس بالمدد مرة ثانية
فان الآخرين ايضاً يفعلون ما فعله المسيح

قلت له : « ومـــا فائدة هذه السلاسل من جدائل الحسان ... » ؟ !
فأجاب : « لان حافظاً يشكو من قلبه الثائر الوهان ... » ؟ ![1]

---

١ — ترجمة الدكتور ابراهيم الشواربي ، المرجع السابق ، الجزء الاول ، ص ١٥٢ — ١٥٣ .



٧ خاتمة

حين آتي بالقلم السمكي (النوني) للكتابة
تستطيع ان تسأل عن تفسير ذلك من سورة «نون والقلم
وما يسطرون » وستفهم ذلك من السورة

لقد سبكتُ النفس والعقل معاً
والبذور التي حصلت من هذه السبيكة بذرتها

وفي هذا التركيب تجد الانتعاشة والفرحة جلية واضحة
وهي تمثل روح الشعر في جسم اجزائه .

يُقصد من هذا العرض السريع للحضارة التي كانت ترفل بها شيراز، التركيز على مجتمع يختلف في كثير من الامور عن المفهوم الاصولي لما يؤلف وحدة سياسية مستمرة . فهو مجتمع لم يتوقف مصيره على ارادة الشعب الذي يختار ما يريد وانما قيّد مصيره هذا بكرّ القبائل المجتاحة وفرها وبالحكومات المستبدة تقوم لأمد قصير ثم تسقط . ويحدثنا تاريخ شيراز السياسي عن شعب كانت تسوقه الى هنا وهناك قوات كان من الصعب مقاومتها ،

او حتى التحكم بها ، بسبب كثرتها ومنعتها وصعوبة تقدير اعدادها واتجاهاتها . صحيح انه خلال هذه القرون المشلولة وجدت فترات قليلة كانت فيها الشعوب تثور وتطرد حاكماً غير مرغوب فيه . ولكن هذه الثورات كانت قليلة وقصيرة الامد الى ابعد حد . ولا نستطيع ان نعرف الآن (مع انه يمكننا التخمين) مَن مِن الحكام الطغاة كان يحوك هذه الثورات .

كان من المفروض ان يكون محصول هذه القرون من الظلم هو البؤس والفقر والغفلة والعقم . غير ان سجل التاريخ يرينا عكس ذلك . فقد ازدهرت التجارة والعلوم ، وزاول الناس فنون السلم مزاولة فيها الكثير من الحماسة والحذق ، وزينت المدينة جيلاً بعد جيل بالمباني الانيقة والحدائق الرحبة، وأُسست المدارس والمستشفيات ، ووقفت لها الوقوفات السخية ، وكان الله يُعبد في المساجد والمعابد والشوارع والساحات والبيوت ، وتربّع الجمال على عرش الملك ، وبرهنت شيراز ، كعادتها ، ان الروح البشرية ، اذا ما تحصنت بالايمان وتحررت وهي معتزة وراضية بمـــا كتب الله لها ، تقوى على مجابهة ابشع غدرات الزمان ، وتقدر على خلق النظام من الفوضى ، والجمال الاثيري من القبح المخيف ، والسعادة المؤنسة من الحزن الموحش .

ان ابيات حافظ التي تُوِّجت بها هذه الخاتمة ، هي من قصيدة يرثي بها صديق عزيز . والقصيدة بأكملها هي وثيقة صوفية مهمة . وقد ذُكرت في هذا المجال لتدل على ما يمتاز به

الشاعر من تبصر عجيب في السر الذي وراء ما لبلاد فارس من مساهمة جوهرية في الكرامة الانسانية والسعادة – وذلك هو روح صفائها الكامل و «انتعاشها» الكبرى . فهو يحدثنا عن امتزاج الروح والعقل ، ذلك الامتزاج الدقيق الذي وازن بين حرارة العاطفة وبرودة الروية وذلـــك الذي اعطى ما لبلاد فارس من حضارة فريدة وطريقة للحياة . فالفن الفارسي ، كالشعر الفارسي ، يخاطب العقل كما يخاطب العاطفة ، وكمالـُهُ انما يكمن في هذه الصفة ، ذلك ان العقل يغتبط في استطلاعه درجات المعنى المتعددة ، وانواع النماذج الكثيرة ، بينما تتعالى الروح بواسطة السحر الحسيّ الذي يضفيه الصوت واللون ، فاذا باللقاء تجربة جمالية تامة .

وهكذا فبسبب هذا الجمال الذي خلقه اهالي هذه المدينة ، وبسبب ثباتهم على عبادة الجمال ، وبسبب ما يوحي به ايمانهم ، وبسبب حياتهم المثالية فان شيراز لتستحق حقاً اعجابنا ومحبتنا .

جـدول بالسلالات الحاكمة

ايران قبل الاسلام

الامبراطورية الميدية	٧٠٨ — ٥٥٠ ق٠ م٠
الاخمنيون	٥٤٦ — ٣٣٠
السلوقيون	٣٢٠ — ٢٦٠
البارثيون	٢٥٠ ق٠ م٠ — ٢٢٦ ب٠ م٠
الساسانيون	٢٢٦ — ٦٥١ ب ٠ م ٠

ايران بعد الاسلام

الفتح العربي	حوالي ٦٤٠ — ٦٥٠
اعادة بناء شيراز	٦٩٣
البويهيون	٩٣٢ — ١٠٥٥
معز الدولة	٩٣٢ — ٩٦٧
عضد الدولة	٩٥٠ — ٩٨٣
شرف الدولة	٩٨٣ — ٩٨٩
صمصام الدولة	٩٨٩ — ٩٩٨
الاتابكة السلاجقة	١٠٥٥ — ١١٤٧

بنو سُلغُر	١١٤٨ — ١٢٨٧
سُنقر	١١٤٨ — ١١٦١
زنكي	١١٦١ — ١١٧٥
تقلا	١١٧٥ — ١١٩٤
سعد	١١٩٥ — ١٢٢٦
ابو بكر	١٢٢٦ — ١٢٦٠
الحكام المغول	١٢٦٥ — ١٣٢٥
بنو اينجو	١٣٢٥ — ١٣٥٣
محمود شاه	١٣٢٥ — ١٣٣٥
ابو اسحاق	١٣٤٣ — ١٣٥٣
بنو المظفّر	١٣٥٣ — ١٣٩٣
مبارز الدين	١٣٥٣ — ١٣٥٨
شاه شجاع	١٣٥٨ — ١٣٨٤
التيموريون	١٣٩٣ — ١٥٠٠
الصفويون	١٥٠٢ — ١٧٣٦
الافشريون	١٧٣٦ — ١٧٥٠
بنو زند	١٧٥٠ — ١٧٩٤
القاجاريون	١٧٩٤ — ١٩٢٤

مراجع مختارة

Arberry, A. J. (ed.) *The Legacy of Persia.* Oxford, 1953. Essays by various hands on aspects of Persian history and civilization.

——. *Classical Persian Literature.* London, 1958. A documented history of Persian writing from the eighth to the fifteenth century.

——. *Sufism.* London, 1950. A concise account of mysticism in Islam.

Bell, Gertrude. *Poems from the Divan of Hafiz.* New edition. London, 1928. Exquisite paraphrases in English verse, with an illuminating historical introduction.

Browne, E. G. *A Literary History of the Persians.* New edition. 4 vols. Cambridge, 1928. A brilliant and comprehensive four-volume survey of Persian history and literature to the end of the nineteenth century.

——. *A Year Amongst the Persians.* Cambridge, 1893. A famous account of a journey made in 1887–88.

Dailami. *See* Ibn Junaid.

Emerson, R. W. *See* Gladwin, F.

Garakani, 'Abd al-'Azim. *Gulistan.* Tehran, 1931. An edition of the Persian text of Sa'di, with an original and critical biography.

Ghani, Qasim. *Tarikh-i 'Asr-i Hafiz.* Tehran, 1942. A detailed and well-documented account in Persian of the history of Persia during the fourteenth century.

Gladwin, F. *The Gulistan of Saadi.* With an introductory essay by R. W. Emerson. Boston, 1884.

Hamd Allah Mustaufi. *Nuzhat al-Qulub.* The geographical section, translated by G. Le Strange. London, 1919.
Herbert, Sir Thomas. *Travels in Persia.* Abridged edition by W. Foster London, 1928.
Hitti, P. K. *History of the Arabs.* Second edition. London, 1940. A work of capital importance for the background to Persia under Arab domination.
Hujwiri. *Kashf al-Mahjub.* English translation by R. A. Nicholson. London, 1911. The oldest account of Sufism in Persian.
Ibn al-Balkhi. *Fars-namah.* Edited in Persian by G. Le Strange. London, 1921. A traditional history of the province of Fars.
Ibn Junaid. *Biography of Ibn Khafif.* Persian translation from the Arabic of Dailami. Edited by A.-M. Schimmel Tari. Ankara, 1955. Good double introduction in German and Turkish.
Ibn Zarkub. *Shiraz-namah.* Tehran, 1932. Persian account of the history of Shiraz to the middle of the fourteenth century.
Lane-Poole, S. *The Mohammadan Dynasties.* London, 1893. A concise and clear exposition of the dynastic history of Islam.
Lockhart, L. *Persian Cities.* London, 1960. An admirable survey of the history and topography of Persian cities, finely illustrated.
Massé, H. *Essai sur le poète Saadi.* Paris, 1919. A scholarly reconstruction of Sa'di's biography.
Nicholson, R. A. *Eastern Poetry and Prose.* Cambridge, 1922. A very readable anthology of Arabic and Persian literature.
Pezhman, Husain. *Divan-i Hafiz.* Tehran, 1936. An edition of Hafiz' poems, with a historical and critical introduction in Persian.
Ruzbihan. *Le Jasmin des Fidèles d'Amour.* Paris, 1958. Edited in Persian by H. Corbin and M. Mo'in, with long

and most informative preliminary discourses in French and Persian.

Shafaq, Rida-zadah. *Tarikh-i Adabiyat-i Iran.* Tehran, 1942. A clear summary of Persian literary history.

Sykes, Sir Percy. *History of Persia.* Third edition. London, 1930. A two-volume survey.

فهرست

أ

ب

ت

ث

ج

ح

د

ر

ز

س

ش

ص

ط

ع

ق

ك

ن

هـ

ي

فهرست المحتويات

ف. ب. (١٧٤)
١٩٦٧

سلسلة مراكز الحضارة

« شيراز مدينة الأولياء والشعراء » هو الكتاب الثالث من هذه السلسلة الفريدة . ويسعى آرثر آربري ، ها هنا ، الى ان يفسر تاريخ شيراز تفسيراً يعلّل خلودها الصامد عبر قرون وقرون من الفوضى والظلم وإراقة الدماء والصراع الاقليمي والتهدم مرة بعد أخرى ؛ إنها المدينة ذات التراث الروحي الخالص الذي يجد تجسّده في حياة واعمال رجـال الفن والدين فيها ، رجال الشعر والتصوف ، من أمثـال سعدي وحافظ وابن حفيف وروزبهان البقلي ؛ بل اكثر من هذا يرى المؤلف ان السرّ كل السر في خلود شيراز هو في عناصر سمّاها « عبادة الجمال ، ومحبة الجميل ورؤية الجمال روحاً خالداً يتعالى عن المظاهر ولكنه يسبغ عليها في الوقت نفسه مدلولاتها ، مضفياً معنى على الحياة ، وتعزيةً وسط أرزاء الحياة التي لا تحصى » . وقد فتش الكاتب على هذا في تاريخ شيراز ، فكان بذلك رائداً من روّاد فهم مدينة الاولياء والشعراء .

الكتب التي صدرت من هذه السلسلة :

دمشق في عصر المماليك

تأليف وترجمة الدكتور نقولا زياده

أثينا في عهد بركليس

تأليف : تشارلز ألكسندر روبنصن
ترجمة : الدكتور أنيس فريحة

فاس في عصر بني مرين

تأليف : روجيه لو تورنو
ترجمة : الدكتور نقولا زياده

طيبة في عهد أمنحوتب الثالث

تأليف : اليزابث رايفشتال
ترجمة : ابراهيم رزق

●

الناشر : ... بيروت